

دعوة الحق



مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الشفاعة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

عدد خاص

عن جائحة كورونا (Covid-19)

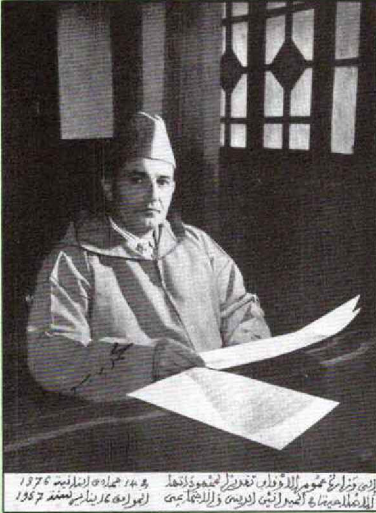
السنة الرابعة والستون - العدد 435 ذو القعدة 1442هـ / يوليو 2021م

435

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة الرابعة والستون - العدد 435 ذو القعدة 1442هـ / يوليو 2021م



الملك الحسن الثاني رحمه الله تعالى في مكتبه بالرباط
في 14 جمادى الأولى 1376هـ / 1957م



أسسها

جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957م

”... ولعلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصحة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تُعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتفت مولها ذو عالة العكر والثقافة والإصلاح في مسنده
البلاد وغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تملك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاح والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى ”مجلة دعوة الحق“ بمناسبة صدورها في شهر يوليو 1957

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mhaj.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دهم

الخارج : 300 درهم ثمن العدد : 15 دهم

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الرقم الدولي : 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمنية - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده



افتتاحية

في هذا العدد يقف القارئ الكريم على حقائق تاريخية وتجارية ميدانية ومعلومات ومبادرات، أبدع فيها الإنسان المغربي ولم يأل جهدا، من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وصدا ما في إمكانه صده من الأوبئة الترمية فتت تغتلب بالملايين من أبناء البشرية.

وفي هذا العدد الخاص... مساهمات توثق للتدابير التي اتخذتها الدول المتعاقبة على عرش المملكة المغربية لمواجهة الجائحات والملمات الوبائية، التي عرفتها بلاد المغرب عبر السنين، وخصوصا تلك التي شهدها القرون الأربعة الأخيرة، خلال حكم الدولة العلوية الشريفة؛ حيث راكمت من المواقف والتجارب، والإجراءات على مستوى التنخيز العلمي أو التدبير العملي للجائحات، رصيدا لم تغفله ذاكرة التاريخ...

وفي هذا العدد أيضا، حاولت أسرة التحرير أن تتحف القارئ بألوان من هذه التجارب، التي استفادت منها الأجيال تلو الأجيال وتذيلها بملف أفرسته لتوثيق مساهمة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الحد من جائحة كورونا 19، التي ضربت العالم بأسره، وما كادت المملكة المغربية أن تنجو من لأوائها، لولا النظرة الثاقبة والمبادرة الاستباقية المتبصرة لمولانا أمير المؤمنين، صاحب جلالة الملك محمد السادس نصره الله وحفظه، الذي جمع الأمة على كلمة سواء، وجند هباتها وإمكاناتها لصدا الوباء والحد من آثاره ووقعه، احترازا ووقاية وعلاجا ومتابعة...

قراءة ممتعة...

في أركيولوجيا الأوبئة وموقف سلاطين المغرب وملوكة العلويين

ذ. سمير بوزويطة

جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس.

لا نريد أن نقدم إلى القارئ بأن ماضينا كان مشرقا وأن الناس كانوا يعيشون في بحبوحة ونعيم، وأن الأزمات والمصاعب إنما كانت لحظات محدودة في الزمان والمكان. إنها حقيقة صورة رتيبة ومخالفة للواقع. وما نسعى إليه اليوم، هو أن ندفع جماعة المؤرخين إلى إعادة قراءة ماضينا، وإلى تبيان كيف كان يعيش أجدادنا، وكيف كانوا يواجهون مشاكلهم اليومية، وكيف كانوا يتقبلون بين النعماء والبأساء، وكيف كانوا يتحملون الأقدار حينما تقسو عليهم، وما هي طبيعة التناقضات التي تبرز في المجتمع، سواء في زمن الرخاء أو في زمن الشدة.

والسؤال المطروح الآن ليس فقط تدبير وباء كورونا والذي هو هاجسنا وهاجس الإنسانية جمعاء، وإنما السؤال هو ما بعد كورونا، وكيف يمكننا تدبير مرحلة الما بعد، إن على مستوى بناء نظام اقتصادي متجدد، أو على مستوى صياغة أفق مجتمعي متماسك وقوي، أو على مستوى تدبير قوانين معتدلة، أو على مستوى صناعة علاقات دولية جديدة.

إننا الآن أمام المجهول، واللامرئي واللاملموس، مما يجبرنا على العودة إلى التاريخ، لكي نستحضر التجارب السابقة، لأنه لا يمكننا أن نجيب عما بعد الكورونا إلا بتحقيق مثل هذه العودة، وذلك من أجل الاستفادة منها واستثمارها في تدبير أزمات الأوبئة، ولنا في هذا التاريخ عبرة، تنير لنا الطريق نحو المستقبل، وتقدم لنا النقط المضيئة للذهاب تجاه الغد المعتبر.

تمكنا العودة إلى تجارب السلاطين والملوك العلويين على امتداد القرن الثامن عشر والقرن الواحد والعشرين، من استيعاب الدرس والسؤال التالي: كيف استطاع هؤلاء السلاطين والملوك العلويين بإمكانات متواضعة تدبير أزمات الأوبئة والجوائح؟

كيف تمكن هؤلاء السلاطين والملوك العلويين من عيش أزمنة الأوبئة والجوائح وتديرها، والحفاظ في الوقت ذاته، على تماسك المجتمع المغربي، وعدم تفكك الدولة المغربية؟

إننا أمام لحظة تاريخية واستراتيجية، تفرض علينا اليوم قبل الغد، استثمار كل ما هو تاريخي وإنساني للذهاب إلى الغد برؤى متشعبة بعبر التاريخ التي تشكل لنا السراج الذي ينير لنا طريق العبور.

وهنا نرى من الأفيد أن نستعرض أمثلة عن التدابير الوقائية التي سهر السلاطين العلويون على تطبيقها أثناء تفشي الأوبئة بالمغرب، بما فيها عزل الموبوتين، وشل المواصلات الداخلية بين الأقاليم، وإطلاق النار على القادمين من المناطق المنكوبة، إن لم يعودوا أدراجهم، واللجوء إلى إضرام النيران في الأماكن المنكوبة لقطع أثر الوباء والحد من انتشاره.¹

وموازية مع هذه الإجراءات كان السلاطين عند حلول المجاعات يأمرهم بفتح مخازن الحبوب لتباع للناس أو لتوزع مجانا على الملهوفين.²

كما اعتمدوا أساسا على الكرنطينة، وهي تعبير دارج أصله (Cuarentena أو Quarantaine، Cuarenta) ويعني الحجر الصحي، واشتق منها لفظ مكرنط، ويعني المحجوز خضوعا للحجر الصحي.³ وكان يشرف على الحجر الصحي بالمغرب مجلس يسمى Junta de sanidad، والحجر الصحي (Confinamiento)، كما ورد في الوثائق المخزنية كلمة السنيذة، بمعنى المجلس الصحي، وهو الجهاز الذي أقامه ممثلو الدول الأوروبية في طنجة.⁴

لقد كان المغرب سباقا لإنشاء المجلس الصحي الدولي عام 1792م، أي سنة تولية السلطان المولى سليمان العرش العلوي. وكان المجلس الصحي يتكون فقط من نواب الدول الأجنبية الممثلة في طنجة. ومن التدابير التي كانت تتخذها هذه المجالس فرض حجر صحي على السفن الموبوءة أو المشكوك في حالتها الصحية، وهو ما عرف في الأدب الإسلامي المعاصر بـ"الكرنتينة".

1 - بوشعراء مصطفى، الاستيطان والحماية بالمغرب (1863 - 1894م)، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط، 1984م. ص. 158.

2 - نفسه، ص. 165.

3 - الشاذلي عبد اللطيف، معجم المصطلحات الإدارية والألفاظ العامية والأجنبية الواردة في بعض الوثائق والمؤلفات المغربية، المطبعة الملكية، الرباط. 2007م. ص. 178.

4 - نفسه، ص. 109.

نذكر في البداية أن أوروبا كانت قد بدأت في اعتماد التدابير الصحية الوقائية منذ نهاية القرن الرابع عشر، إلا أنها لم توحّد سياستها في هذا الميدان إلا ابتداء من عام 1851م، بعد عقد أول مؤتمر دولي صحي بباريس. وأمام ضغط أوروبا، شهدت عدة أقطار إسلامية تأسيس مجالس صحية دولية تضم أطباء وقناصل أجانب وممثلين عن تلك البلدان، في مقدمتها المجلس الأعلى للصحة بالقسطنطينية، الذي أسسه محمود الثاني (1808-1839م) عام 1838م، ثم إدارة الصحة العمومية بمصر التي أسسها محمد علي (1805-1838م) سنة 1831م.⁵

1 - مواقف المغاربة تجاه الكرنيتية

لم تكن الكرنيتية محل إجماع من طرف المغاربة، حيث سجلنا بعض المواقف الراضية لهذا الإجراء، من مثل ذلك ما ذكره السفير ابن عثمان المكناسي في رحلته إلى إسبانيا (الإكسبر في فكاك الأسير)⁶، بعد وصوله إلى سبتة سنة 1779م، قائلا: "وقد ذكروا لنا قبل أن لا بد من أن نجعل الكرنيتية؛ ومعناها أن يقيم الذي يرد عليهم من موضع معروف عندهم معد لذلك أربعين يوما لا يخرج منه ولا يدخل إليه أحد... ولهم في ذلك تشديد كثير حتى أن الذي يأتي إلى صاحب الكرنيتية بالطعام يطرحه له من بعد ويحمله الآخر ولا يتماسان. وإن ورد عليهم بكتاب ذكروا أنهم يغمسونه في الخل بعد أن يقبضوه منه".

وبعد ابن عثمان بحوالي 15 سنة، أي سنة 1794م تحدث المؤرخ الزياني في كتابه، "الترجمة الكبرى" عن التدابير الصحية التي اصطدم بها في تونس في طريق العودة من رحلته الثالثة سنة 1794م، فذكر أن السفينة التي كانت تقله مع عدد من الحجاج والركاب الأتراك والمسيحيين لم يسمح لها بحرية الدخول في ميناء تونس إلا بعد قضاء حجر صحي لمدة 20 يوما، معتبرا أن هذا الإجراء مخالف لما تأمر به الشريعة، قائلا: "وبعد يومين جاءنا الإذن بالنزول إلى الكرنيتية الشّنعاء الممنوعة عرفا وشرعا". ثم زاد قائلا في موضوع آخر: "وأنزلونا بقلعة تيكسي وسط البحر بقصد بدعة الكرنيتية التي جعلوها دفعا للوباء قبح الله مبتدعها".⁷

5 - بوشعراء مصطفى، الاستيطان والحماية بالمغرب ...، م. س، (ج1)، ص. 403.

6 - الإكسبر في فكاك الأسير، تحقيق محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط، 1985م.

7 - بوشعراء مصطفى، الاستيطان والحماية بالمغرب ...، م. س، (ج1)، ص. 404.

أما العربي المشرفي، فقد عاين عندما حل بمصر في 26 يناير 1841م، في طريقه إلى الحج، الحجر الصحي الذي كان يفرض على الحجاج تحت إشراف الهيئة القنصلية، فيقول: "نعوذ بالله من هذا الاعتقاد فلا يموت ميت دون أجله". كما أبدى أبو العباس أحمد خالد الناصري الموقف ذاته، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي أصبحت فيها مسألة الحجر الصحي تلاقي اهتماما متزايدا من طرف المفكرين المغاربة، الذين وجدوا أنفسهم مدعوين للبحث في مشروعيتها أو عدم مشروعيتها، بعد أن أصبح العمل جاريا بها في مراسي بلادهم على يد المجلس الصحي. ومن هذه الجماعة نذكر الناصري الذي حرمها هو الآخر. ولم يكن ذلك إلا التعبير عن موقف من إشراف سلطة أجنبية دخيلة ممثلة في المجلس الصحي.⁸ وهناك موقف مغاير لفقيه مجهول الاسم في رسالته: "فتوى على الدواء والطبيب" (مخطوط خ.ع، د 1544)، يبدو من الخط والمداد والورق أنه عاش في بداية القرن العشرين، ومما ورد في رسالته: "والحاصل أن الكرنيتنة مما يظهر أنها جائزة كما علم مما سبق وإن كانت من اختراع الإفرنج فلا بأس بالاستعانة برأيهم إذا اقتضى الحال إذ قد برعوا في كيفية التحفظ والتحرز من الوباء وحسم مادته".⁹

أما مواقف المخزن من مسألة الحجر الصحي (مجلس الخونطة)، وتحت شعار الغيرة الدينية والحفاظ على تراث السلف الصالح، من إجهاض بعض المحاولات التي كانت تتوخى دفع المخزن إلى تبني الحجر الصحي كتنظيم مخزني جديد. يذكر عبد الوهاب بن منصور في هذا الصدد: "محمد بركاش ومن تقدمه من كبار الموظفين والولاة المتنورين الذين تفتحت عيونهم على محاسن الحضارة الأوروبية قد اقترحوا على حكوماتهم إنشاء محاجر صحية وأشاروا عليها بالعناية بشؤون الصحة، تأميننا لسلامة المواطنين المغاربة والمستوطنين الأجانب، فكانت اقتراحاتهم وإشارتهم تقابل من طرف الوزراء والكتاب والعلماء المتخلفين فكريا بالإهمال وأحيانا بالاستخفاف بدعوى أن ما يصح تطبيقه في بلاد النصارى لا يصح تطبيقه في بلاد المسلمين، وأن منع اختلاط السليم بالموبوء لا يجوز شرعا لأنه فرار من القدر".

تؤكد هذه المواقف بشكل واضح الدور الذي مارسه طائفة من الفقهاء في معارضة الجديد، وتكريس القديم، وتتيح لنا إلقاء بعض الضوء على مسألة هامة كانت تطرح بإلحاح، وهي مسألة

8 - نفسه، (ج1)، ص. 405.

9 - نفسه، (ج1)، ص. 406.

الإصلاح الصحي الذي غاب في برنامج سيدي محمد ومولاي الحسن. لقد كان هذا الإصلاح يصطدم بتيار معارض قوي له نفوذه داخل المخزن بل وعلى موقف السلاطين.¹⁰

2 - مواقف السلاطين والملوك العلويين تجاه الكرنينة

كان للسلاطين والملوك العلويين مواقف قوية تجاه الكرنينة، إذ اعتبروا أن صحة وسلامة المغاربة كانت خيارهم الذي لا تراجع عنه، وفي ذلك نرصد المواقف التالية:

- السلطان سيدي محمد بن عبد الله في مواجهة الأوبئة (1757-1790م)

- أقام هذا السلطان حزاما صحيا عسكريا في الحدود الشرقية للحيولة دون تسرب الطاعون المتفشي وقتذاك في الجزائر.¹¹

- السلطان المولى سليمان (1793-1822م)

- سنة 1793م فرض حجر صحي ضد الجزائر، امتد مفعوله (أربعة أشهر) من يونيو إلى أكتوبر 1793م. وفي سنة 1797م، أمر السلطان بظهير فرض الحجر الصحي على السفن القادمة من وهران، وشل جميع المواصلات القارية في الحدود الشرقية.

- في غضون 1799م، فرضت أحزمة صحية حول طنجة والعرائش وتطوان لوقايتها من الطاعون المتفشي وقتذاك في عدد من الأقاليم المغربية.

- في 22 شتنبر 1804م، وعلى إثر وصول الأخبار بظهور أحد الأمراض المعدية في جبل طارق، وافق السلطان على قرار "الخونطة" القاضي بطرد السفن القادمة من بريطانيا أو التي مرت عن طريقها، من جميع المراسي المغربية، وعدم قبولها إلا بعد خضوعها لحجر صحي.¹²

- في 26 شتنبر 1804م، تقرر عدم قبول الركاب القادمين من جبل طارق وحتى لقضاء الحجر الصحي، وعدم تسلم أية رسالة من المحطة الإنجليزية إلا بعد غمسها في الخل.

10 - بوشعراء مصطفى، الاستيطان والحماية بالمغرب م. س، (ج1)، ص. 407.

11 - البزاز محمد الأمين، المجلس الصحي الدولي في المغرب (1792-1929م)، منشورات كلية الآداب الرباط، سلسلة أطروحات ورسائل رقم 49، مطبعة النجاح الجديدة، 2000م. ص. 23.

12 - البزاز محمد الأمين، المجلس الصحي م. س. صص. 34-35.

- خضوع الريف بأكمله سنة 1804م للحجر الصحي بالنظر إلى الوباء المتفشي في المراكز المحتلة (حجرة باديس، مليلية).¹³

- في 13 نونبر 1810م، طبقت إجراءات مماثلة لحماية المغرب من الحمى الصفراء التي ظهرت في جبل طارق وقادس.

- في 11 شتنبر 1814م، تقرر إخضاع الركاب القادمين من جبل طارق لحجر صحي لمدة ثلاثين يوما، وإخضاع بضائعهم للتطهير لمدة أربعين يوما، على أن يتم الحجر الصحي بالنسبة للركاب إما فوق ظهر السفن المقلّة لهم، أو في البرجين في مرسى طنجة. أما بالنسبة للبضائع، فقد تقرر اختيار "طنجة البالية" كمكان تعرض فيه في الهواء الطلق.

- في 21 يونيو 1817م، وعلى إثر ظهور الطاعون في الجزائر، حيث كان يخلف أربعين إلى ستين ضحية في اليوم، تقرر فرض حجر صحي لمدة أربعين يوما على جميع المراكب القادمة من بلاد المغرب الكبير ومن المشرق الإسلامي، ولمدة يومين على المراكب القادمة من الموانئ الأوروبية فيما وراء جبل طارق.¹⁴

- أما في تادلة فقد هلك بسبب وباء سنة 1818م ربع سكانها. وفي طنجة مات 2000 شخص بالطاعون، زيادة على 566 بالعرائش، و1560 بالرباط، و7000 بفاس، وآلاف بتطوان.¹⁵

- السلطان المولى عبد الرحمان (1822-1859م)

لم يقتصر الحجر الصحي في عهد السلطان المولى عبد الرحمان على السفن القادمة من المشرق أو من الجزائر وتونس، وإنما امتد أيضا ليشمل السفن القادمة من أمريكا ومن جميع الموانئ المشكوك في حالتها الصحية.¹⁶

- ففي سنة 1828م فرض الحجر الصحي على القادمين من جبل طارق بسبب تفشي وباء الكوليرا. وفي سنة 1831م، على الجزائر. وفي سنة 1832م، على إسبانيا.

13 - البزاز محمد الأمين، المجلس الصحي، ص. 35.

14 - نفسه، ص. 36.

15 - بوشعراء مصطفى، الاستيطان والحماية...، م. س، ص. 159.

16 - البزاز محمد الأمين، المجلس الصحي...، م. س، ص. 43.

- وفي منتصف يونيو 1834م، أعطى السلطان أوامره إلى عامل طنجة وإلى باقي عماله في المراسي التجارية الأخرى لفرض الحجر الصحي على الساحل الإسباني من المضيق إلى طريفة بسبب تفشي وباء الكوليرا الذي خلف وفيات مرتفعة.¹⁷

- في 8 شتنبر 1836م، وصلت إلى طنجة السفينة المالطية "ألست" (Alceste) قادمة من الإسكندرية، وعلى متنها مائتان وعشرون حاجا مغربيا. وعلى الرغم من أنها قضت حجرها الصحي في مالطا، فلم يسمح لها بالدخول إلى طنجة، وفرض عليها الخضوع لحجر صحي جديد في عرض البحر نظرا لتسجيل حالتي وفاة بين ركابها خلال الرحلة بين مالطة وطنجة.

- في شتنبر 1842م، وصلت السفينة التونسية "المنصورة" على متنها ستة وخمسون حاجا مغربيا، ومع أنها كانت مزودة بشهادة صحية جيدة من الجزائر، حيث سبق لها أن قضت الحجر الصحي لمدة خمسة عشر يوما، فقد خضعت لمراقبة امتدت ثمانية أيام.

- السلطان سيدي محمد الرابع (1859-1873م)

كان السلطان سيدي محمد قد اقتنع بمدى الصعوبات التي يواجهها الحجاج المغاربة في غياب محطة صحية لهم في بلادهم، لذلك أصدر ظهيرا خاصا في 10 رجب 1283هـ/18 نونبر 1866م، وافق فيه على اختيار جزيرة الصويرة لتقوم بوظيفة محجر صحي للحجاج في حالة عودتهم موبوءين، وفيما يلي نص هذا الظهير: "إلى أحباء جنابنا العالي بالله، العقلاء، نواب الأجناس الفخيمة بطنجة المحروسة. أما بعد، فقد وصلنا كتابكم في شأن ما ظهر لكم من جعل الكرنتينة للحجاج بجزيرة الصويرة إن قدموا من المشرق وفيهم أثر المرض الوبائي (كذا) وطلبتم موافقتنا على ذلك. فقد قدمنا الإذن لخدمنا الطالب محمد بركاش في ذلك، والموافقة عليه لصحة هواء ذلك المحل، وطيبه، وقربه، والتمام".¹⁸ وبنفس الاحتراز طبقت:

- في 31 غشت 1867م، إجراءات الحجر الصحي ضد السفن القادمة من موانئ إيطاليا، وتونس، والجزائر، ولم تتمتع هذه السفن بحرية الدخول إلا في 25 نونبر 1867م.

17 - البزاز محمد الأمين، المجلس الصحي، ص. 44.

18 - نفسه، ص. 75.

- وفي 1870م تقرر عدم قبول السفن القادمة من الموانئ الواقعة بين الحدود الفرنسية وجبل طارق، وذلك من أجل وقاية المغرب من الحمى الصفراء.¹⁹

- السلطان المولى الحسن (1873-1894م)

لم يدخر السلطان المولى الحسن جهدا في تقديم المساعدات للسكان المنكوبين، فوزع المال والمؤن في كل جهة علم بتفشي مجاعة 1878م فيها، وفتح لهذه الغاية مستودعات الحبوب المخزنية المخصصة لخيّل جيشه.²⁰ وقد أبدى السلطان المولى الحسن حكمة منقطعة النظير حينما أعطى أوامره لنائبه محمد بركاش لتزويد السفينة الإنجليزية (Righton)، التي كانت تقل 493 حاجا مغربيا، وكان على هذه السفينة، حسب قوانين المجلس الصحي أن تتجه إلى جزيرة الصويرة لقضاء حجرها الصحي نظرا للظروف المشبوهة التي أحاطت برحلتها. والتي اختلف سفراء المجلس في صحة شهادتها الطبية، لكن السلطان المولى الحسن لم يأبه بهذه التجاذبات، وزودها محمد بركاش في 2 أبريل 1878م والتي كانت في حاجة إليها.²¹ يضاف إلى ذلك، أن السلطان المولى الحسن، لم يدخر جهدا في المساهمة في تلقيح الناس لمواجهة الأمراض الفتاكة مثل الجدري الذي تفشى في المغرب سنة 1882م والذي أهلك الكثير من الناس في مختلف المدن والجهات المغربية. وبخصوص التلقيح فقد مارسه المغاربة بوسائلهم التقليدية منذ عهد بعيد، أما التلقيح الحديث فقد بدأ استعماله في المغرب منذ الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الهجري الموافق القرن التاسع عشر الميلادي وذلك بفضل الأطباء الأجانب. وخلال وباء الجدري لسنة 1882م قام الطبيب الفرنسي فرنو لينارس (Fernand Linares) (1850-1938م) بتلقيح عدد من السكان المسلمين، خاصة من عائلة النائب السلطاني محمد بركاش، إلا أن الحملة لم تعمم إلا في عهد الحماية.²²

- السلطان المولى عبد العزيز (1894-1908م)

انتشرت الأخبار بتفشي وباء الطاعون بالهند ووصوله إلى الديار المقدسة، فكان لزاما على السلطات المغربية أن تتخذ إجراءاتها الاحترازية والوقائية في مواجهة وباء الطاعون، حيث أصدر

19 - البزاز محمد الأمين، المجلس الصحي، م. س. ص. 108.

20 - نفسه، ص. 127.

21 - البزاز محمد الأمين، "حول الحج المغربي إلى الديار المقدسة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين"، مجلة دار النيابة، السنة الثانية، العدد الثامن، 1985م. صص. 59-60.

22 - البزاز محمد أمين، الجدري، معلمة المغرب، الجزء 9، صص. 2926-2927.

المولى عبد العزيز في 5 جمادى الأولى 1314هـ/12 أكتوبر 1896م، وأمره إلى النائب السلطاني محمد الطريس خلال سفارته إلى مراكش، أن يكتب إلى القنصل المغربي في مصر محمد لخلو ليتعرف عن طريقه على حالة الحجاج الصحية، والظهير العيزي التالي يتضمن ذلك: "تكتب (النائب السلطاني الحاج محمد بن العربي الطريس) لوكيل مصر (القنصل محمد لخلو) ليعلمك عند إياهم بالطكراف بحال الحجاج بحيث إن كان فيهم مرض وخيم تعلم به أنت خدامنا أمناء مرسى الصويرة ليهيئوا تنظيف المحل وتعيين الطبيب واحدا أو اثنين والماء والقوت ومن يقابلهم بالجزيرة حتى يخرجوا منها..."²³.

ويتضح من الظهير السلطاني للمولى عبد العزيز أن سلامة المغاربة من الوباء شكلت هاجسا كبيرا لدى السلطان، وأنه لم يوافق على "تسريح الركاب من هذه السنة لضيق الزمان عن استفتاء علماء إيالتنا السعيدة وانتظار ورود أجوبتهم"²⁴. وبالنظر إلى هذا الموقف، فقد أمر بتهييء الحجر الصحي بجزيرة مוגادور لاستقبال الحجاج المغاربة والاعتناء بهم إلى حين عودتهم إلى مدنها²⁵.

وبخصوص عودة الحجاج المغاربة من مكة المكرمة، فقد تناووها بالتفصيل لويس ليون طيراس (Louis - Léon Terras) منذ مغادرتهم ميناء ينبع - بوابة المدينة المنورة، وميناءها الجمركي، في اتجاه موغادور على متن السفينة الفرنسية جرغوفيا (Gergovia) عام 1896م. وركز بالتفصيل على المشاكل الصحية وغيرها من المتاعب التي عانى منها الحجاج في تلك المرحلة، خاصة بعد اكتشاف إصابة بعض الحجاج بمرض الجدري (La Variole). وتتبع مراحل تلك الرحلة مرورا بحجر الطور الصحي في سيناء وطرابلس الغرب ثم وصولا إلى موغادور يوم 21 يوليوز 1896م.²⁶ ويذكر لويس ليون طيراس أن السفن التي تقل الحجاج عادة ما تخصص طبيا مسلما للتواصل مع الحجاج المسلمين، ووفق ذلك خصصت السفينة الفرنسية طبيا جزائريا لهذه الخدمة. أما مشاكل النظافة مثل انتشار قمل الرأس فكان الحجاج المغاربة يبادرون إلى دفع 0.50 سنتم للرأس للتخلص منه من قبل

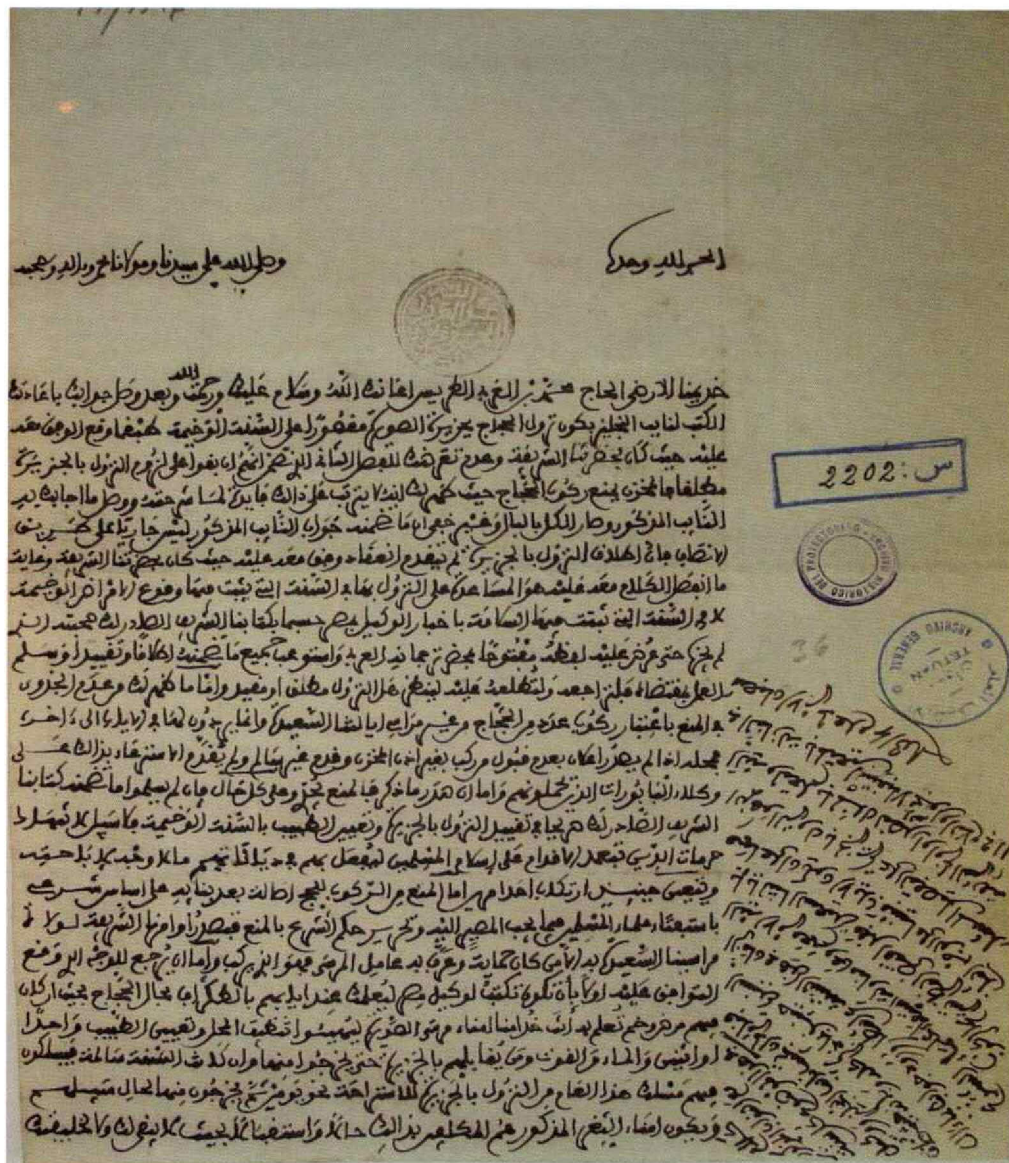
23 - رسالة المولى عبد العزيز إلى الحاج محمد بن العربي الطريس في شأن الحجر الصحي بجزيرة موغادور، مح 94/15.

24 - رسالة موجهة من طرف السلطان المولى عبد العزيز إلى الطريس بخصوص منع الحج لسنة 1897م، مح 103/15.

25 - رسالة المولى عبد العزيز إلى الحاج محمد بن العربي الطريس في شأن الحجر الصحي بجزيرة موغادور، مح 94/15.

26 - أمين محمد، عودة المغاربة من مكة المكرمة وإجراءات الوقاية من عدوى الجدري على متن السفينة، كتاب، ركب الحاج المغربي، التواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، تنسيق، عبد القادر أيت الغازي، ومحمد حواش، وعبد العزيز الضعيفي، منشورات كلية الآداب - بني ملال، مطبعة Work bureau، 2017م. ص. 269.

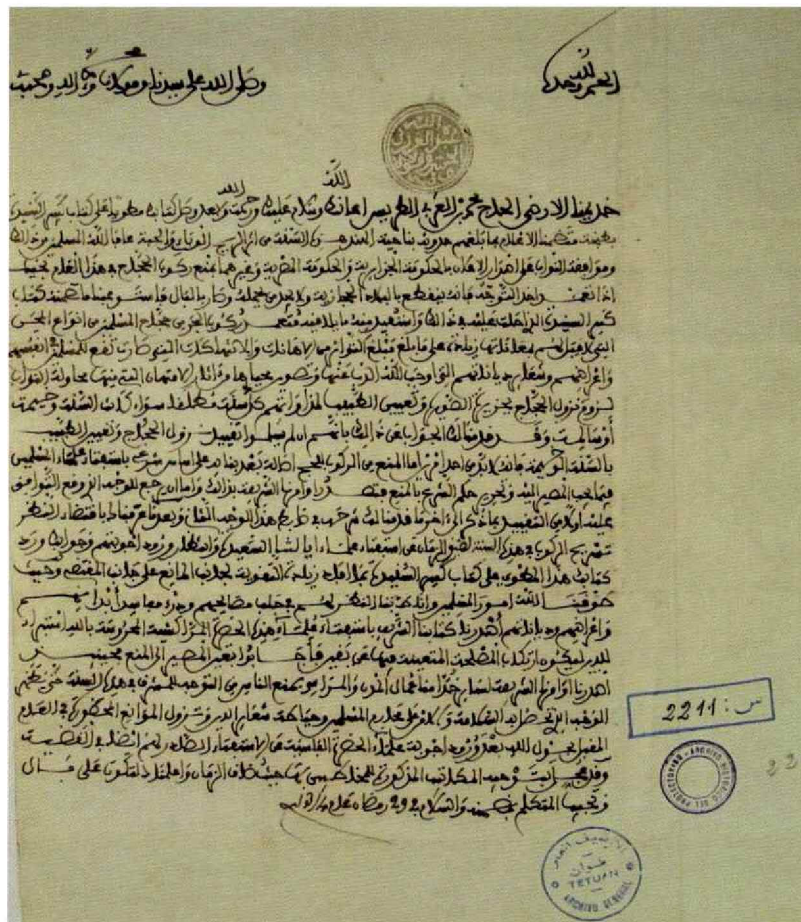
نساء (Trieuses de poux par profession).²⁷ وأشار إلى أن السفينة عند وصولها إلى جزيرة مוגادور من أجل قضاء الحجر الصحي، كان على متنها أربعة حجاج مغاربة مصابين بالجذري وأنهم يتماثلون للشفاء، وأنهم ظلوا طوال الرحلة معزولين عن بقية الركاب تحت مراقبة شخص عربي.²⁸



27 - نفسه، ص. 277.

28 - نفسه، ص. 283.

لقد تزامن قرار فرض الحجر الصحي على الحجاج المغاربة بمرور أخبار تفشي وباء الطاعون في الهند، الشيء الذي يدعوه إلى منع الحج في السنة الجارية، ورسالة المولى عبد العزيز إلى الطريس في 29 رمضان 1314هـ/3 مارس 1897م، تتضمن منع الحج خلال هذه السنة²⁹: "خديمنا الأرضي الحاج محمد بن العربي الطريس أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد... وحيث طوقنا الله أمور المسلمين وأناط بنا النظر لهم في جلب مصالحهم ودرء مفاسد أبدانهم وأغراضهم ودياناتهم أصدرنا كتابنا الشريف باستفتاء علماء هذه الحضرة المراكشية المحروسة بالله... أصدرنا أوامرنا الشريفة لسائر خدامنا عمال المدن والمراسي بمنع الناس من التوجه للمشرق في هذه السنة حتى يظهر الوجه الذي تحصل به السلامة..."³⁰.



29 - نفسه. ص. 184. والرسالة الموجهة من طرف السلطان المولى عبد العزيز إلى الطريس بخصوص منع الحج لسنة 1897م، مح 103/15.

30 - الرسالة الموجهة من طرف السلطان المولى عبد العزيز إلى الطريس بخصوص منع الحج لسنة 1897م، مح 103/15.

3 - مغرب الحماية في مواجهة التيفوس والطاعون بالمغرب (1912-1956م)

اجتاحت مجموعة من الأوبئة والجوائح المغرب خلال فترة الحماية الفرنسية، ولم تجد مؤسسة الحماية بدا من مقاومتها عبر الكرنيتية وحملات اللقاحات والتطهير، كما سخرت كل طاقاتها لعمليات التحسيس والتوعية من أجل مقاومة انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة.

وبالنظر إلى حساسية المرحلة (الاستعمار) فقد عانت المؤسسة الصحية الفرنسية في تطويع المغاربة للانخراط في عمليات مكافحة الأوبئة والأمراض، وبالنظر إلى أسلوب التعامل الذي كانت تتبناه المؤسسة الصحية مع السكان، حيث كانت تلجأ في كثير من الأحيان وهي مجبرة على ذلك إلى حرق أمتعة الحاملين للعدوى وحرق المنازل وهدمها واعتبار معسكرات الحجر الصحي والعزل الكلي "سجوناً استثنائية"³¹.

فمنذ يوليو 1913م طبقت إدارة الصحة الفرنسية الحجر الصحي بالأطلس الكبير، باعتباره أحد الإجراءات الوقائية لمواجهة وباء الطاعون الذي تفشى بالمغرب خلال هذه السنة.³² كما كان معهد التلقيح بالرباط هو الذي يتولى في البداية مهمة توفير الحقن اللازمة، قبل أن يضطلع بها فيما بعد معهد باستور بالدار البيضاء. ومن سنة 1914م إلى سنة 1942م أجريت العديد من التلقيحات (17 مليون في ظرف 28 سنة). وابتداء من الأربعينيات من القرن العشرين شرع في إنجاز برنامج موسع يستهدف الحقن الجماعي للسكان في كل سنة. وقد توبعت هذه الجهود في عهد الاستقلال مما لعب دوراً حاسماً في السيطرة على المرض، بحيث إنه لم يعد مشكلة صحية تذكر.³³

وعموماً، فإن المرحلة التي نعيشها اليوم، في سياق مواجهة جائحة كوفيد 19، هي نتاج فلسفة وسياسة واستراتيجية وحكمة أمير المؤمنين الملك محمد السادس نصره الله وأيده، في تدبير مرحلة الجائحة، فالخطة الاستباقية التي طبقها أبانت للعالم بأكمله أن قائد الأمة المغربية في قلب الأحداث

31 - Rivet Daniel, *Le Maroc de Lyautey à Mohammed 5: Le double visage du protectorat*, Editions Denoel, Paris, 1999, 296.

32 - الشيعبي رضوان، صورة المغرب في كتابات الأطباء الفرنسيين (1912-1956م)، مطبعة الرباط نت، 2016م، ص. 194.

33 - البراز محمد أمين، الجدري، معلمة المغرب، الجزء 9، ص. 2927.

وأنة يحمل شعبه في قلبه، وأنه يترجم على أرض الواقع وبالملموس أنه ملك التحديات، تطبيقاً لقول والده الملك الحسن الثاني رحمه الله عليه، والذي قال: "نحن لا نبحث عن التحديات، فإذا وجدناها في طريقنا، نعرف كيف نتغلب عليها، فنحن شعب التحدي، فمنذ القدم، كنا وسنبقى شعب التحدي".

بعض أسباب انتشار الأوبئة وطرق العدوى وأساليب مواجهتها من طرف المغاربة وملوكلهم في العصر العلوي

ذ. أحمد إيشرخان

باحث في التاريخ والحضارة- الرباط.

يلاحظ الباحث والمتتبع للأخبار الزخم الهائل لسلسلة من المقالات التي نشرت ومازالت تنشر حول الوباء (كوفيد 19) الذي اجتاحت العالم منذ بداية انتشاره من مدينة ووهان في الصين في 2019م، وقد ساهم في هذا التراكم المعرفي الطبيب والخبير والصحفي والمحلل السياسي وعالم الاقتصاد، بل والديموغرافي، وكل واحد تناول هذه الظاهرة من جانب تخصصه وبناء على منظومته المعرفية، ولم يستثن المؤرخ من هذه المبادرات التي كان هدفها في الغالب كشف الغطاء عن هذا الوباء لتجنب ما يمكن تجنبه من آثار سلبية لهذه الجائحة العالمية، وهذا الجانب هو الذي نحاول أن نهتم به في هذا الموضوع، لنجيب عن أسئلة ظلت مطروحة ومتداولة، ومنها: كيف واجه ملوك المغرب والمغاربة جائحة الوباء في العصر العلوي؟ وما هي الوسائل التي استعملوها؟ وما هي أنواع الاحتراقات التي كانوا يتخذونها؟ وما هي الطرق والوسائل التي كانت تتنقل بها العدوى؟ وما هو رد فعل ملوك الدولة العلوية اتجاه الأوبئة؟ وما هي النتائج التي كان يخلفها الوباء في المغرب؟

أولاً: مفاهيم في الطاعون والوباء

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة أريد أن أنبه إلى مفردات مثل: «الوباء» و«الطاعون»، و«الجائحة» و«العدوى» و«مصابة الموت العام»، وكلها مصطلحات متداولة في الكتابات التاريخية المغربية، ولم يكن التمييز بينها إلا للدلالة على قوة الانتشار وسرعته وما خلفته في عدد الموتى، بينما ظلت مصطلحات خاصة تدل على أمراض معينة، مثل: «التيفوس» و«الكوليرا»، و«الجدري» و«الحُمى»،

و«الحمى الراجعة»، و«السل» و«الزهري»، و«الجدام» و«بوغليب»، و«النفطة» و«القرينة» وغيرها. وقد وقع التمييز بينها بنوع من الدقة في مراحل متأخرة من تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر¹، وازدادت دقة التمييز بين أنواعها ومسبباتها مع ظهور الطب الكولونيالي في فترة الحماية بالمغرب².

كان الإخباريون المغاربة يختارون المصطلحات الأكثر تعبيرا وتأثيرا في نفس القارئ بناء على هول مخلفات جائحة الوباء، مما يجعل الباحث يقف مشدوها أمام قوة السرد التاريخي الذي يدل على شيء واحد وهو: «الفناء»، هل هذه مبالغة من الإخباريين للتخويف والتهويل؟ أم هي حقائق تاريخية مدعمة بمعطيات إحصائية؟ لمعرفة الجواب يجب إعادة قراءة النصوص التاريخية بعناية لفهم واقع المغرب بعد كل جائحة وبائية، لنذكر إلى أي حد وقع النقص في عدد سكان المغرب، وما هي درجة التقهقر في المستوى الاقتصادي، وفي القدرة على مواجهة التدخل الأجنبي.

لقد شهد المغرب في تاريخه الحديث والمعاصر جوائح كبرى، وتزخر كتب العصرين السعدي والعلوي بذكر جملة من الأوبئة والطواعين التي شهدتها المغرب، فهناك إشارات مفيدة حول الوباء في عهد المنصور الذهبي، الذي توفي هو أيضا نتيجة الوباء الذي عم المغرب، وقد وردت إشارات في «نزهة الحادي» تعبر عن هذه الجائحة التي توفي بها كبار رجال الدولة وقادة الجيش وسلطان من أعظم سلاطين المغرب الحديث، يقول الإفراfi: «كان بالمغرب وباء استطال وطال من عام سبعة وألف إلى عام ستة عشر وألف، وعم سهل المغرب وجباله، حتى أفنى أكثر الناس، ومات جمع من الأعيان وبه مات السلطان أبو العباس أحمد المنصور»³. وفي العصر الحسني استشهد مجموعة من أعيان الدولة بسبب الأوبئة، مثال ذلك أنه في سنة 1878م هلك الحاجب موسى بن أحمد، والباشا الشهير والي فاس وطنجة الجيلالي بن حمو، بينما هلك عام 1895م مجموعة من رجال المخزن الحسني وفي مقدمتهم محتسب مراكش عبد الله البوكيلي. وتطلعنا المصادر التاريخية عن وفاة بعض الأطباء بالوباء، فقد ذكر محمد العبدى الكانوني أن العلامة محمد بن يحيى الشبي السوسي الحامدي، وهو من

1 - الحسين الفرقان، «مفهوم الوباء عند الإخباريين المغاربة في القرن التاسع عشر»، ضمن أعمال الأيام الوطنية العاشرة (المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب)، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الجديدة، 2002م، صص. 307-317.

2 - بوجمعة رويان، الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب، 1912-1945م، مطبعة الرباط-نت، الرباط، 2012م.

3 - محمد الصغير الإفراfi، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تصحيح هوداس منشورات بردي، الرباط، ص. 188. ويوجد خلاف مع النسخة التي نشرت بتحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، الرباط، 1437هـ/2016م، ص. 301.

العلماء الأفاضل الذين ألفوا في الطب وتكلموا عن الأوبئة كلاما طويلا وممتعا في الاحتياط منه، والتباعد عنه واتخاذ الأدوية وتطبيب الأهوية، توفي شهيدا بالوباء عام 1164هـ/1750م.⁴

ويلاحظ في النصوص التاريخية التي تحدثت عن الوباء طول مدة الجائحة، فربما دامت لعشر سنوات، كما في نص الإفرائي السابق الذكر، والذي ذكر فيه أيضا وصول الوباء للجبال، ولعل ذلك كان منه عن قصد، لأن التجربة التاريخية للمغاربة دلت على أن الجبال كانت غالبا في منأى عن الوباء، بسبب العزلة وقلة تواصلها مع المدن بسبب ضعف الطرق والمسالك.

وقد لاحظ الطبيب الحامدي الأزرافي السوسي طول المدة الزمنية التي تفصل بين ظهور وباء الطاعون في المغرب، وقارن ذلك مع المشرق، حيث قال: «واعلم أن هذا المرض يأتي في المغرب بعد زمان نحو سبعين عاما، ويمكن أعواما ومدة كثيرة، عشرة أعوام وأكثر أو أقل، بخلاف البلاد المشرقية فإنه لا يبطئ عنها، لكنه يرتفع في مدة أيام، ولذلك استأنسوا به ولا يخافون منه جدا كأهل المغرب، ولكونه غير مألوف في البلاد المغربية، لا سيما في البوادي»⁵.

ثانيا- المغرب ومجال إنتاج الوباء

لم يكن المغرب مجالا منتجا للوباء إلا في حالات نادرة ناتجة عن ثورات داخلية، كما وقع في ثورة الناصر وثورة قرقوش بشمال المغرب، حيث تركت جثث الثوار على وجه الأرض، مما تسبب في التعفن وتلوث المياه فظهرت أوبئة محلية معدية؛ أو إثر جفاف طويل الأمد نتجت عنه مجاعة. فغالبا ما تسببت المجاعات الكبرى في انتشار الوباء المعدي، حتى أصبحت الأوبئة والمجاعات مقترنة بعضها ببعض، فأنجزت رسائل جامعية ومقالات علمية تتخذ من المصطلحين عنوانا لها.⁶ وحسب بعض الروايات الشفهية لمن أدركوا المجاعة في النصف الأول من القرن العشرين، رويوا لي أن

4 - محمد بن أحمد الكانوني العبدى، الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى، تحقيق علال رگولف ومحمد بالوز، منشورات كلية الطب والصيدلة، جامعة محمد الخامس السويسي، مطبعة الرباط - نت، 2013م. صص. 195، 196.

5 - محمد بن يحيى بن الحسن الشبي الحامدي الأزرافي السوسي، راحة الإنسان في طب الأبدان، مخطوط الخزنة الوطنية، رقم 1644د، ص. 1. ومحمد بن أحمد الكانوني العبدى، الطب العربي، ص. 213.

6 - أنجزت مجموعة من البحوث تحت عنوان (الأوبئة والمجاعات)، ومنها رسالة الدكتور محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس - الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 1992م. ومنها الدراسات التي قام بها كل من روزنبرجي وحيد التريكي حول (الأوبئة ومجاعات المغرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر)، المنشورة في أعداد من المجلة التاريخية الشهيرة (هسبريس)، التي تصدرها جامعة محمد الخامس بالرباط، وندوة الجديدة السابقة.

الجفاف الطويل الأمد الذي يعقبه عام أمطاره غزيرة، يسهل فيه انتشار الوباء بسبب المستنقعات وعدم تعود الجسم على كثرة الطعام، حيث يكون الناس في لهفة إلى الأكل بسبب ما خلفته المجاعة من «هيف»، فيأكلون أكثر مما تتحمل أجسامهم النحيلة مما يؤدي بهم إلى الهلاك.

ولقد ربط مؤرخ الدولة العلوية في العصرين الحسني والعززي العلامة أحمد ابن الحاج السلمي بين الجفاف وارتفاع الأسعار وسيادة الجوع وانتشار الأمراض وكثرة الموت، فقال متحدثاً عن عصر السلطان مولاي إسماعيل ما يلي: «وفي آخر هذا العام [1133هـ/1721م] وقع غلاء عظيم وأمراض عظيمة، و كان ابتداء الغلاء في شعبان من هذا العام، واستمر - نسأل الله السلامة والعافية - نحو أربعة أعوام، وأكلت الجيفة والأموات، وكاد أن تعدم الأقوات»⁷.

وفي هذا الموت العام قال العلامة سيدي محمد بن الطيب القادري في «نشر المثاني» ما نصه: «وفي هذا العام كان الغلاء بالمغرب نعوذ بالله منه، وفيما بعده من السنين اشتد الغلاء وارتفعت الأسعار ووقع مرض في الناس وموت كثير بمرض وغيره من عدم الأقوات، حتى لقد رأيت بالمرستان بفاس - أمنها الله - الذي كانوا يجمعون فيه الأموات يجهزونهم، فتراكم بعضهم على بعض حتى صعدوا من الأرض نحو القامتين كله معمور بالأموات، شاهدت ذلك وأنا صبي في حد التمييز، نعوذ بالله، وأدام علينا نعمة لا تزول بمنه وفضله»⁸.

إن رواية محمد بن الطيب القادري المعتمدة على ذاكرته وهو طفل في سن التمييز، والتي تربط بين ارتفاع الأسعار ووقوع المرض وكثرة الموت، تؤيدها نصوص مؤرخين معاصرين للحدث، حيث ربطوا بين الغلاء والمرض والموت العام، رغم أنهم لم يحددوا نوعيته، وفي ذلك قال التاساقي في «رحلة الوافد»: «إن «الغلاء بلغ الغاية، ... ومات الناس غاية بمرض مشوب مع ذلك»⁹.

وقد تكون الأوبئة في سنة جافة باردة، ويكثر فيها السل، يقول الإفرائي: «وفي عام سبعة وثمانين وتسعمائة وقع غلاء عظيم حتى عرف ذلك العام بعام البقول، ووقع سعال عظيم أصاب

7 - أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، دراسة وتحقيق أحمد إيشرخان، رسالة دكتوراه بكلية الآداب - الرباط، السنة الجامعية 2002-2003م، ج. 4، ص. 1033.

8 - محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1407هـ/ 1986م، ج. 3، ص. 253.

9 - عبد الله بن إبراهيم التاساقي الزرهوني، رحلة الوافد في أخبار هجرة الوالد في هذه الأجيال (كذا) بإذن الواحد، تحقيق علي صدقي أزيكو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل - القنيطرة، 1992م، ص. 242.

الناس عامة في بعض فصول ذلك العام، فلا يزال الإنسان يسعل إلى أن تقبض روحه، ولهذا سمي العام عام الكحيحة»¹⁰.

إن أغلب الأوبئة التي يكون انتشارها عاما ويكون عدد ضحاياها مهولا، كانت وافدة ولم تكن محلية حسب ما نفهم من نصوص الإخباريين، وتسرّب هذه الأوبئة الفتاكة إلى مجال المغرب عبر معابر، من الشرق عبر الحدود مع الجزائر، أو من الشمال عبر ميناء طنجة، أو من الغرب عبر موانئ المحيط الأطلسي، أو من الجنوب عبر الطريق التجاري.

ويمكن أن نذكر بعض الفئات التي كانت تنقل الوباء كما يلي:

أ- الحجاج القادمون من المشرق: حيث كان الحجاج المغاربة يلتقون في مكة بحجاج مسلمين قادمين من الصين والهند فينقلون العدوى، والعجيب في الأمر أن الحجاج المغاربة الوافدين في السفن عبر ميناء طنجة كانوا هم الأكثر سببا في نقل الأوبئة، وهو ما وقع في عصر السلطان مولاي سليمان، حيث حدثنا أبو القاسم الزياني عن وصول الوباء مع مركب من الحجاج عام 1818م.

أما الحجاج الذين كانوا يذهبون في وفد ركب الحاج المغربي برا، فكان أغلب المصابين منهم بالعدوى يموتون قبل وصولهم للمغرب، أو يتعافون في الطريق، نظرا لاستغراق رحلة قفولهم من الحج حوالي أربعة أشهر ومرورهم بالصحراء المرتفعة الحرارة التي تطهر الركب من مسببات الوباء¹¹.

ب- التجار والقوافل التجارية: فقد كان العديد من التجار فرادى وجماعات سببا في نقل العدوى من مدينة إلى أخرى، بل إن تاجرا مثل «العطار» كان يتسبب في نقل العدوى بين البوادي. وقد كانت القوافل القادمة من السودان الغربي تحمل بين رحالها ما يكون سببا في انتشار الوباء، مثل الكوليرا والملاريا.

ج- السفراء والقناصل والمبعوثون والرحالة والمكتشفون والجواسيس: وكلها فئات تأتي من أوروبا، ويمكن في بحث مستقل البحث في تفاصيل بعض ما نقلوه من عوامل العدوى الوبائية.

- 10 محمد الصغير الإفرائي، نزهة الحادي، تصحيح هوداس، ص. 161.

- 11 محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، مطبعة المخزن، تطوان 1953م.

ولقد انتبه أعضاء المجلس الصحي بطنجة إلى «الرقاصين» وهم سعاة البريد، وإمكانية نقلهم جائحة الكوليرا التي احتد انتشارها بالمغرب عام 1868م، فعملوا على تطهيرهم خارج أبواب المدن¹².

د- الجيوش المخزنية: وقد دلت عدة أبحاث في موضوع انتشار الوباء أن الجيش في تحركاته من أجل فرض الأمن نقل العدوى في زمن الوباء¹³. كما انتقل الوباء مع جيش الحدود، ونقل جيش فتح بلاد السودان في عهد المنصور أمراضا معدية مثل الملاريا.

هـ- بعض فرق المتصوفة الجوالين: ونخص بالذكر منهم طائفة هداوة التي انتشر أتباعها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع القرن العشرين، واشتهرت هذه الطائفة بلباس المرقعات وعدم النظافة وتربيتهم التيوس والكلاب والققط والديوك، والسفر والجولان بين القرى والمدن، فيطوفون المغرب من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه، مما كان سببا في نقل الأمراض المعدية¹⁴.

و- الجيوش الاستعمارية: فقد دلت نصوص المصادر أن الجيش الإسباني الذي شارك في حرب تطوان 1859-1860م أصيب بالوباء ونشر العدوى في منطقة الشمال، كما تسبب نزول الأمريكان في الحرب العالمية الثانية واستقرار فيالق منهم بالمهدية والدار البيضاء وآسفي والمحمدية في نقل مجموعة من الأمراض الوبائية المعدية، مثل: الزهري والتيفويد.

ثالثا- طرق انتشار الأوبئة

نستفيد من تاريخ المغرب أن الوباء كان ينتقل بواسطة طرق عديدة، ومنها:

أ- السفر من مدينة إلى أخرى: فقد أصيب المنصور الذهبي عندما انتقل بجيشه وأعيان دولته من مدينة مراكش التي كانت خالية من الوباء إلى مدينة فاس حيث كان ينتشر الوباء، فأصيب مع مجموعة من أعيان الجيش والدولة.

12 - محمد الأمين البزاز، المجلس الصحي الدولي بالمغرب، ص: 127.

13 - مصطفى الشابي، الثابت والمتحول في تاريخ المغرب المعاصر، الواقع والتأويل، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش 2009م، ص 259.

14 - أحمد إيشرخان، طائفة هداوة وحقيقتها بالمغرب من خلال تقييد مخطوط للشيخ عبد الحفيظ الفاسي، منشور ضمن ندوة (التراث الصوفي المغربي دراسات في بعض قضاياها ومعالمه وأعلامه)، أعمال الندوة الوطنية التي نظمها مختبر التراث بكلية الآداب سايس - فاس، منشورات مؤسسة مولاي عبد الله الشريف للدراسات والأبحاث العلمية، تنسيق د. محمد العمراني، مطبعة أنفو - برانت، فاس 2019م، صص: 293، 322.

ب- عودة الحجاج المغاربة: وهو ما نجده يتكرر في تاريخ المغرب، وقد أشار الزياتي والضعيف الرباطي والمشرقي إلى حدوث الوباء بالمغرب إثر رجوع الحجاج المغاربة.

لكن يظل أهم حدث يلفت النظر هو انتشار وباء الكوليرا عام 1865م بين صفوف الحجاج القادمين من الحج، حيث توفي ألف منهم في عرض البحر: «فحسب وثيقة مغربية مؤرخة في 22 ربيع الثاني 1282هـ/03 شتنبر 1895م، فإن السفينة انطلقت من الإسكندرية مقلدة 1800 حاج، لم يصل منهم إلى طنجة بعد مسيرة استغرقت خمسين يوما، سوى 800 حاج»¹⁵، وما زاد في محنة الحجاج هو تشدد المجلس الصحي الدولي بطنجة، ومنعهم من النزول إلى البر.

ج- الجرذان والفئران: وقد أظهرت الأبحاث في فترة الحماية أن هذه العناصر كانت لها مساهمة فعالة في نقل العدوى، وتمت ملاحظة أن المناطق الرطبة على السواحل والمناطق الزراعية في الشاوية كانت أكثر عرضة لنقل العدوى من قبل الأحياء المذكورة، بفضل توفر البيئة المناسبة لتكاثرها، وبسبب المستنقعات الحاضنة لتوالد البعوض، وبسبب توفير الغذاء للجرذان والفئران التي تجد تربة هشة تستطيع فيها حفر حُفر عميقة تتكاثر فيها، وهذا الأمر قد صعب عليها في مناطق أرضها صلبة، مثل: الرحامنة وحوز مراكش.

د- القمل والبعوض والبرغوث والبق والقراض: وقد لوحظ في فترة الحماية، أن هذه العناصر كانت سببا في نشر الحمى الراجعة، بنقلها لمكروبات تسمى «لولبيات الحمى الراجعة»، مما تسبب في حصص كثير من الأنفس التي تفتقد إلى المناعة، خصوصا بعد مسغبة 1917م¹⁶. ولقد لاحظ أحد الباحثين المرموقين في مجال انتشار عدوى الأوبئة، أن فعل هذه العناصر أكثر مما تفعله وسائل الحرب، يقول: «إن السيوف والحرب والسهام والمدافع الرشاشة والمفرقات نفسها لم يكن لها من الأثر في مصائر الشعوب، مثل ما لقملة التيفوس أو برغوث الطاعون أو بعوضة الحمى الصفراء»¹⁷.

رابعا- أماكن مساعدة على انتشار العدوى

كان للمغاربة أعياد ومواسم، فإذا حل الوباء تكون أمكنة انعقادها مجالا خصبا لتوفير أسباب انتشار العدوى، ومن أمثلة ذلك، نذكر:

15- محمد الأمين البزاز، المجلس الصحي الدولي في المغرب 1792-1929م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1421هـ/2000م، ص. 65.

16- بوجعة رويان، الطب الكولونيالي، ص. 262.

17- هانس زينسر، التيفوس والتاريخ، ترجمة أحمد بدران، الشركة العربية للتوزيع والطباعة والنشر، (د-ت)، ص. 7.

أ- المزارات والأضرحة والساحات المجاورة لها: وهي تحتضن طقوس الموسم الذي كانت أيامه في الغالب تستمر لأسبوع، وتشارك فيه القبائل بالخليل في ألعاب الفروسية وتقديم الذبائح، مما يساهم في التجمع والاحتكاك فيسهل انتقال العدوى بين الأفراد والجماعات الذين يعودون إلى مدنها وقراهم، فيساهمون في نقل الوباء إليها.

ب- الأسواق الأسبوعية التي كانت مجالا لالتقاء القبائل لتبادل المنافع التجارية: فقد كانت مثلاً: قبيلة مسفيوة وأيت إيمور والأودية ومجاط وأولاد مطاع يلتقون في أرض كل قبيلة بالتناوب في يوم معين من الأسبوع للتسوق، وهو ما يسبب انتقال الوباء من قبيلة إلى أخرى. بالإضافة إلى الأسواق القارة التي كانت تعقد في مداخل المدن العتيقة، مثل: باب الخميس بمراكش، وباب فتوح بفاس، وباب منصور لعليج بمكناس، وباب دكالة بالصويرة.

ج- الساحات الكبرى المشهورة في تاريخ المغرب المخصصة لحلقات الفرجة: وكانت كل مدينة عتيقة تتوفر على هذه الساحة، مثل: ساحة جامع الفناء الشهيرة بمراكش، وساحة باب المريسة بسلا، وساحة باب الجيسة بفاس، وساحة سيدي بوعراقية بطنجة، وساحة القريعة بالدار البيضاء، وساحة الشيخ الكامل بمكناس، وساحة باب الجمعة بتازة، وغيرها كثير. وقد فصلنا فيها القول في مادة «العنترية» بمعلمة المغرب.¹⁸

د- الأسواق التجارية والقيساريات: وكانت تتميز بضيق أزقتها وسقوفها التي تحول دون دخول أشعة الشمس، فترفع فيها درجة الرطوبة، مما يجعلها بؤرة لانتشار المرض في زمن الوباء.

هـ - المارستانات والحمامات التقليدية: فقد كان المارستان بمجرد دخول مصاب بالوباء إليها يقوم بنشره بين نزلاء المارستان، كما كانت ومازالت الحمامات والميضات العمومية مكانا مفضلا لانتشار العدوى.

و- الفنادق والخانات ودور الضيافة والنزالات: التي كان يقصدها الرحالة والسفراء والغرباء والمنقطعون وعابروا السبيل، مما يشكل تنوعا في انتقال العدوى.

18 - أحمد إيشرخان، مادة «العنترية»، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1422-2001م، ج. 18، صص. 6200-6201.

ز - السفن التجارية الكبرى والمتوسطة الراسية في المراسي: فقد ذكرت بعض المصادر أن «جرثومة الوباء» - حسب تعبيرهم - تظل في السفن حية بفضل الظل والرطوبة ووخم الهواء في غرفها السفلية مدة طويلة، فلما يدخلها العمال لنقل البضائع أو للتنظيف أو للشحن تنتقل إلى أجسامهم جرثومة العدوى، ومثال ذلك: أن السفينة التي قدمت من الحج وظلت راسية أكثر من أربعين يوماً، فلما دخلها الحمالون نقلوا منها الوباء فانتشر في المغرب في نهاية العصر السلياني. وكانت السفن التي تحمل السلع والحبوب للاستيراد أو التصدير مجالا مفضلا للقوارض، التي هي خير حاضن للجراثيم الوبائية.

خامسا: تنوع الوسائل وتغيير الأساليب في مواجهة الوباء

تكشف المصادر التاريخية بعض الوسائل التي اعتمدها ملوك الدولة العلوية الشريفة لمواجهة الأوبئة التي كانت تتناوب عليهم بصفة دورية، مما أكسبهم تجارب في خلق آليات المواجهة، وفي مقدمتها الحجر الصحي والعزل في المارستانات، فيما لجأ بعض الأفراد إلى الفرار من الوباء إلى المناطق غير الموبوءة، وفي مقدمتها الجبال، رغم ما ورد من أحاديث في النهي عن الفرار من الوباء. وبرزت أسر شهيرة في التطبيب بالأعشاب في فترات انتشار العدوى، واستعمال أغذية معينة تسخن الجسم، والتبخير بالبخور، والتطبيب بالعطور، والغسيل بالماء الساخن المتضمن بالصابون البلدي والغاسول وأوراق الريحان والكاليتوس وأعشاب الزعتر والأزير والخزامة والشيخ والبابنوج والخوذنجال والقرفة والقرنفل والحرمل. ولجأ أهل البوادي إلى مضغ أوراق الزيتون والسواك البلدي، كما استعملوا الكبريت والكافور والملح وأغصان الأشجار الطاردة لوخم الهواء الناقل للعدوى، والحجامة والجراحة والكلي، فيما لجأ بعضهم إلى التبرك بزيارة الأضرحة وكتابة الأحجبة، فضلا عن الصلاة والدعاء وقراءة الأذكار.¹⁹

وقد أمر بعض ملوك الدولة العلوية الشريفة في مراحل تفاقم الوباء باتخاذ العديد من القرارات، منها:

19 - مؤلف مجهول، أدعية لدفع الوباء، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم 12943.

- تنظيف شوارع المدن والأزقة ورشها بالمعقمات، والمحافظة على الصحة²⁰، وفرض أحزمة أمنية حول المدن. ففي العصر العلوي الأول أمر السلطان مولاي إسماعيل بحياطة مدينة مكناس بسياج من جيش العبيد يحرسون الطريق لمنع الوافدين من دخول العاصمة الإسماعيلية، حتى لا ينقلوا إليها الوباء الذي تفشى في مدينة فاس²¹. كما أمر السلطان مولاي الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بوضع حزام أمني صحي حول مدينة تطوان عام 1878م، والأمر نفسه اتخذته السلطات الاستعمارية في فترة الحماية.

- العناية بالحارات الخاصة بالمصابين بالأمراض المعدية وإرسال المساعدات إليها: فقد كانت بعض المدن الكبرى التي تكون أكثر كثافة في السكان، تخصص أمكنة خارجها لبناء أحياء خاصة بأصحاب الأمراض المعدية، مثل مراكش التي كان فيها حي المجاذيم بسيدي يوسف بن علي وحي الحارة بباب دكالة لعزل المصابين بالأوبئة، كالتيفوس والجذري. وكانت بفاس حارة للجذامى تقع خارج باب الخوخة، وكان الهدف من بنائها في الجانب الغربي هو أن تحمل الرياح أبخرتهم خارج المدينة، كما أنهم لا يستعملون المياه إلا بعد خروجها من فاس.

أ- سياسة الحرق: لقد أدرك السلطان مولاي إسماعيل خطورة الأسواق الأسبوعية مع الأسواق القارة التي كانت في مدخل المدن، فأمر بإحراق العديد منها حتى لا ينتقل الوباء بين المتسوقين وبين من كان يسكن السوق، يقول ابن الحاج عن الطاعون الذي كان أشد فتكا في العصر الإسماعيلي: «وفي هذا العام يعني تسعة وثمانين ألف [1089هـ/1679م] مع العام الذي بعده أصاب الناس الطاعون، وكان يموت من أهل فاس كل يوم ثمانمائة إلى الألف ويقرب من ذلك في كل بلد من البلدان، وكان السلطان أمر أن لا يأتي أحد من فاس ومن القصر لكثرة ما بهما من الطاعون إلى مكناسة ولو كان من كان، ومن وجدوه آتيا منهما لها قتل دون توان، وأمر بإحراق جميع ما بسوق فاس المسمى بالخميس الآن، وكان لا يعمر إلا في يوم الاثنين، وإنما زاد يوم الخميس أمير المؤمنين مولانا سليمان، فأحرقوا جميع ما كان فيه إلا الإنسان، لأن في اجتماع الناس من كل محل، ضرر

20 - عبد الرحمان ابن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1382هـ- 1962م، ج.2، ص. 145.

21 - أبو القاسم الزباني، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، منشورات مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992م، القسم الأول، ص. 163.

حدوث الطاعون في البلد التي هو فيها، بهذا علله بعض الأعيان وأفنى الطاعون توات وتافلات ومدغرة، وكان أهل مراكش يخرجون ألفين في اليوم معدودة مقرر²².

كما كانت سلطات الحماية تلجأ إلى سياسة الحرق للحد من انتشار الوباء، فمن ذلك - مثلاً - ما قامت به سنة 1911م إثر الطاعون الجارف الذي ضرب منطقة الشاوية وأفنى كثيراً من سكانها، حيث قامت السلطات الفرنسية بحرق كل ما تراه مشتبهاً فيه كحاضنة للوباء، فأحرقت الخيام والأكواخ والنوائل وبعض المنازل التي فني أهلها بالوباء، وتم حرق كل البراريك في سوق أربعاء الغرب بسبب موت بعض الأشخاص فيه بالطاعون، كما تم حرق مجموعة من النوائل في دكالة سنة 1912م.²³

ب - سياسة الرش والتطهير: عمدت البعثة الطبية الفرنسية في العديد من السنوات التي انتشر فيها الوباء إلى استعمال وسيلة الرش بمادة «الكريزي»، وتطهير الملابس بالكبريت والماء الساخن.

ج - استقدام أطباء من الخارج: وهو ما بادر إليه السلطان مولاي سليمان، حيث قرر استقدام أطباء أجانب لمكافحة الطاعون الذي اجتاح المغرب ما بين 1798م و1800م²⁴. وقد كانت من عادة ملوك الدولة العلوية استدعاء بعض الأطباء من فرنسا ومن بريطانيا للاستفادة من خبرتهم، وهو ما فعله السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الذي استقدم الطبيب الإنجليزي لامبريير (Lempriere. G)، وهو مؤلف كتاب «رحلة في إمبراطورية مراكش وإمبراطورية فاس» (Voyage dans l'empire de Maroc et l'empire de Fes). وفي العهد الحسني اشتهر الطبيب الفرنسي فيرناند ليناريس، حيث مارس مهنة الطب والعلاج ما بين 1877م و1902م.

د - التلقيح: وقد ساد هذا النوع من العلاج في مواجهة الأمراض المعدية، مثل: التيفوس في المغرب عام 1937م، حيث أقدم الفرنسيون على إجبار السكان للخضوع لعملية التلقيح في المراكز الطبية التي اعتمدتها في الحواضر، وفي مقدمتها الدار البيضاء ومراكش، كما شهدت مدينة وجدة حملة

22- يعتبر هذا الطاعون من بين الأوبئة الأشد فتكاً التي وقعت في المغرب خلال هذه الفترة. وقد تحدث عنه القادري بنوع من التفصيل. القادري، نشر الثاني، ج. 2، ص. 250. والتقاط الدرر، ص. 210. الناصري، الاستقصا، ج. 7، ص. 60. ابن الحاج، الدر المنتخب، ج. 6، ص. 355.

23 - بوجعة رويان، الطب الكولونيالي، ص. 335.

24 - محمد الأمين الباز، المجلس الصحي الدولي بالمغرب، ص. 38.

تلقيح كبرى عام 1938م.²⁵ كما تصدت الدولة المغربية للكوليرا عام 1390هـ/1972م، وتمكنت بواسطة التلقيح من توقيف انتشار العدوى²⁶.

هـ - الاستحمام في الحمامات الاستشفائية: فقد لجأ المغاربة في العديد من فترات الوباء وانتشار العدوى إلى الحمامات التي اشتهرت بمنابع مياهها الحارة، التي تحتوي على نسبة من الكبريت والمعادن التي تساعد على الحد من انتشار العدوى، ومثال ذلك حمامة مولاي يعقوب في نواحي فاس، وحمامة وليلي في زرهون، وحمامة سطات، وحمامات العين الزرقاء بإقليم الراشدية، وعين سيدي يوسف وعين السخون ثم تالعينت لاز التي تعالج مياهها أمراض الجهاز التنفسي، وكلها في مجال قبيلة بني وراين في إقليم تازة.

سادسا: مخلفات وبائية مخيفة في المجال الديموغرافي

شهد المغرب العديد من أوبئة تخبر بفناء أهله، حتى أصبحت لازمة: «عم سهله وجباله وأفنى كياته وأبطاله»، واللازمة: «وشاع الموت حتى عجز الأحياء عن دفن الأموات وتركوهم في الأزقة تنهشهم الكلاب»، أو كما قال الإفرائي: في «نزهة الحادي» حتى: «لا يبقى من العشرة إلا الواحد».

بل أثرت تأثيرا في بنية المغرب الديموغرافية وما نتج عنها من توقيف عجلة التحديث، بل إن الأوبئة بالإضافة إلى جوائح المجاعات كانت سبب فشل الإصلاحات التي قادها السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان وخليفته السلطان مولاي الحسن، فقد مات كثير من أعيان الدولة وعلمائها ونخبها الفكرية، بل توفي رجال من البعثات العلمية ونبغاء الأمة المغربية في سنة مبكرة من عمرهم نتيجة الوباء، ويكفي أن نضع لائحة بأسماء جملة من نبغاء المغرب الذين ماتوا في مقتبل العمر ومطلع الشباب وهم في أوج العطاء، ونذكر منهم رائد الصحافة المغربية سعيد حجي السلاوي، الذي توفي عام 1942م وهو في الثلاثين من عمره. بل إن المنصور الذهبي توفي نتيجة الوباء وهو في الثانية والخمسين من عمره. وفيما يلي جدول يوضح فداحة الخسائر البشرية إثر الطاعون الذي عم المغرب في عصر السلطان مولاي الحسن عام 1877م، حسب ما أورده الطبيب رينو:

25 - بوجعة رويان، الطب الكولونيالي بالمغرب، ص. 330.

26 - محمد ابن عزوز المذكوري، كتاب تاريخ المغرب، ص. 15.

النسبة المئوية	عدد السكان	عدد الوفيات الإجمالي	معدل الضحايا في اليوم	المدينة أو المجال القروي
54.16%	1799/120000م	56000	1200 إلى 1500	فاس
83.33%	1800/60000م	50000	1000	مراكش
41.66%	1852/12000م	5000	28	أسفي
—	—	—	800	تارودانت
98.6%	500	493	—	نواحي حاحا
75.18%	133	110	—	قرية الدويبات موغادور
66.66%	30000	20000	—	الرباط
		انقطاع أعقاب 10 أسر + وفاة شيوخ قبيلة أمانوز + وفاة 12 يهوديا من ملاح إيليغ	—	سوس 1214هـ/ 1800م المصدر المعسول ج. 3. وج 17

خاتمة:

هذا نموذج من دراسة تاريخ الجوائح والأوبئة، يعتمد على المصادر والوثائق، القصد منها معرفة أسباب الوباء ووسائل العدوى وطرقها وكيف تمت مواجهتها من طرف المغاربة وملوكهم في العصر العلوي. وإذا كانت الأسباب والطرق في انتقال الوباء ما زالت هي نفسها، فإن وسائل المواجهة تغيرت في الجانب الطبي فقط، أما «الحجر الصحي» فقد كان معروفا في مغرب القرن التاسع عشر وكذا في أوروبا، وهو الذي أثبت إلى اليوم فعاليته في الحد من انتشار العدوى. ولقد كتب أحد الصحفيين النبهاء: «الأوروبيون يواجهون الوباء عام 2020م بما واجه به أجدادهم وباء 1868م». وقد ذكر الكانوني أهمية الحجر الصحي في عصر الدولة العلوية الشريفة، فقد كانت

للسلطان مولاي إسماعيل عناية بالصحة العامة والعمل دون انتشار العدوى، وهو ما فعله عام 1089هـ/1678م لما انتشر الطاعون بفاس ومكناس، حيث أمر بوضع حراسة مكونة من جيش العبيد بوادي سبو والطرق المؤدية للمدينتين يمنعون الواردين عليهما خوفا من انتشار الوباء. وإلى جانب ذلك عمل ملوك الدولة العلوية الشريفة مختلف الوسائل لمنع انتشار الوباء، مثل الحث على تنظيف المدن، واستقدام الأطباء من أوروبا، والتشجيع على التأليف في الطب كما فعل السلطان مولاي الحسن، عندما أذن للعلامة أحمد ابن الحاج بتأليف موسوعته في علم الطب الموسومة بـ «الدرر الطبية المهداة للحضرة الحسنية»، والتي تضمنت فصولا وأبوابا في مواجهة الأوبئة والوقاية منها والحد من انتشارها، مع ذكر لمحة من جهود ملوك دولة الأشراف العلويين في مكافحة الأوبئة والجوائح.

الصفحة الأولى والثانية من مخطوط (الدرر الطبية المهداة للحضرة الحسنية)

الذي سيصدر قريبا بتحقيق صاحب المقال.



الأوبئة والطواعين وسبل مقاومتها عند سلاطين المغرب

د. عبد العالي ملوك

مركز التوثيق والأنشطة الثقافية - مكناس.

عرف المغرب، منذ تأسيس أول دولة فيه على يد المولى إدريس الأول، حالة من الاستقرار على وجه العموم، بفضل حكمة السلاطين الذين تعاقبوا على حكمه منذ ذلك العهد، وإلى عهد الدولة العلوية الشريفة من جهة، وبفضل عناصر الترابط الديني والتماسك الاجتماعي والشرعية السياسية التي أسهمت في احتواء عوامل الخلاف والتمزق والانشقاق من جهة أخرى.

وإذا كان دوام الحال من المحال كما يقال، فقد جرت على المغرب سُنّة التداول الحضاري، وقانون القبض والبسط، حيث عرف أحيانا هزات سياسية واجتماعية واقتصادية، وفترات من الضيق والعسر والشدائد والبلاء، بسبب الأوبئة والجوائح التي داهمتها وأزهقت أرواح عدد كبير من سكان القرى والبوادي على السواء، تارة في شكل مجاعات، وتارة في شكل كوارث طبيعية كالجراد والزلازل والسيول الجارفة، وتارة في شكل أمراض وطواعين، وقد يجتمع اثنان منها أو أكثر في السنوات نفسها، كاجتماع الجراد مع الجفاف، أو المجاعة مع الوباء، أو الزلازل مع الفيضانات، أو المجاعة مع الجفاف.. وذلك بسبب ارتباط بعضها ببعض، كما ترتبط المجاعة مع الوباء في كثير من الأحيان، "لأن سوء التغذية يجعل السكان أكثر عرضة للأوبئة، وأقل قدرة على مقاومتها، كما أن الأوبئة تقضي على الفلاحين المنتجين، وتساهم في نقص الإنتاج، ففي سنة 1598م - مثلا - كانت المحاصيل الزراعية كثيرة ومتوفرة، ولكن اليد العاملة قليلة جدا، مما أدى إلى ضياعها"¹.

وعموما، فما كان من نبأ هذا الوباء وأمره - كما قال القاضي صلاح الدين الصفدي - أنه قد عمّ البلاد، وغمّ النفوس وأذاب الأكباد، (..) وتقدم بعساكر المنايا، وداهم بكبائر الرزايا، وألقى

1 - التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي، عثمان المنصوري، ط1/2001م، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ص325-328.

الرعب في قلوب البرايا، وأبقى في صدورهم البلايا، وشَهَر لكل أحد نصابه، ونزل بباب كل بيت منه عصابة، فالناس بين كل ميت وماتت، ومتوقع الفَوَات وفاتت، وأصبح كل جبار وهو منه خائف، ويظن أن الموت على بابه واقف، إن دخل بيتًا كان آخر أهله خروجًا، وإن عدل إلى فناء أجج نار الفناء فيه تأجيجًا، فقصر عند ذلك الآمال، وكثرت لديه الأعمال، وعظم التضرع إلى الله والصَّياح، وعمل الناس بقوله - صلى الله عليه وسلم -: "إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح"².

وقد عمد كثير من الأوربيين ممن كتبوا عن الجوائح والأوبئة في تاريخ المغرب إلى قلب الحقائق، واتهام السلاطين والأمة المغربية عموماً بالتخلف الصحي، وعدم القدرة على مواجهة الطواعين والأوبئة التي تحمل بهم، حتى قال لينارس: "لا ينبغي أن نعلق الآمال على وقوع أي تحسن في الحالة الصحية داخل المدن المغربية، لأن الشعار الذي اختارته الإمبراطورية الشريفة هو البقاء على هامش كل تقدم، وفي معزل عن كل فكرة لها صلة بالتمدن"³.

وهكذا يحاول لينارس وغيره ممن كتبوا حول هذا الموضوع، إيهامنا بأن الوقاية من الأمراض الفتاكة، ومحاربة الطواعين والأوبئة أمر لم يعرفه المغاربة قبل الغزو الأوروبي. والحقيقة أن فكرة العزل الصحي والفرار من الوباء، واستعمال العقار، وتعقيم الرسائل وغيرها مما يرد من المناطق الموبوءة، وإحراق الأمتعة والأماكن والقرى التي انتشر فيها الوباء. كل ذلك عرفه المغاربة منذ أقدم العصور، وهذا ما تطالعنا به الوثائق التاريخية، والمصنفات والشهادات والفتاوى الفقهية والرسائل السلطانية، كما ذكره القادري، والناصري، والعربي المشرفي، وابن الحاج، وابن سودة، وابن عجيبة، وابن هيدور، والتمنارقي، والحضيكي، والضعيف الرباطي، وغير هؤلاء ممن سنقف على مقولاتهم في هذا البحث.

بين الوباء والطاعون

جمع الحافظ ابن حجر في كتابه "بَذْلُ المَاعُونِ فِي فَضْلِ الطَّاعُونِ" تعريفات الطاعون عند المتقدمين، ومما ذكره في ذلك قوله: قال الجوهرى: الطاعون: وزنه فاعول من الطعن، عدلوا به عن

2 - ذكره ابن حجر العسقلاني في كتابه: بَذْلُ المَاعُونِ فِي فَضْلِ الطَّاعُونِ، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة - الرياض، د.ت، ص 382-383.

3 - انظر المجلس الصحي الدولي بالمغرب (1792-1929م)، رسالة جامعية مرقونة، محمد أمين البزاز، ص 16.

أصله، ووضعوه دالاً على الموت العام كالوباء، ويقال: طعن فهو مطعون وطعين: إذا أصابه الطاعون؛ وكذا إذا أصابه الطعن بالرمح.

وقال إبراهيم الحربي في "غريب الحديث": الوباء هو الطاعون والمرض العام، قال: والطاعون معروف؛ وهو قرحة يبلي الله بها من يشاء يطول ذكر سببها.

وقال ابن العربي في "شرح الترمذي": الطعين: الذي يصيبه الطاعون؛ وهو الوجع الغالب الذي يطفئ الروح كالذبحة، وإنما سمي طاعوناً لعموم مصابه، وسرعان قتله، فيدخل فيه مثله.

وقال أبو الوليد الباجي في "شرح الموطأ": هو مرض يعم الكثير من الناس، في جهة من الجهات، بخلاف المعتاد من أمراض الناس، ويكون مرضهم واحداً، بخلاف بقية الأوقات، فتكون الأمراض مختلفة.

ونقل ابن التين، عن الداودي قال: الطاعون حبة تخرج في الأرفاغ، وفي كل طي من الجسد، والصحيح أنه الوباء، كذا قال، وكذا قال الخليل بن أحمد في "العين": الطاعون هو الوباء.

وقال ابن الأثير في "النهاية"؛ في قوله- صلى الله عليه وسلم-: "فناء أمتي بالطعن والطاعون": الطعن: القتل بالرمح، والطاعون: المرض العام، والوباء الذي يفسد له الهواء، فتفسد به الأمزجة والأبدان، ومراد الحديث: أن الغالب على فناء الأمة بالفتن التي تسفك فيها الدماء، والوباء، وقد تكرر الطاعون في الحديث، وقال القاضي عياض في "شرح مسلم": قوله- يعني في حديث أسامة في الطاعون-: "إن هذا الوجع أو السقم"؛ العرب تسمي كل مرض وجعاً، وقوله: "رجز"؛ الرجز العذاب، وقد قال في الرواية الأخرى: "رجز عذب به بعض الأمم".

وقال ابن عبد البر بعد أن ذكر الحديث: إن الطاعون غدة كغدة البعير، تخرج في الآباط والمراق، وقال غير واحد من أهل العلم: وقد تخرج في الأيدي والأصابع وحيث شاء الله تعالى من البدن.

قال عياض: أصل الطاعون القروح الخارجة في الجسد، والوباء عموم الأمراض؛ فسميت طاعوناً لشبهها بالهلاك بذلك، وإلا فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعوناً، ويدل على ذلك حديث أبي موسى: "الطاعون وخز أعدائكم من الجن"، وإن وباء الشام الذي وقع في الأحاديث، إنما كان طاعوناً؛ وهو طاعون عمواس؛ وكان قروحاً.

وقال في "الروضة": فسّر بعضهم الطاعون بانصباب الدم إلى عضو، وقال أكثرهم: إنه هيجان الدم وانتفاخه، قال المتولي: وهو قريب من الجذام؛ من أصابه تأكلت أعضاؤه وتساقط لحمه. انتهى.

وقال أبو علي ابن سينا وغيره من حذاق الأطباء: الطاعون مادة سمية تحدث ورمًا قتالًا، يحدث في المواضع الرخوة والمغابن من البدن، وأغلب ما يكون تحت الإبط [أو] خلف الأذن أو عند الأرنبة، قال: وسببه دم رديء مائل إلى العفونة والفساد، يستحيل إلى جوهر سمي يُفسد العضو ويغير ما يليه، ويؤدي إلى القلب كيفية رديئة فيحدث القيء والغثيان والخفقان، وهو لرداءته لا يقبل من الأعضاء إلا ما كان أضعف بالطبع، وأردؤه ما يقع في الأعضاء الرئيسة، والأسود منه قل من يسلم منه، وأسلمه الأحمر ثم الأصفر.

أما الوباء، فهو - كما حققه ابن حجر - غير مرادفٍ للطاعون، وأن إطلاق الطاعون على الوباء إنما هو بطريق المجاز، لكونه أخص منه، لما ثبت في "الصحيحين" و"الموطأ" من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال"، وأخرجه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة، فلا يدخلها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله تعالى"، وقد أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الحج من طريق أبي أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: "قدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله تعالى... الحديث، وفيه قول بلال رضي الله عنه: "اللهم العن شبيهة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمّية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء".

فلو كان الطاعون هو الوباء لتعارض الحديثان، لكن لا تعارض بينهما لأن الطاعون أخص من الوباء.

وقوله: "أوبأ" أفعل تفضيل، من الوباء، وهو يمد ويقصر، قال أهل اللغة: هو المرض العام، يقال أوبأت الأرض فهي موبئة، ووبئت فهي وبيئة، ووبئت بالضم فهي موبوءة، وأرادت عائشة رضي الله عنها في وصف المدينة بالوباء كثرة ما كان بها من الحمى.

وقد ظهر بما أوردته أن الطاعون أخص من الوباء، وأن الأخبار الواردة في تسمية الطاعون وباء، لا يلزم منه أن كل وباء طاعون، بل يدل على عكسه، وهو أن كل طاعون وباء، لكن لما كان الوباء ينشأ عنه كثرة الموت، وكان الطاعون أيضًا كذلك، أطلق عليه اسمه.

وفارق الطاعون الوباء بخصوص سببه الذي لم يرد في شيء من الأوباء نظيره، وهي كونه من "طعن الجن"، وهو عندي لا يخالف قول الأطباء فيما تقدم من كونه ينشأ عن مادة سمية أو هييجان الدم أو انصبابه إلى عضو أو غير ذلك، لأنه لا مانع أن ذلك يحدث عن الطعنة الباطنة، فيحدث منها المادة السمية، أو يهيج بسببها الدم، أو ينصب⁴.

أما منظمة الصحة العالمية، فتعرف الطاعون بأنه: مرض تسببه بكتيريا حيوانية المنشأ تدعى اليرسينية الطاعونية، وينتقل الطاعون عن طريق لدغ البراغيث المصابة أو بالملامسة أو بالرداذ الخارج من الجهاز التنفسي للمصاب بالطاعون الرئوي⁵.

حاصل الكلام، أن العلماء اختلفوا في مفهوم كل من الوباء والطاعون والعلاقة بينهما، وذهبوا في ذلك مذهبين:

أحدهما: نظر إلى الطاعون باعتباره مرضا عاما مهلكا، فجعله شاملا لكل مرض معد واسع الانتشار يؤدي للموت العام، وبهذا يكون مرادفا للوباء بلا فرق.

والثاني: نظر إلى الطاعون باعتباره نوعا خاصا من الأمراض المعدية الفتاكة، تنتج عنها قروح جلدية، وانتفاخ الغدد، وغالبا ما تكون هذه الأورام خلف الأذن والآباط واللحوم الرخوة، وهذا يجعل الطاعون أخص من الوباء، فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونا.

إجراءات السلاطين المغاربة لمقاومة الأوبئة والطواعين

أولا: الاهتمام بالجانب الوقائي والاستشفائي

من مظاهر اهتمام سلاطين المغرب بمقاومة الجوائح والأوبئة، العناية بالطب والأطباء والبيمارستانات، وقد أشادت الوثائق التاريخية باهتمام سلاطين المغرب عموما، وسلاطين الدولة الموحدية على وجه الخصوص، بتوفير العلاجات الضرورية لمختلف الفئات الاجتماعية، والبحث عن الأدوية المناسبة للأمراض والأوبئة والطواعين، حيث بلغ الطب على عهدهم درجة من التطور تقاصرت دونها مستشفيات دول أوربية معاصرة، كفرنسا والبرتغال، بما أبدعوه وشيدوه من

4 - انظر بذل الماعون في فضل الطاعون، ص 95 - 108.

5 - انظر الموقع الرسمي لمنظمة الصحة العالمية.

مختبرات لصناعة الأدوية وتجريب اللقاحات على الحيوانات والطيور قبل استعمالها للمرضى، وهذا ما يستفاد من كلام أبي العباس أحمد التيفاشي في كتابه "أزهار الأفكار في جواهر الأحجار"، حيث ذكر فيه بأن يعقوب المنصور فرق حصوات الترياق على مختلف ممثلي أحياء مدينة مراكش لتوزيعها على السكان، إلا أنه أوصاهم قبل أن يسلموها للمرضى بإجراء تجارب عليها لتحديد الحقيقة من الزائفة منها، فكان أن جربوها في مجموعة من الديكة المملووعة من طرف العقارب، وبهذه الوسيلة تمكنوا من عزل الحقيقة من الزائفة، فكان من بين 208 حصاة التي سلمها لهم 60 حصاة حقيقة و220 زائفة⁶.

وقد أكدت المصادر الخارجية المشرقية والمسيحية شهادة أحمد التيفاشي في حق الطب والأطباء بمغرب الموحدين، حيث وصف الإمام الذهبي في كتابه "العبر في خبر من غبر" الطبيب الأندلسي المغربي أبا بكر بن عبد الملك بن زهر الإيادي الإشبيلي طبيب الخليفة الموحدي يعقوب المنصور بأنه "شيخ الطب، وجالينوس العصر، ولد سنة سبع وخمسمائة، وأخذ عن جده أبي العلاء زهر بن عبد الملك، وبرع ونال تقدما وحظوة عند السلاطين، وحمل الناس عنه تصانيفه، وكان جوادا ممدحا محتشما كثير العلوم..."⁷.

أما من المسيحيين، فننقل شهادة غريغوريوس الملطي المعروف بـ"ابن العبري" في كتابه "تاريخ مختصر الدول" حيث أورد اسم الطبيب المغربي المسلم أبي الحكم المغربي الأندلسي الحكيم المرسي ضمن الأطباء المشار إليهم في الآفاق، كل منهم هبة الله اسما ومعنى من النصارى واليهود والمسلمين، ثم حكى عنه قصة طريفة تبرز مقامه وشهرته في بلاد الشام، حين "دخل العراق وهو مجهول لا يعرف ورأى في بعض تطوافه بأزقة بغداد رجلا جالسا على باب دار يشعر بالرئاسة لساكنها وبين يديه شاب يقرأ عليه شيئا من كتاب أوقليدس فقرب منهما أبو الحكم ليسمع فإذا المعلم يهذي ما لا يعلم فردّ عليه خطأه ويبيّن غلطه، وعلم الشاب الحقيقة في الردّ فاستوقف أبا الحكم إلى أن يعود، ودخل الدار وخرج يستدعي أبا الحكم دون المعلم فدخل إلى دار سرية فلقي

6 - نقلا عن: جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، الحسين بولقطيب، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، د.ت، ص 71-72.

7 - العبر في خبر من غبر، الحافظ الذهبي، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط 1985/1م، دار الكتب العلمية، بيروت، 288/4.

والد الشاب وهو أحد أمراء الدولة فأحسن ملتقاه ثم سألته ملازمة ولده فأجاب، فاشتهر ذكر أبي الحكم فتطلبه الطلبة وارتفع قدره⁸.

يضاف إلى هذا ما ذكره عبد الواحد المراكشي في سياق كلامه عن مآثر أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحي حين قال: وبني بمدينة مراکش ببيمارستانا ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه وأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح؛ وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياه كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد عن الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال وأعدّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض فإن كان فقيرا أمر له عند خروجه بهال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنيا دُفع إليه ماله وتركه وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت ويقول: كيف حالكم؟ وكيف القومة عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال ثم يخرج، لم يزل مستمرا على هذا إلى أن مات رحمه الله في شهر صفر سنة 595هـ، وله من العمر 48 سنة، ومدة ولايته 16 سنة وثمانية شهور، وقد اختار له من الأطباء أمهرهم ومن الصيادلة أشهرهم، من أمثال أمين البيمارستان أبي إسحاق إبراهيم الداني، ومحمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي نزيل غرناطة. قال ابن الخطيب: كان بارع الكتابة والنظم حسن النادرة عارفا بالطب، ولي النظر على البيمارستان بفاس⁹.

8 - تاريخ مختصر الدول، غريغوريوس أبي الفرج بن هارون الطبيب اللمطي المعروف بابن العبري، ط 1994/2م، دار الرائد اللبناني، ص 366-367.

9 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، ط / دار الفرجاني للنشر والتوزيع، د.ت، ص 237-238.

ولم يكن هذا المارستان هو الوحيد الذي شيده المنصور، بل وجد له نظائر بكل من سلا وسيدي فرج بفاس، فبالقرب من سوق العطارين وسوق الحنا بفاس، مكان يقيم به المرضى الذين يعقوهم مرض، وهم المجانين، ويسمى ذلك المكان سيدي فرج، على أنه لم يدفن به أي شخص كان يسمى بهذا الاسم، وليس به قبر، وإنما بنى هذا المكان أحد السلاطين ليضم مرضى المسلمين الذين لا ملجأ لهم أو مأوى يأوون إليه، وسمي باب الفرج لأن المرضى كانوا يجدون فيه ما يفرج كربهم، وقد حبست عليه الحبوس التي كانت تصرف غلتها عليه¹⁰.

وبالإضافة إلى سياسة بناء المارستانات والمستشفيات التي اشتهر بها المنصور، فإنه اشتهر أيضا ببناء حارات لإقامة المجذومين، وكان تشييدها يتم في الغالب خارج أسوار المدن بعيدا عن التجمعات السكنية تلافيا لانتشار العدوى، كما كانت الدولة هي المتكلفة بالإنفاق على هؤلاء المرضى¹¹.

ثانيا: تدبير مرحلة الوباء، أو: القواعد الطبية الأربع للسلطان المنصور السعدي

من عجائب الزمان، أن السلطان المنصور الذهبي؛ الذي اشتهر بتحضره الشديد، وتحفظه الكبير من الوباء، من خلال رسائله إلى ولده أبي فارس، وانسحابه خارج أسوار المدينة وبقائه طويلا هناك مع جيشه، قد مرض بالطاعون، "بمحلته في ظهر الزاوية، موضع بظاهر فاس الجديد قريب منه، يوم الأربعاء الحادي عشر من ربيع النبوي الأنور المبارك من عام اثني عشر وألف، فدخل في محلته إلى فاس الجديد والتزم الفراش إلى يوم الاثنين الموالي لتاريخه فتوفي رحمه الله ودفن يوم الاثنين عند صلاة العصر وكانت وفاته بالوباء"¹².

وإذا كان لبعض الفقهاء عبر التاريخ موقف مخالف لنظرية الفرار من الوباء، بدعوى الاستسلام للقضاء والقدر، فإن إجابات السلطان المنصور الذهبي عن رسالة ولده في شأن الوباء لما ظهر بمراكش وهل يفر منه أم لا؟ تنبئ عن حكمة بالغة، ورؤية مقاصدية، وإحاطة شاملة بتفاصيل الطب والاستشفاء وطرق الوقاية وسبل العلاج، وذلك من خلال وضع القواعد والخطط الآتية:

10 - تاريخ البيمارستانات في الإسلام، أحمد عيسى، ط 2012م، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ص 184.

11 - جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ص 75.

12 - نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفرائي النجار المراكشي، ط / 1888م، إنجي، ص 188.

القاعدة الأولى: في الفرار من الوباء، ومتى يكون ذلك، وكيف؟ وهذا ما يستشف من قوله: "من عبد الله المجاهد في سبيل الله الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبي العباس أحمد المنصور بالله ابن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ المهدي ابن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ القائم بأمر الله الشريف الحسيني أيد الله بعزیز نصره وأوامره، وظفر عساكره وأسعد بمنه موارد ومصادره، إلى ولدنا الأجل الأعز الأفضل الأبر الأرضى الأكمل الأسد الأمجد الأحفل بابا أبي فارس وصل الله عنايتكم ووالى بمنه رعايتكم، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا العلية بالله المرينية البيضاء حاطها الله عن الخير والعافية ونعم الله تعالى المتوالية (..) أول ما تبادرون به قبل كل شيء هو خروجكم إذ لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو أقل القليل حتى بشخص واحد، ويبقى في القصة وصيفنا مسعود والقائد محمد بن موسى بن أبي بكر، وترك مائة رام تتقوى بها من رمايتكم من أصحاب السقيف، وتوكلوا على الله وتخرجوا بسلامة ثم لا تعملوا كعملنا في الاقتصار على الرحلية والتغلب بها، بل لا تزيدوا إذا خرجتم على المقام أكثر من يومين ثم اطووا المراحل إلى أن تنزلوا سلا وتدخلوا بها دخول هناء وعافية إن شاء الله تعالى، وهناك يكون لقاءنا بكم لقاء يمن وسعادة إن شاء الله".

فالخروج "إذ لاح شيء من علامات الوباء ولو أقل القليل حتى بشخص واحد" مخصوص بنائب السلطان، ولا يعم سائر الحكام والقادة العسكريين المنتمين للعائلة الحاكمة، فهؤلاء لا يحق لهم الخروج والفرار من الوباء "إلا إذا تفاحش"، بشرط عدم الابتعاد كثيرا عن مدينة مراكش، والالتحاق بأهل المحلة بخندق الوادي، ومن هؤلاء "خالنا القائد أحمد بن محمد الذي استأذنكم على الخروج عن ذلك المرض من الحضرة المحمدية، فإذا تفاحش فلا عليه في الخروج، ويلتحق بأهل تلك المحلة بخندق الوادي ويترك في القصة الأندلس مع قائدهم. ومسألة مؤمن بن منصور هكسيمة الذي ذكرتم أسعدكم الله أن مؤمنا المذكور قد تناقل بدمتنا بسبب مرض ألم به حتى جاء به شاوش وإن أخاه ذلكم المفسود بعث إليه ليلتقي معه بتامصلوحت، فعلى بركة الله تعالى والحاضر بصير وهذا موجهه إليكم والله يصل بمنه رعايتكم والسلام"¹³.

القاعدة الثانية: المنع من الخروج لمصلحة شرعية: وسد الذرائع أمام بعض القادة الذين "يكثرون خبر الوباء" ويبالغون في تهويله من أجل البحث عن الخلاص الفردي دون مراعاة

13 نزهة الحادي، ص 184-185.

المصلحة العامة للدولة، وهذه حال "ولد خالكم أحمد بن محمد الصغير وصح عندنا من بحر كلامه ما ذكرت من أنه كثر خبر الوباء ليجد ذريعة للخروج من سوس، والذي تأمرونه به أنكم تحذرونه من القدوم عليكم لمراكش وأن ذلك لا يرضينا منه، وكيف يروم الخروج من موضع عيناه له من غير أمرنا لاسيما مع غيبتنا عن البلد وأنه إن فعل ذلك لا محالة تسقط منزلته عندنا ثم لا يعود إليها أبدا، إلا إن تفاحش المرض بتلكم الناحية فلا عليه في الخروج والتنقل قرب البلدان يلتحق بمحلة أصحابه الذين بخندق الوادي"¹⁴.

القاعدة الثالثة: التعقيم وتجنب ملامسة الأشياء: ويتم بالاحتراز من الرسائل وغيرها، وعدم قراءتها أو إدخالها إلى البيوت قبل وضعها في الخل ونشرها وبيسها، ففي "يوم الأربعاء الرابع عشر من ربيع الأول المعظم عام أحد عشر وألف، وبعد أن كتبنا لكم هذا بلغنا كتابكم ونحن نجيبكم في كل ما تحتاجون إلى الجواب عنه والبراءة التي ترد عليكم من سوس من عند الحاكم أو من عند ولد خالكم أو من عند غيرهما، لا تقرأها ولا تدخلها دارا بل تعطئها لكاتبكم هو الذي يتولى قراءتها ويعرفكم مضمونها، ولأجل أن الكاتب يدخل عليكم ويلبس مقامكم، فلا يفتحها إلا بعد إدخالها في خل ثقيف وتنشر فيتيسر، وحينئذ يقرأها ويعرفكم مضمونها"¹⁵.

القاعدة الرابعة: الترياق للكبار، والشربة للصغار؛ وهي وصفات طبية متكاملة أمر السلطان بإعطائها "للعائلة الملكية" بالإضافة إلى "صاحب بيت الثياب" و"قهرمانية الدار"، مع تحديد المقادير والمواقيت والأعمار، فمن وصاياه لولده قوله: "ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق أسعدكم الله فالزموه إذا استشعرت من بحرارة وتخوفتموها فاستعملوا الوصف من الوزن المعروف منه ولا تهملوا استعماله (..) وأوصيكم أيضا إذا ظهر الوباء بتلك البلاد وخرجتم خروج خير وسلامة بحول الله وقوته ألا تتركوا وراءكم ابنة عمكم والدنة ولدنا العزيز عبد المالك حفظه الله، وامر يوسف العبدى أن يخرج لك من عند صاحب بيت الثياب القدر المحتاج من الترياق الجديد الذي كان بقبة المشور ودخل على أيديكم لدارنا السعيدة، واستدعوا أم المان قهرمانية الدار، واعطه لها برسم دارنا وأمرها أن تعطيه لهن في كل رابع من اليوم الذي يأكلونه فيه وهي أيضا تأكل منه،

14 - نزهة الحادي، ص 186.

15 - نزهة الحادي، ص 186.

والعبدي يوسف يأكل أيضا منه، وحتى صاحب السقيف اعطوه منه، أقصد مسعود بن مبارك، والله سبحانه يرفعكم ويتولى حفظكم أنتم وأولادكم.

وأما ولدنا حفظه الله لما كان من سن الشيبية فحيث يمنعه الحال من المداومة على الترياق فيها هي الشربة المعروفة النافعة لذلك قد تركناها كثيرة هنالك عند التونسي فيكون يستعملها هو والأبناء الصغار المحفوظين بالله، حتى إذا أحس ببرد المعدة من أجلها تعطوه الترياق مرة والمرتين على قدر الحاجة، فيعود إليها، والله تعالى بفضله وبحرمة صفوة خلقه خير البشر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يتولى حمايتكم ويسبل عليكم من جميل كلاءته ورعايته حصنا منيعا ويعافي البلاد والعباد بمنه وفضله¹⁶.

ثالثا: الحجر الصحي

تميزت السياسة الصحية لسلاطين المغرب بالعمل في اتجاهين متوازيين:

الاتجاه الأول: ركز على صحة السلاطين والأمراء وأفراد عائلاتهم وكبار رجالات الدولة، وهذا واضح في رسالة السلطان المنصور الذهبي التي ذكرتها سابقا.

الاتجاه الثاني: اتخذ بعدا عاما، ليشمل سكان البوادي والحوضر والمدن المحاذية للموانئ وسائر أفراد المجتمع، من خلال محاربة انتشار الأوبئة التي تتسرب عادة من خارج المغرب، عبر البر والبحر، أو التي تنتشر بين الحواضر والبوادي داخل البلد.

وقد اتخذت التدابير الاحترازية لمحاصرة الوباء مظاهر متعددة، ومن أبرزها "الحجر الصحي"، أو ما سمي بـ "الكرنتينة"، ومعناها، كما وصفها ابن عثمان المكناسي في رحلته بين سبتة وإسبانيا: "أن يقيم الذي يرد عليهم في موضع معروف عندهم معد لذلك أربعين يوما لا يخرج منه ولا يدخل إليه أحد، ولهم في ذلك تشديد كثير حتى إن الذي يأتي إلى صاحب الكرنتينة بالطعام يطرحه له من بعد ويحمله الآخر ولا يتماسان، وإن ورد عليهم بكتاب ذكروا أنهم يغمسونه في الخل بعد أن يقبضوه منه بقصبة"¹⁷.

16 - نزهة الحادي، ص 184، 188.

17 - الإكسير في فكك الأسير، ابن عثمان المكناسي، تحقيق محمد الفاسي، ط/ 1985م، المركز الجامعي، الرباط.

وقد نتج عن "الكرنتينة" بهذا المضمون الجديد وغير المؤلف سجلات بين الفقهاء والأطباء، حتى اعتبرها بعضهم "بدعة"، كما ذهب إلى ذلك "الزياني" في الترجمانة الكبرى: "وأنزلونا بقلعة "تيكي" في وسط البحر بقصد بدعة الكرنتينة التي جعلوها دفعا للوباء قبح الله مبتدعها"¹⁸، وفي موضع آخر: "وبعد يومين جاءنا الإذن بالنزول إلى الكرنتينة الشنعا الممنوعة عرفا وشرعا"¹⁹، واعتبرها آخرون "من قبيل العبث"، وإضرارا "بالتجار وسائر المسافرين إلى الأقطار بحبسهم وتعويقهم عن أغراضهم وتعطيل مرافقهم على أبلغ الوجوه وأقبحها"، و"اقتداء بالأعاجم والتزيي بزي الكفرة الضلال ورمقهم بعين التعظيم ونسبتهم إلى الإصابة والحكمة كما قد يصرح به الحمقى من العوام"، كما أفتى الناصري في الاستقصا²⁰.

بينما سعى السلاطين، إلى التوفيق بين إكراهات "الوافد الجديد"، ومقتضيات النصوص الشرعية التي يدعو بعضها إلى الفرار من الطاعون، وبعضها إلى التسليم بالقضاء والقدر، أو التي تعتبر الوباء انتقاما من الله بسبب المعاصي، والتي تعتبره رحمة والموت بسببه شهادة، وهو موقف عملي فرضته المصلحة العليا للأمة، وضرورة تحقيق أكبر قدر من المصالح ودرء أكبر قدر من المفاسد، وتوفير أقصى درجة ممكنة من الحماية الصحية للرعية.

وهكذا اتخذت ظاهرة الحجر الصحي في تاريخ المغرب ثلاثة أشكال رئيسية:

الشكل الأول: يكون بمبادرة من الأهالي، دون انتظار أمر سلطان أو فتوى عالم، حتى صار عادة متبعة كلما تكرر نزول الوباء، كما حصل عام 803هـ، حيث تجنب الناس الدخول إلى المدن الموبوءة، وصادف هذا العام وجود الشيخ محمد بن مرزوق عند عودته من فاس حيث كان هناك في إطار مهمة دبلوماسية كلفه بها سلطان فاس، فوثق شهادته على تلك العادة المتعارف عليها التي كانت بمثابة العرف الجاري العمل بها وفقا للنهي النبوي عن القدوم على أرض فيها الطاعون، وقد نقل عنه ابن عقيبة القفصي في كتاب (اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة) قوله: "وكان في العام

18 - الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، أبو القاسم الزياني، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، ط1/ 1991م، دار النشر المعرفة، الرباط، ص: 282.

19 - الترجمانة الكبرى، ص 363.

20 - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ط1/ 1997م، دار الكتاب، البيضاء، 5/ 183-185.

المذكور وباء عظيم بالمغرب، فلما انصرفت عن سلطان فاس بعث معنا رسلا له فوصلنا إلى حصن يقال له (تاويزيرت) وكنا نحن متأخرين عن الناس، وتقدم الخدمة فوجدناهم قد ضربوا الأخبية خارج الحصن، والعادة في المرور به أن يستغني الناس بالتزول فيه عن ضرب الأخبية، وكان قصدهم بذلك ألا يقدموا بدخولهم الحصن على الوباء وكان ذلك باختيار منهم فوافق غرضي²¹.

ومما ذكره القادري ضمن أحداث العام الخامس من العشرة السادسة حول طاعون مكناس وفاس وتازة، أن العبيد لما نالهم من نهب أولاد حماد ما نالهم، رجعوا مسرعين فوجدوا الطاعون قد فشا في مكناسة وفاس، فنزل العبيد خارج مشرع الرمل ولم يدخلوا لديارهم، وكان قبل هذا بنحو عامين ظهر بتازة، ونزل مولاي المستضيء خارج مكناسة ولم يدخلها حذرا من الطاعون²².

إذن كان عدم دخول حصن أو مدينة فيها الوباء عادة معمولاً بها، بل إن العمل بها لم يكن يتطلب رخصة أو فتوى من أهل الحل والعقد، لأنه عمل بالنهي النبوي القاضي بعدم القدوم على أرض فيها الطاعون²³.

الشكل الثاني: يكون بأمر السلطان أو "المخزن"، وقد احتفظت كتب التاريخ وأدبيات الجوائح والأوبئة بأوامر السلاطين ورسائلهم إلى ممثليهم بمناطق نفوذهم، أو إلى ممثلي الدول الأوربية بالمغرب، ومنها ما أشار إليه القادري في "نشر المثاني"، ضمن أحداث العام التاسع من العشرة التاسعة، في سياق حديثه عن الطاعون الذي ضرب المغرب في عهد المولى إسماعيل، حيث سارع السلطان إلى محاصرة الوباء بإحراق القرى التي انتشر بها، ومنع الناس من التنقل من مدينة فاس إلى مكناسة الزيتون، فقد "ظهر الطاعون أولا قليلا، ظهر بتطاون إلى أن بلغ الموتى بها خمسين نفسا في اليوم الواحد، وظهر بالقصر إلى أن بلغ موتاهم مائة وخمسين في اليوم الواحد، فبلغ خبره إلى مولانا الخليفة إسماعيل الحسني، فوجه عبيده إلى وادي سبو وأمرهم أن لا يترك أحد يعدوه، وخرج أمير المؤمنين مولانا إسماعيل من مكناسة إلى الحركة، وخرجت المحلة من فاس في رابع عشر ربيع

21 - انظر الطاعون وبدع الطاعون: الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير، حسين بوجرة، ط 2011/1م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص: 575.

22 - نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ط 1982/1م، مكتبة الطالب، الرباط، 38/4.

23 - الطاعون وبدع الطاعون، ص: 575.

الأول فقدمت عليه، وظهر الطاعون بفاس الجديد المرينية فصلي بها ليلة المولد على عشرين، وكثر بها، وخلت مدرستها وسدت في ثامن ربيع الأول، وكثر بالقرى المجاورين لها بعين الخميس وبموضع الخميس اليوم وبتلك القصابي وإفركان حتى خليت، فوجه السلطان مولانا إسماعيل عبيده إلى إحراق تلك القرى التي أخلاها الطاعون، فأحرقوها عن آخرها وخربوها وتركوها خرابا في خامس عشر ربيع الأول، وأمر عبيده أن لا يتركوا من يريد المرور بفاس إلى مكناسة الزيتون، فكانوا يحرسون الطرق ليلا ونهارا، ومن لم يسعفهم في الرجوع عن المسير إلى مكناسة قتلوه، وظهر الطاعون بفاس وكثر إلى أن بلغ الموتى في اليوم الواحد من أربعمئة إلى ألف وأزيد، إلى أن ضعف في منسلخ رمضان، فبلغ الموتى في اليوم الواحد عشرة، ثم ظهر الطاعون في مكناسة الزيتون دار الملك إلى أن بلغ الموتى بها ثلاثمئة، إلى أن ضعف فبلغ الموتى في اليوم الواحد خمسين، وظهر بمراكش فبلغ الموتى بها ألفين في اليوم الواحد وأكثر، ومات بمدغرة وتافلات وتوات وسائر بلاد الصحراء ما لا يحصى²⁴.

وفي عام 1492م، وفد عدد من اليهود من الأندلس إلى المغرب، فحيل بينهم وبين الدخول إلى فاس، نظرا لتفشي أحد الأمراض السارية بينهم، فظلوا معزولين في خيم أقيم خصيصا لهم خارج أبواب المدينة.

كما منع أحمد المنصور السعدي المواصلات بين سبتة والمغرب احترازا من انتقال العدوى إلى مملكته²⁵.

الشكل الثالث: بتنسيق بين المخزن والمجلس الصحي الدولي بالمغرب

تأسست نواة المجلس الصحي الدولي بالمغرب، أو ما سمي بـ "الخونطة"، أو "خونطة القناصل" بتاريخ 2 ماي 1792م، للنظر في الشؤون الخاصة بالجاليات الأوربية، والدفاع عن مصالحها المشتركة، أو الضغط على السلطات المحلية لانتزاع بعض الامتيازات، أو تقديم ملتمسات إلى السلطان الذي قد يوافق عليها أو يرفضها، ثم ما لبثت أن وسعت تدخلاتها واختصاصاتها لتشمل المراقبة الصحية للمراسي، والتأكد من سلامة السفن الواردة عليها لاتخاذ القرار المناسب

24 - نشر الثاني، 2/ 250-251.

25 - انظر المجلس الصحي الدولي بالمغرب، ص 17.

بشأن السماح بدخولها أو منعها، بما في ذلك السفن العائدة بحجاج بيت الله الحرام، وكانت أول خطوة لتثيit جذور المجلس الصحي، حين اجتاحت الطاعون الجارف المغرب سنة 1799م²⁶.

وقد نتج عن تدخلات المجلس الصحي، لا سيما بشأن الحجاج القادمين من المشرق، ضرورة توفيق السلطان بين قرارات المجلس، ومصالح الرعية، ومضامين النصوص الشرعية، وهذا ما نلمسه في الظهائر والرسائل السلطانية العديدة، ومنها:

- الظهير الذي أصدره السلطان المولى الحسن، بناء على ظهير سابق للسلطان المولى عبد الرحمان، وكلف فيه هذه الهيئة بمهمة الحجر الصحي في المراسي المغربية وذلك في الجانب البحري دون القاري، وقد جاء هذا الظهير الهام في طي الرسالة التي بعث بها أحمد بن موسى إلى السفراء الأجانب في 8 ربيع الأول 1296هـ/2 مارس 1879م وهذا نصه: "يعلم من هذا الكتاب الكريم المقابل أمره السامي بالله بالإجلال والتعظيم أننا بحول الله وقوته أقررنا جماعة النواب الأجناس المحبة الذين بثغر طنجة المحروسة بالله تعالى على ما كان أقرهم عليه سيدنا الجد المقدس بالله من الإذن لهم في التصرف نيابة عن الجانب العالي بالله في أمور السنداد الذي هو النظر في قبول المراكب التي ترد على المراسي ودفعها وجعلها في الكرنيلة وتسريحها على مقتضى قوانينها، وذلك في البحر فقط دون البر، لكونهم أعرف بتلك القوانين، وتكليف أسلافنا الكرام لهم بذلك دليل على محبتهم لجانبنا العالي بالله وحرصهم على نفع الرعايا وضبط مصالحهم إقرارا تاما بأمر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعمل بمقتضاه ولا يتعداه"²⁷. صدر به أمرنا المعتر بالله في 7 ربيع النبوي الأنور 1296هـ.

- رسالة من المولى عبد العزيز إلى محمد الطريس حول طلب المجلس الصحي المتعلق ببناء محطة ببرج مرسى طنجة قصد تطهير السلع الموبوءة:

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله.

(الطابع السلطاني الصغير بداخله الحسن بن محمد الله وليه ومولاه)

خديمنا الأرضي الحاج محمد بن العربي الطريس، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله.

26- انظر المجلس الصحي الدولي بالمغرب، 1/ 29-33.

27 - إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، عبد الرحمان بن زيدان، تحقيق علي عمر، ط 1/ 2008م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 179/5.

وبعد، فقد كتب نواب الدولة بطنجة بما في النسخة من كتابهم الواصلة إليك بطيه من طلب الإذن لهم في بناء حمام بالبرج الصغير الذي برأس المن بالمرسى لتنظيف السلع والمسائل الواردة من المواطن التي بها المرض الذي بالمشرق وغيره من الأمراض، وأجيبوا عنه بما في النسخة طيه من أن جعل ذلك بالبرج المذكور لا يسوغ شرعا ولا قانونا، وبأن ينظروا هم وأنت وعامل البلد محلا بناحية المن خارجا عن حرم البرج المذكور، وبيّنوا به ذلك بعد أن تعقد كنطردة معهم على الشروط التي تتعين فيه، فنأمرك أن تتلاقى معهم على ذلك، وليكن من جملة الشروط التي تعقد عليها معهم كنطردة بناء ذلك عدم الادعاء بوقوع ضرر لذلك المحل الذي بينونه من البرج المذكور بإخراج مدافعه ونحو ذلك، وأن لا يصير المخزن شيئا عليه من عنده، وغير هذا مما يظهر لك أنه يتعين اشتراطه في ذلك، وقد كتبنا للعامل بالوقوف معكم على تعيين موضع لذلك بالمحل المشار إليه، والسلام. في 27 صفر عام 1311هـ²⁸.

- رسالة من الصدر الأعظم أحمد بن موسى إلى محمد الطريس يخبره فيها بأن السلطان لا يرى مانعا من نزول الحجاج بجزيرة الصويرة في الرقعة المخصصة لهم فيها مع إمكانية توسيع هذه الرقعة بقدر ما تحصل به الكفاية:

محبتنا الأرضي والنائب الأجل، السيد الحاج محمد الطريس، أمنك الله، وسلام عليك ورحمة الله من خير مولانا نصره الله،

وبعد، وصلنا جوابك بكتبك لكبيرة السنيّة، الذي هو مينيتر الروسية بما أجاب به سيدنا أيده الله من تشوفهم لجعل كرنطيلة الحجاج بجزيرة الصويرة حسبها بالنسخة التي وجهت من لفظ ما كتبت له به مع ما أجابك به بعينه الذي هو محصله أن النواب لا زالوا متشوفين لأعمال الكرنطيلة بالجزيرة المذكورة متعللين بضيق الوقت عن تهيه محل آخر، إلى غير ذلك من الأجوبة الاستيناسية، فأنهينا ما ذكر لعلم مولانا أيده الله، وصار بباله الشريفة، وأجاب أعزه الله بأنهم حيث طلبوا جعل الكرنطيلة بالجزيرة المذكورة، فلا بأس بجعلها في المحل المحدد لها منها، وحتى إن كان ذلك المحل المحدد لا يسع لنزول الحجاج، فلا مانع من زيادة قدر آخر فيه يؤخذ من أرض الجزيرة بقدر ما

28 المجلس الصحي، 376/2.

تحصل به الكفاية، ويحدد هذا الطرف المزيد أيضا ويضاف للمحل المحدد سابقا حتى يصير جميعهما محلا واحدا..²⁹ في 21 رمضان 1316هـ.

رابعاً: التوعية والإرشاد الديني

لم تقتصر جهود سلاطين المغرب في مقاومة الأوبئة والطواعين على الجانب الطبي والاستشفائي، بل شملت أيضا مجال التوعية والإرشاد الديني، من خلال حث الوعاظ والخطباء وغيرهم من علماء الأمة على توعية الناس وتنبههم إلى خطورة الوباء وسبل الوقاية والعلاج... وقد احتفظت المكتبة المغربية ببعض الخطب المنبرية في هذا الشأن، من أبرزها خطب محمد بن عباد النّفزي (ت792هـ) التي تؤرخ لحقبة مهمة من تاريخ المغرب، وهي عهد أبي الحسن المريني وأبي عنان، ومما جاء فيها: "واعلموا أن الله تعالى إنما أنزل علينا من الوباء ما أنزل ليلو إيماننا بالتمحيص وينفي خبيث ذنوبنا بالتخليص، ويُسيّرنا بين السراء والضراء، ويختار لنا على خير العاجلة خير الأخرى، ويجعل حملنا على المكاهة عملنا، وعسى أن نكره شيئا وهو خير لنا، فإنه تعالى جعل هذا الأمر رحمة لعباده، وحكم للمصاب به من المسلمين على لسان نبيه بالشهادة في دنياه ومعاده. روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الطاعون شهادة لكل مسلم»، وروي عنه أنه قال: «كان الطاعون عذابا يبعثه الله على من شاء فجعله رحمة للمؤمنين»³⁰، فليس من عبد وقع الطاعون به فلبث في بلده صابرا يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد. وذكر عنده يوما الطاعون، فقال: «هو رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم فلا تتفرقوا عنه»³¹.

ويكفينا دليلا على كونه لنا رحمة دعاؤه لنا به، من دعائه: «اللهم اجعل فناء أمتي بالطعن والطاعون»³²، وكان بالمؤمنين رحيمًا. وهذا الوباء رحمكم الله هو الطاعون بعينه، إذ الطاعون عبارة عن وجع غالب يطفئ الروح بسرعة. ولا خفاء من كونه رحمة وخيرا عظيما لهذه الأمة ونعمة شملت الأحياء والأموات، كفرت عنهم السيئات، ورفعت لهم الدرجات، فدليل كونه رحمة للأحياء إيقاظ الغافلين والزيادة في عمل العاملين، فقل من ترى اليوم إلا للموت متأهبا، وبذنوبه معترفا ومنها تائبًا، متصدقا بغناه وغناؤه، معتقًا رقاب عبيده وإمائته. ودليل كونه رحمة للأموات، حكم الرسول

29 - انظر المجلس الصحي، 2/ 342.

30 - ينظر عن الطاعون والأحاديث الواردة فيه: كتاب الفتاوى الحديثة لابن حجر الهيتمي. ص 163.

31 - رواه أحمد، ح: 17790. وقال: صحيح، وهذا إسناد حسن.

32 - رواه أحمد، ح: 18105، وقال: إسناده حسن.

لهم بالشهادة وما أعظمها من منّة، إذ الشهادة ما شهد الرسول لصاحبها بالجنة، فبالتأهب للممات، تجتنب المنكرات، وبالاعتراف بالذنوب، تتجافى عن مضاجعها الجنوب وبصدق المتاب يستدفع عنه العذاب، وببذل الصدقات تسد أبواب المشقات، وبعثت الرقاب يرفع العقاب وبالحتم بالشهادة تنال الحسنى والزيادة، فما حكم قضاء، إلا وعظم عليه عطاء، ولا حلت بعدل الله نعمة، إلا وجلّت بفضل الله نعمة، فمن رضي نال من الله الرضى، ومن سخط كان لسخط الله متعرضا، واعتصموا رحمكم الله من الرضا بأقوى معتصم، وانقادوا مستسلمين لما قضاه ربكم وبه حكم، وأشربوا قلوبكم الموعظة والذكرى، واعملوا صالحا بين يدي الطامة الكبرى، فقد ظهرت لدينا صعاب أشراطها، وشهرت علينا حدة صراطها، فمن كان مصرا على الجرائم فليقلع، ومن كان مقدما على العظائم فليرجع، ومن قابل هذا القول بالنقيض والإفساد، فسيذكر ما أقول له ﴿وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾...³³.

اللهم لا مهدي إلا من هديت، ولا مقرب إلا من قربت ولا مُبْعَد إلا ما أقصيت، فاهدنا اللهم لأعمال تنجيننا، وباعد بيننا وبين ما يهلكنا ويردنا، اللهم إن كنت أخذتنا بما بارزناك به من معاص، وقدتنا إلى هذه الهلكة بالأعناق والنواصي، فنحن المستحقون لذلك، وأنت العدل في انتقامك، لا تسأل عن أفعالك، ولكننا لم نصرف رجاءنا عن مغفرتك، لكون ذنوبنا أبرزتها مشيئتك، ولم تضق عنها سعة رحمتك. اللهم إنا نسألك سؤال فقير إلى غني، ونطلب منك طلب محتاج ضعيف إلى كريم قوي، على أنه لا ينبغي لمن عصاك مثلنا أن ينسبط ويتذلل عليك، لأن ذل الذنب وجرحه المعصية محت جاهنا لديك، حتى إنا إن عرضنا نفوسنا على المحسنين وجدناهم بعين العصيان ينظروننا، وإن عرضناها على المتقين وجدناهم يتقَدَّرُوننا، وإن عرضناها على القرآن وجدناه يطردنا، وإن عرضناها على السنة وجدناها تبعدنا، فلا من المحسنين نُحسب ولا إلى المتقين ننسب ولا إلى القرآن نحسن، ولا إلى السنة نطمئن، فلم يبق لنا إذ فرّ منا وصفك، وجميع خلقك إلا الفرار إلى كرمك وعظم حَقِّك، فماذا تصنع بالعبيد اللثام، يا ذا الجلال والإكرام، وحَقِّك لا أزلنا أطماعنا منك ولو سدت ذنوبنا الآفاق، ولعلمنا أنه لا يمحوها إلا غفرانك، ولا يغلبها إلا عفوك وامتنانك، اللهم تداركنا برحمتك، وتلافنا من التلف بعنايتك، وارزقنا الرضا بما قضيت، والصبر على ما به ابتليت آمين. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

33 - من خطب محمد بن عباد النفزي، اختيار وتعليق أحمد حدادي، ط 1/ 2013م، مطبعة الجسور، وجدة، ص 137.

المولى سليمان والطواعين بين الخوف من الوباء والخوف على الدين

د. سعيد الحججي

الكلية متعددة التخصصات - تازة.

لم يكن المغرب عبر التاريخ بمعزل عن الكوارث الطبيعية التي عرفها العالم ومنها الأوبئة، حيث رصدت مجموعة من الدراسات حجم الضرر الذي خلفته على البلاد،¹ من الناحية الديمغرافية والاقتصادية وكذلك الاضطرابات السياسية التي كانت تؤدي إليها، بسبب ضعف السلطة المركزية وعجزها عن إيقاف انتشار الوباء، ونتيجة تخلف الطب وغياب الإمام الكافي بأساليب مواجهته والاحتياط منه. وبغض النظر عن الظروف التي كانت تتعرض فيها البلاد للوباء، من قبيل تزامنها مع سنوات الجفاف وتراجع المحاصيل الغذائية،² أو الاضطرابات السياسية التي كانت تدفع المعارضين إلى استغلال الوضع لتحقيق غاياتهم وإضعاف السلطة المركزية عبر دعم التمردات القبلية وغيرها،³ فإن الأنظار كانت تتجه إلى السلاطين المغاربة مع كل حالة وبائية تجتاح البلاد، نظرا لمركزية شخصية السلطان ومكانته الرمزية التي كانت تدفع الناس إلى الاعتقاد ببركته وأهميته في تخليص الناس من الأزمات،⁴ وهو ما كان يحتم عليهم التحرك والقيام بما يلزم للحيلولة دون تفشي الأوبئة في البلاد.

1 - ينظر:

- الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002م.
- Bernard ROSENBERGER, et Hamid TRIKI, "Famines et épidémies au Maroc au XVIème et XVIIème siècle" Hespéris-Tamuda XIV (1973): 109-76

- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الطبعة الأولى، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992م.

2 - غالبا ما كان الطاعون مرتبطا إما بسنوات جافة أو سنوات ماطرة شديدة.

3 - البزاز، ص 42.

4 - جرمان عياش، المجتمع الريفي والسلطة المغربية المركزية، ضمن كتاب: دراسات في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى، الشركة المغربية للنشر المتحد، الدار البيضاء، 1986م، ص 207.

إن المسؤولية التي كانت ملقاة على عاتق السلاطين، تدفع إلى طرح مجموعة من الأسئلة حول الأدوار التي اضطلعوا بها في فترات انتشار الأوبئة، ومدى نجاحهم أو فشلهم في الحد منها، وهو الأمر الذي يحتم العودة إلى المصادر التاريخية لقياس ردود فعل السلاطين ومآلات الخطوات التي قاموا بها وتأثيرها على صورتهم لدى الناس.

لم يجد كل السلاطين المغاربة أنفسهم أمام نفس الوضعيات الوبائية، وفيما يشبه النصيب من الحظ، فإن بعض السلاطين المغاربة رغم قصر فترات حكمهم، وجدوا أنفسهم أمام أزمات متتالية ومتزامنة من الجفاف والأوبئة والاضطرابات السياسية، في حين أن البعض الآخر منهم، ورغم طول فترات حكمهم فإنهم لم يعايشوا جوائح كثيرة.

ويعد السلطان مولاي سليمان العلوي الذي حكم المغرب بين سنتي 1792-1822م من بين السلاطين الذين واجهوا موجتين من موجات الطاعون في فترات حكمهم، موجة سنة 1798-1800م وموجة 1818-1820م، وقد جاءت الموجتان في سياق داخلي وخارجي معقد، تميز بتعدد الأزمات الداخلية وتعاقب موجات الجفاف وبداية ظهور الأطماع الاستعمارية تجاه المغرب.

فكيف تعامل السلطان المولى سليمان مع جائحتي الطاعون؟ وما هي الإجراءات التي قام بها للحد من تفشيه؟ وهل نجح في ذلك؟ وما دور القوى الأوروبية في سن الإجراءات التي قام بها المولى سليمان؟ وما موقع الدين في توجيه سياسة السلطان تجاه الوباء؟

1 - ظروف تولي المولى سليمان الحكم في المغرب:

ولد السلطان المولى سليمان العلوي بمراكش عام 1766م واستفاد هو وإخوته المتأخرون من تربية أرادها السلطان سيدي محمد بن عبد الله أن تكون تربية دينية، خاصة بعد أن خاب ظنه في أبنائه الكبار كالمولى اليزيد. وقد أرسل السلطان ابنه سليمان إلى تافيلالت لمتابعة دراسته وخصص لذلك مجموعة من علماء فاس، ومن بين أهم ما ميز المولى سليمان ضعف تجربته السياسية وميله أكثر إلى طلب العلم، ولا غرابة في أن يرفض عرض أخيه المولى اليزيد الذي تولى الحكم سنة 1790م، من أجل خلافته بمراكش، مفضلا استكمال دراسته بمدينة فاس.

وفي مارس سنة 1792م عندما عرض عليه أهل فاس وأيت إدراسن الخلافة، لم يظهر حماسا كبيرا ولم يقبل العرض إلا بعد إلحاح شديد، ويذهب الضعيف إلى أن المولى سليمان لم يقبل بتولي السلطة إلا بعد أن اشترط على مبايعيه بأن لا يشارك في قتال إخوته الذين كانوا يتنازعون الخلافة.⁵

وعلى غرار أغلب الفترات الانتقالية بين السلاطين الذين تعاقبوا على حكم المغرب، كان للسلطان مولاي سليمان نصيبه من الصعوبات التي واجهت بيعته، حيث وجد نفسه أمام مساعي أخيه مولاي مسلمة الطامح بدوره لخلافة السلطان المولى اليزيد، ويسجل الكنسوسي (المعروف بأكنسوس) هذه البداية الصعبة للمولى سليمان في سدة الحكم: "لما مات السلطان مولاي اليزيد بمراكش عام اثنان وتسعين وتسعمائة وألف (1792م) وبلغ الخبر للغرب، اتفق العبيد والوداية والبربر وأهل فاس على بيعه أخيه مولانا سليمان، واجتمع الكل بضريح مولانا إدريس وبايعوه، وذلك في أول رجب من العام المذكور...". ومنذ سنته الأولى لتولي الحكم كان على المولى سليمان تثبيت سلطته عبر إخضاع القبائل المبايعة لأخيه مولاي مسلمة، الذي قام بخداع بعض القبائل عبر تقديم نفسه كسلطان جديد، فيما وصفه أكنسوس بـ "البيعة المغفلة".⁶

أثر التكوين العلمي والفقهى للمولى سليمان على إدارته للدولة، إذ بدا أكثر تمسكا بالنصوص الشرعية وتطبيقا لها في أمور الدولة إلى درجة التشدد، وهو ما جعله يدخل في مواجهات لم تكن ضرورية مع بعض القوى كالشرفاء والزوايا التي اكتسبت مع مرور الزمن امتيازات مادية واجتماعية، اعتبرها المولى سليمان منافية للدين ومصالح الدولة في آن واحد.⁷

وعندما كان المولى سليمان موجودا بمراكش منشغلا باستتباب الأمن وإخضاع المناطق التي لم تكن بيعتها قد تمت له بعد، حل وباء الطاعون بالبلاد سنة 1798م⁸، ولعل ما جعل تأثير الوباء قويا على السلطان بشكل مباشر، كون أكبر ضحاياه كانوا من محيط السلطان ومساعديه الكبار، وعلى رأسهم الكاتب محمد بن عثمان المكناسي، الذي يعتبره المؤرخون اليد اليمنى للمولى سليمان⁹، بالنظر

5 - محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين، 1792-1822م، ترجمة محمد حبيدة، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006م، ص 52.

6 - أبو عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي، الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلهاسي، الجزء الأول، تحقيق وتعليق أحمد بن يوسف الكنسوسي، الطبعة الأولى، نشر المحقق، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، دون تاريخ، ص 273-280.

7 - المنصور، ص 53.

8 - الكنسوسي، 1/ 281.

9 - المنصور، ص 54.

للأدوار الكبيرة التي كان يضطلع بها في عهده، إضافة إلى حصد الوباء لأرواح إخوته الأربعة بالوباء، مولاي الطيب ومولاي هشام ومولاي الحسين ومولاي عبد الرحمان، الثلاثة الأوائل بمراكش والرابع بسوس، حسب ما أورده أكنسوس في الجيش العرمرم.¹⁰ فإلى أي حد تأثر المولى سليمان بوباء الطاعون سنتي 1798 - 1800م؟ وهل كان لفقدان إخوته وكبار مساعديه تأثير في جهوده وتحركاته لتكريس سلطته وضمان بيعة القبائل الرافضة؟

إن وضعاً متأزماً كهذا لا يمكن إلا أن يزيد من صعوبة مهام السلطان، لكن بالعودة إلى المصادر التي أرخت لفترة حكم المولى سليمان نجد العكس، إذ إن أكنسوس جعل الوباء بمثابة العامل المساعد للسلطان والذي جعل الطريق سالكة أمامه لبسط سيطرته التامة على البلاد، بسبب العدد الكبير للضحايا وانشغال المتمردين بمخلفات الوباء: "... وانقطع الوباء في المغرب آخر السنة الثانية عشرة بفاس ومكناس ونواحيهما، وظهر في الدنيا سرور وفاضة الخيرات بمتخلف الأموات، وذلك مصداق البركة في بقية الجوائح، وكذلك لا تكرر هوا الفتن فإنها حصاد المنافقين، ولما مات العتاة والظلمة ومشاهيب البلاء وشياطين القبائل، تمهدت المملكة لمولانا سليمان فلم يبق له معارض ولا منازع"¹¹.

وإذا كانت لغة أكنسوس تميل إلى إضفاء الطابع العقابي على وباء الطاعون، وجعله نصرة من الله للمولى سليمان ضد المتمردين على حكمه، فإن ذلك ليس غريباً على لغة مؤرخ عاش في فترة حكم المولى سليمان وتولى الوزارة في عهده. لكن محمد المنصور يضعنا في الصورة الأكثر موضوعية، عندما يتطرق للمعطيات الإحصائية ومخلفات الوباء الديمغرافية التي تبين هلاك ما بين الربع والنصف من سكان المغرب، وفناء قبائل وخلاء أحياء بكاملها نتيجة الوباء، إلى درجة أن محصول زرع سنة 1799م كان وفيراً جداً مما جعل الأحياء عاجزين عن جمعه.¹² ويخلص المنصور في نهاية المطاف إلى نفس النتيجة التي خلص إليها أكنسوس، وإن اختلفت صيغة التعبير: "وأراح الوباء أيضاً المولى سليمان من خصوم الأمس، فأخواه، المولى هشام والمولى الحسين، اللذان نازعاه الحكم لمدة ست سنوات جنوب نهر أم الربيع، لقياً حتفهما في هذا الوباء. ونفس المصير كان في انتظار كل من عبد الرحمن بن

10 - الكنسوسي، 1 / 281.

11 - الكنسوسي، 1 / 281.

12 - المنصور، ص 173.

ناصر العبدى والهاشمي بن العروسي، وهذا ما جعل القنصل البريطاني ماترا (Matra) يكتب بعد انتهاء الوباء مباشرة: إن المولى سليمان يتحكم الآن في البلاد بكيفية تامة. فقد أصبح من المستحيل على الأقاليم الساحلية التي فقدت ساكنتها أن تقوم بأي تمرد ذي شأن¹³.

وبذلك، كان طاعون 1798م أحد العوامل التي ساعدت المولى سليمان على التخلص بشكل كبير من الحركات المعارضة لسلطته، وتدشين مرحلة جديدة من حكمه. فكيف دخل هذا الوباء إلى المغرب، وما هي حدود مسؤولية السلطان المولى سليمان في مواجهته والحد من انتشاره؟

2- سياسة المولى سليمان في مواجهة وباء الطاعون وانتشاره سنة 1798م.

تذهب أغلب المصادر التاريخية إلى أن وباء طاعون 1798م، تفشى في المغرب بعد تسربه عبر الحدود الشرقية من الجزائر التي كان متفشيا فيها.¹⁴ وبالنظر إلى عوارض الوباء كما وصفها المعاصرون، فإن الأمر كان يتعلق بما يعرف بالطاعون الدبلي¹⁵ وهو ما تؤكد الأوصاف والمصطلحات المتضمنة في المصادر المغربية.

في البداية ساد اعتقاد بأن الوباء قد حل مع الحجاج القادمين إلى ميناء طنجة عبر الطريق البحري سنة 1799م، إلا أن الطبيب الفرنسي رونو Renault نفى صحة هذه الفرضية، بدليل ظهور الوباء متأخرا بطنجة في نونبر 1799م، بعد أن كان الطاعون قد انتشر في معظم أرجاء البلاد. وذهب رونو إلى أن الوباء انتقل إلى المغرب عبر الجزائر انطلاقا من الطريق القاري الشرقي، خاصة وأنه كان متفشيا في تلمسان منذ سنة 1798م¹⁶.

وقد حاولت الهيئة القنصلية بطنجة دفع السلطات المغربية إلى اتخاذ بعض التدابير الوقائية للحيلولة دون انتشار الوباء، وكان لها ذلك بعد أن فرض المولى سليمان الحجر الصحي على مليلية وأقام أحزمة صحية حول طنجة والعرائش وتطوان، إلا أن هذه التدابير كانت محدودة. لذلك،

13 - نفس المرجع، ص 174.

14 - البزاز، ص 87.

15 - يُعد الطاعون مرضا معديا قد يفضي إلى الوفاة، وتحدث الإصابة به بسبب بكتيريا تسمى "يرسينية" تعيش في بعض الحيوانات، لاسيما القوارض، والبراغيث. والطاعون الدبلي هو النوع الأكثر شيوعا للمرض الذي يمكن أن يصيب الإنسان، وتأتي تسميته بهذا الاسم من الأعراض التي يسببها، مثل تورم مؤلم في العقد اللمفاوية أو "دبلي" في الفخذ أو الإبط.

16 - البزاز، ص 89.

سرعان ما عم الوباء جميع أنحاء المغرب، خصوصا وأن الظروف المحلية شكلت بنية استقبال مناسبة لتسريع حركية العدوى، وعلى رأسها تعاقب سنوات الجفاف وتراجع المحاصيل الزراعية¹⁷.

لم يكن أمام المولى سليمان ما يمكن القيام به لمنع تفشي الوباء، أمام محدودية المعارف الطبية والجهل بطبيعة المرض وأساليب الحد منه. ورغم تحذيرات ونصائح ممثلي الدولة الأوربية فإن المولى سليمان رفض القيام بالمزيد من إجراءات العزل الصحي التي أقامها القنصلية الأوربيون بطنجة، وهو ما مهد الطريق أمام الوباء الذي عرف باسم "الطاعون الكبير"¹⁸. لكن هل يمكن الحديث في هذا الصدد عن مسؤولية المولى سليمان في تفشي طاعون 1798م؟

من خلال المصادر التاريخية التي تطرقت لطاعون 1798م، يمكن الحديث عن مسؤولية المولى سليمان في نقطتين أساسيتين، موقفه الشرعي من الحجر الصحي أو ما عرف بالكرنتينة التي دعا إليها قنصلية الدول الأوربية بطنجة، ثم تحركات محلة السلطان في مختلف ربوع البلاد خلال تفشي الوباء.

2-1 الموقف الشرعي من الكرنتينة:

يعود مصطلح الكرنتينة إلى ما ذكره السفير محمد بن عثمان المكناسي عند عودته من إسبانيا، فبعد وصوله إلى سبتة سنة 1779م، وصف الكرنتينة بقوله: "وقد ذكروا لنا قبل أنه لا بد من أن نجعل الكرنتينة، ومعناها أن يقيم الذي يرد عليهم في موضع معروف عندهم معد لذلك أربعين يوما لا يخرج منه ولا يدخل إليه أحد..¹⁹". فيما ذهب الزياتي إلى أن هذا الإجراء مخالف للشرع، خصوصا عندما يتعلق الأمر بتطبيقه على الحجاج، ووصف إجراء الحجر الذي تعرضت له سفيتهم في تونس سنة 1794م عند عودتهم من الحج، فقال: "وبعد يومين جاءنا الإذن بالنزول إلى الكرنتينة الشنعا الممنوعة عرفا وشرعا"، كما نظم قصيدته المشهورة حول هذا الإجراء²⁰.

17 - نفس المرجع، ص 91.

18 - المنصور، ص 170.

19 - محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكك الأسير، تحقيق: محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط، 1985م، ص 97.

20 - أبو القاسم الزياتي، الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، الطبعة الثانية، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1991م، ص 363-364.

بقي المغرب نسبياً في منأى عن الجوائح التي ضربت المناطق المجاورة له إلى حدود سنة 1797م، ومن بين الإجراءات التي اتخذت في هذه السنة من طرف المولى سليمان، موافقته على فرض الحجر الصحي ضد الجزائر، الذي امتد من يونيو إلى أكتوبر، وفي يوليو من نفس السنة، حصلت الهيئة من السلطان على ظهير خاص ينص على فرض الحجر الصحي على السفن القادمة من وهران وشل جميع المواصلات القارية في الحدود الشرقية. وبفضل هذا التدبير وبفضل عامل الحظ كما يذهب إلى ذلك البزاز، بقي المغرب لبعض الوقت في منأى عن الوباء.²¹ لكنه سيظهر بقوة سنة 1798م، ويشير البزاز إلى أن المعطيات التاريخية تزكي فرضية ظهوره بفاس منذ نهاية السنة، وانتشر بباقي مناطق البلاد.²² وعلى الرغم من تحذيرات ونصائح ممثلي الدول الأوروبية، فإن المولى سليمان رفض هذه المرة الأخذ بإجراءات الحجر الصحي التي أقامها القناصلة الأوروبيون بطنجة، معتبراً تبني أي إجراء وقائي من هذا القبيل مخالفاً للشرع.²³ وهو ما أفضى إلى انتشار الوباء في باقي مناطق البلاد، حيث إن ميل المولى سليمان إلى تغليب المنطق الشرعي ساهم في ترده إزاء مطالب الهيئة القنصلية ومن أهمها إجراء الكرنيتنة، خصوصاً بعد رفض القاطع لها من طرف الفقهاء الذين كان لهم تأثير قوي على قرارات السلطان.

2-2 تحركات محلة السلطان:

كان المولى سليمان مجبراً في بداية حكمه على إخضاع القبائل والمناطق التي لم تكن قد سلمت ببيعته، ومن بينها منطقة عبدة وقائدها عبد الرحمان بناصر، وقد قرر السلطان القيام بحركته تجاه المنطقة في نفس الوقت الذي بدأ فيه انتشار وباء الطاعون بفاس ومكناس سنة 1798م، حيث يقول محمد الضعيف: "وارتحل السلطان سليمان من عين عتيق لناحية آسفي وذلك يوم الخميس 29 ذو القعدة عام 1213هـ (4 ماي 1799م)، وبات بوادي بوزنيقة، وفي كل يوم يموت من جيش السلطان كذا وكذا بالوباء، إلى أن قطع وادي أم الربيع، وكأنه نهض بجندين، جند من العسكر وجند من الوباء، ولم يكن الوباء بدكالة وعبدة واحمر وغيرهم قد دخل حتى دخل السلطان ببلادهم..²⁴ وقد

21 - البزاز، ص 87.

22 - نفس المرجع، ص 90.

23 - المنصور، ص 170.

24 - محمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)، تحقيق وتعليق أحمد العماري، الطبعة الأولى، دار المأثورات، الرباط، 1986م، ص 315.

اقتضى مسار حركة السلطان المرور من المناطق الداخلية إلى المناطق الساحلية، عبر مدينتي الرباط وسلا ثم الدار البيضاء وآسفي ثم الصويرة وصولاً إلى مراكش، وفي كل المناطق التي مرت منها الحركة كان يموت العشرات يوميا بسبب الوباء، وكان السلطان يقطع إقامته بكل هذه المناطق خوفاً من العدوى، لكن هذه الحركة كانت سبباً في تفشي الوباء بعدما تسرب إلى وسط الجنود، وحوّلهم إلى أداة لنقله وتفشيهِ في السهول الساحلية والأقاليم الجنوبية، مما جعل مسؤولية السلطان وجيوشه ثابتة وواضحة سواء في المصادر الأجنبية أو المغربية. ففي 6 غشت كتب قنصل إنجلترا بطنجة يقول: "إن جيش السلطان قد نقل العدوى من فاس إلى الرباط ثم إلى باقي السهول الأطلسية"²⁵.

ومثلما ساهمت هذه الحركة في نشر الطاعون في السهول الأطلسية والأقاليم الجنوبية، فلا يستبعد أنها قد ساهمت، بشكل غير مباشر في نشره بالأقاليم الشمالية بعد عودة الجنود إلى مواطنهم. وكان القلق من هذا الاحتمال يقض مضاجع الهيئة القنصلية بطنجة، فقد كتب قنصل الولايات المتحدة يقول في يونيو 1799م: "إن طنجة تتمتع بصحة جيدة، لكن نخشى أن ينتقل إليها الوباء بعد عودة المائة جندي الذين كانوا قد غادروا هذه المدينة للمشاركة في حركة السلطان إلى الجنوب"²⁶. ومما لا شك فيه أن تنقلات السلطان عبر السهول الأطلسية الجنوبية قد ساعدت على تفشي الوباء بسرعة خلال فصل يعتبر موالياً لانتشار العدوى، وهذا ما جعل حركة السلطان محل انتقاد من طرف معاصريه بالنظر إلى انعدام الحاجة الملحة للقيام بحملته في تلك الظروف الصحية العصيبة²⁷.

3- طاعون 1818-1820م:

بعد انحسار طاعون 1798-1800م، ودخول المغرب في مرحلة هدوء نسبي وانتعاش الوضعية الاقتصادية والاستقرار السياسي، ظلت البلاد دائماً في مواجهة تهديدات الأوبئة القادمة من الخارج، ولعل درس طاعون 1798م، جعل المولى سليمان يسمح بهامش قرار أكبر للهيئة القنصلية بطنجة التي أصبحت تولي مزيداً من الاهتمام بالوقاية الصحية في المراسي المغربية، وكان قناصلها قادرين على اتخاذ سلسلة من التدابير الوقائية التي تنص على طرد المراكب الموبوءة أو إخضاع ركابها بمن فيهم المغاربة لحجر صحي في أحد أبراج المدينة. ومع أن هذه التدابير لم تكن تخلو من ثغرات، فإنها لم تكن

25 - البزاز، ص 94.

26 - المرجع نفسه.

27 - الضعيف، ص 315.

عديمة الجدوى. ويرى الطبيب الفرنسي رينو أن المغرب نجا من الحمى الصفراء سنة 1810م بفضل الحظر المفروض على جبل طارق ومالقا حيث تفشى الوباء.²⁸ كما يذكر أن البلاد نجت من الطاعون سنة 1804م بفضل طرد مركب قادم من الشرق وعلى متنه شخص موبوء.²⁹ لكن، إذا كان وعي السلطان بأهمية الإجراءات الوقائية قد أمن الوضع الصحي بالبلاد تجاه الأوبئة في هذه الفترة، فكيف تفشى طاعون 1818-1820م في البلاد؟

3-1 الإجراءات الاستباقية لطاعون 1818م:

عند وصول الأخبار بظهور الطاعون بالجزائر عام 1817م، عقدت "خونطة القناصل" اجتماعا طارئا، قررت فيه اقتراح مجموعة من الإجراءات الاحترازية، أهمها فرض حجر صحي لمدة أربعة أيام على جميع المراكب القادمة من بلاد المغرب الكبير والمشرق الإسلامي، ولمدة يومين على المراكب القادمة من الموانئ الأوربية فيما وراء جبل طارق، وتوسيع نطاق هذه التدابير لتشمل مراسي تطوان والعرائش والرباط والصويرة، إضافة إلى تعيين طبيب فرنسي مفتشا صحيا بمرسى طنجة لتعزيز المراقبة الصحية بها. ولتفعيل هذه الإجراءات وجهت رسالة إلى السلطان المولى سليمان لالتماس موافقته على القرار والعمل على تنفيذه، مع تذكيره بأن والده سيدي محمد بن عبد الله سبق له، في ظروف مماثلة، أن أقام حزاما عسكريا بين مملكته والولاية الجزائرية.

كان المولى سليمان يعي جيدا ضعف خبرة المغاربة في التعامل مع الأوبئة، لذلك يذهب البزاز إلى أن السلطان تفاعل بشكل إيجابي مع هذه التدابير، وما يؤكد ذلك، رسالته إلى الهيئة القنصلية: "فأنتم تعرفون كيف تتعاملون مع أهل الوباء في بيعتكم (كذا) ومشترياتكم وتجعلون الدراهم في الخل وتحفظون كل التحفظ والمسلمون لا يعرفون ذلك، ولا يتحفظون مثل تحفظكم منه وذلك فيه ضرر على المسلمين وعلى قنصوات النصارى الذين بطنجة"³⁰.

3-2 الإجراءات الاحترازية في مواجهة الطقس الديني:

استهدفت الإجراءات الاحترازية للهيئة القنصلية بطنجة أساسا، السفن الواردة على المغرب خلال فترات انتشار الأوبئة، وإذا كان الإجراء الوقائي يتم على أساس احتمال دخول الوباء مع

28 - البزاز، ص 104.

29 - نفس المرجع، ص 105.

30 - البزاز، ص 105.

المسافرين بشكل عام، فإن هذه الإجراءات وجدت نفسها في مواجهة فئة الحجاج وخصوصاً أبناء السلطان سليمان منهم. حيث يذهب البزاز إلى أن مركب الحج "الطاج Taj" القادم من الإسكندرية سنة 1818م كان سبباً في إدخال الطاعون إلى المغرب عبر ميناء طنجة، ورغم التدابير المتخذة من طرف الهيئة القنصلية للحيلولة دون دخول الوباء، إلا أن وجود ولدي السلطان المولى سليمان وهما المولى عمر والمولى علي ضمن ركاب السفينة، حال دون منعها من النزول،³¹ يقول الناصري في هذا السياق: "في هذه السنة 1233هـ، بلغنا أن ولدي أمير المؤمنين مولاي علي ومولاي عمر قدما من الحج ونزلا بمرسى طنجة ووجه لهما والدهما مركبا من مراكب الإنجليز للإسكندرية حملهما وأصحابهما والحجاج والتجار منها، ولما نزلوا بطنجة حل الوباء بالمغرب"³². ويبدو أن تطبيق الإجراءات الاحترازي على أبناء المولى سليمان لم يكن ليتم بنفس الدرجة التي كان يخضع لها الجميع، وهو ما أدى إلى بداية تفشي الوباء بطنجة.

ولم يقتصر الأمر على مركب الحج الذي يقل ابني السلطان، فقد قررت الهيئة القنصلية توجيه رسالة إلى المولى سليمان قصد إخضاع المركب الإنجليزي 'أفون Avon' الذي يقل حوالي 430 حاجا للحجر الصحي في ماي 1820م بطنجة، وفي 02 يونيو وصلت إلى القناصل رسالة جوابية من السلطان، لكنها غير موقعة بطابعه، أبدى فيها موافقته التامة على طلبهم في شأن حجاج المركب، بل وحدد بنفسه مدة الحجر الصحي الذي يتعين على هؤلاء الحجاج قضاءه، واختار "طنجة البالية" مكانا لعزلهم. لكن البزاز يثير إشكالية وجود رسالة مضادة من طرف السلطان تحمل توقعه حسب ما أورد القنصل الفرنسي، حيث وجهها المولى سليمان لأمين جمارك طنجة، الحاج العمارتي، يأمره فيها بالسماح للحجاج بالدخول فور وصولهم، والسماح لهم أيضا بإدخال أمتعتهم وسلعهم بدون حجر صحي.³³ ومع هذا التضارب في الرسالتين، كان الحسم للرسالة الموقعة التي يتوفر عليها أمين جمارك طنجة، وبالتالي سمح للحجاج بالدخول رفقة أمتعتهم.³⁴ ويحيل التضارب في الرسالتين، على أن القيود الاحترازية لم تجد قبولا لدى بعض المسؤولين اعتقاداً منهم بأن الوقاية فرار من القدر وتشبه

31 - نفس المرجع، ص 106.

32 - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، القسم الثاني، الجزء الثامن، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م، ص 133.

33 - البزاز، ص 108 (انظر نص الرسالة في الهامش).

34 - البزاز، ص 109.

بالنصارى³⁵. لكن مسؤولية مركب الحج الذي أقل ولدي المولى سليمان في نشر العدوى تبقى الأكبر ثباتاً، وهو ما يؤكد أكنسوس: "وفي عام ثلاثة وثلاثين ومائتين وألف... قدم ولدا السلطان من حججهما ونزلا بمراسي طنجة، وكان السلطان وجه لهما مركبا من مراكب الإنجليز تحملهما من الإسكندرية مع كل ما تعلق بهما من أصحابهما وخدامهما وبالتجار الموجهين معهما، ولما نزلا بطنجة ظهر الوباء مصحوبا مع من معهما، ثم شاع في المغرب وخصوصا تلك السواحل، ثم في جميع الحواضر والبوادي إلى آخر أربعة وثلاثين ومائتين وألف..³⁶".

ورغم أن المولى سليمان كان يتفاعل إيجابيا مع قرارات الهيئة الصحية القنصلية، إلا أنه كان يبدي في أحيان كثيرة تخوفه من تأثيرها على التجارة ومخالفتها للشرع، ففي رسالة من محمد بن عبد السلام السلاوي إلى القناصل يقول فيها: "إن التحفظ مما فيه الضرر هو جاري بيننا ومبيننا (كذا) بشرع نبينا صلى الله عليه وسلم، ولكن هذه الحسرة الشديدة الصادرة منكم هي خلاف مراد سيدنا ويورث منها الضرر للتجار"³⁷. وقد كان هذا التحفظ يزداد بصفة خاصة عندما يتعلق الأمر بالحجاج المغاربة العائدين إلى بلادهم من الديار المقدسة، وهو الذي نسف في الأخير قرار "الخونطة" المشار إليه سابقا، وفتح الباب على مصراعيها أمام تسلل الطاعون إلى البلاد.

خاتمة:

خلفت موجات الطاعون التي ضربت المغرب مجموعة من التداعيات السلبية التي لم يكن هناك سبيل لتفاديها أمام التخلف الذي كانت تعرفه البلاد، وإذا كان دور السلاطين أساسيا في الحد من الخسائر التي كانت تخلفها الأوبئة، عبر التدابير التي كانوا يقومون بها لتفادي دخول الوباء إلى البلاد وانتشاره، فإن هناك محددات أخرى للقرارات الوقائية التي كانوا يتخذونها، وعلى رأسها ذلك التوجس الذي كانت تنظر بواسطته النخبة إلى التدابير التي يقترحها ممثلو الدول الأجنبية في المغرب، طالما أن السلطان كان يقر بمحدودية معرفة جهاز المخزن بطبيعة الإجراءات التي يجب القيام بها

35 - البزاز، ص 110.

36 - أكنسوس، ص 304.

37 - البزاز، ص 106.

للحد من دخول الأوبئة وانتشارها، لكن هذا الاعتراف لم يكن كافيا لتجاوز الخلفية الدينية التي كانت تحدد موقف السلطان المولى سليمان من القرارات الأوربية المتخذة. وأخذا بعين الاعتبار طبيعة تكوينه الديني، وإيلائه آراء الفقهاء أهمية كبيرة، فإن ذلك حال دون الامتثال لتوجيهات الهيئة الصحية الأجنبية بطنجة، وهو ما نتج عنه تفشي موجتي الطاعون اللتين عرفهما المغرب في عهده. كما أن استمرار الاضطرابات السياسية جعل حركة جيوش السلطان للقضاء عليها مساهمة إلى حد كبير في تفشي الطاعون. وبذلك كان المولى سليمان يجد نفسه دائما في موقف الخائف من الوباء والخائف على الدين من المنظور الفقهي الذي كانت تحكمه قدرية الإصابة بما أنزل الله من مصائب ومنها الأوبئة، والتي كان الفقهاء يعتبرون أن الخضوع لها أهون من الخضوع للتدابير الوقائية التي يقترحها الأجانب.

القواعد الشرعية الضابطة لفتاوى وباء كورونا

ذ. إدريس الزعري المباركي

عضو المجلس العلمي المحلي لفاس.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد، فتجتاح الإنسانية في الآونة الأخيرة أزمة وبائية خطيرة تعرف بوباء كورونا المستجد "كوفيد 19" الذي فرض - بقسوته، وسرعة فتكه، وحجم ضحاياه - الحجر الصحي على أغلب سكان العالم، وألزمهم البقاء في بيوتهم؛ اتقاء عدواه، واحترازاً من تفشيه، ودرءاً للمزيد من مصابه وضحاياه.

وقد انعكست آثار هاته الأزمة الوبائية على مختلف المجالات الاقتصادية منها والاجتماعية، والدينية والتربوية، ونتجت بسببها حركة فقهية نشيطة تمخضت عن النوازل العديدة التي ظهرت في الساحة العلمية، والتي دفعت بالناس للسؤال والبحث عن أحكامها الشرعية ... حركة اتضحت معالمها عبر المراحل المتسارعة لانتشار هذا الوباء الفتاك.

ولعل السمة المميزة لهذه الأزمة هي أنها حملت عدداً من الباحثين والدارسين على التفاعل مع النوازل والأسئلة المتتالية التي أفرزتها هذه الجائحة؛ إذ لم يلبث أن انبرت مجموعة من "الفقهاء المعاصرين" للكشف عن أحكام تلك النوازل، والإجابة عما عرض للناس بسببها من قضايا ومسائل، بما يقتضيه ذلك من ضرورة استحضار القواعد الشرعية، والضوابط الفقهية، والمقاصد المرعية ... مؤكدين بصنيعهم هذا كمال الشريعة الخاتمة وخلودها، وقدرة أدلتها على الوفاء بحاجات الناس في كل عصر، ورعي متطلباتهم في كل دهر، فلا تجدد حادثة إلا وللشريعة فيها حكم، ولا تنزل نازلة إلا ولأهل الشأن فيها قول.

وهذا البحث محاولة لمقاربة نماذج تعدُّ من أشهر الفتاوى والأجوبة الفقهية التي أفرزها هذا الوباء، والتي حررها فقهاء العصر في ضوء قواعد الشريعة السنية، ومقاصدها السمحة الحنيفية، الهدف منه بيان مركزية قواعد التشريع الإسلامي في الكشف عن الأحكام العملية، وإيجاد الحلول الملائمة للنوازل والمسائل الفقهية، وإبراز ما تتسم به من أثر بالغ في مجال تدليل سبل الاجتهاد، وتيسير طرق الاستثمار والاستدلال، وكذا في الموازنة بين الفتاوى والآراء والأقوال؛ فبإعمال القواعد، وتحكيم المقاصد، وبفهم المدارك، وضبط المآخذ تتضح مناهج اقتباس الأحكام وتُكشف، ويظهر رونق الفقه ويُعرف، وبقدر الإحاطة بها تتعزز ملكات المجتهدين، وتتسع مداركهم، ويتقوى الفكر النقدي لديهم.

وتحقيقاً للأهداف التي أعدت من أجلها هذه الورقة، وبيانا للقواعد والمقاصد الشرعية الضابطة للفتاوى والأجوبة الفقهية عموماً، وفتاوى جائحة كورونا خصوصاً، تم اصطفاة فتاوى نازلة كثر الحديث عنها خلال هذه الأزمة، واحتدم الخلاف الفقهي فيها بشكل جلي، بين متشدد ومعتدل، تعنى هذه الفتاوى بحكم إغلاق المساجد، ومنع إقامة الجمع والجماعات فيها؛ بسبب وباء كورونا المستجد "كوفيد-19".

وقد ارتأيت أن أصدر الكلام عن القواعد الشرعية الضابطة لهذه الفتاوى بمسائل تقوم مقام التأسيس لبنانها؛ أتناول فيها- على جهة الاختصار- جملة من المقدمات الضرورية التي تروم التأصيل لنوازل هذه الجائحة العالمية، ولأشباهاها من النوازل الفقهية، الغرض بهذا لفت الانتباه إلى الطرق التي يسلكها الفقهاء في بحث مختلف مكنوناتها، والكشف عن مسالكهم في استجلاء أحكامها، وتقرير أدلتها وقواعدها، رجاء أن يسهم في إثراء حركة تأصيل فقه الأزمات عموماً، وتقعيد الفروع المرتبطة بنوازل الأوبئة والطوارئ خصوصاً. فأقول وبالله التوفيق، ومنه نستمد العون والهداية.

أولاً: إن الله تعالى في كل نازلة حكماً معيناً: فقد انعقد الإجماع على أن ما من نازلة تنزل، أو حادثة تعنّ إلا والله تعالى فيها حكم خاص، يدرك بالنص أو بالاستدلال... قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾¹ وقال سبحانه: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾² فأدلة الأحكام "كلها

1 - سورة الأنعام، الآية 39.

2 - سورة النحل، الآية 89.

في الكتاب: إما في إشارته، أو في دلالته، أو في اقتضائه، أو في نصه³ وتلك سمة من سمات الشريعة الكاملة الخالدة.

فقد قرر الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أنه: "ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة، إلا وفي كتاب الله تعالى الدليل على سبيل الهدى فيها"⁴.

وبه يعلم أن هذه الشريعة المباركة قائمة على الأدلة والحجج والبراهين؛ فما من حكم شرعي منوط بفعل من أفعال المكلفين، أو بتصرف من تصرفاتهم إلا وله دليل شرعي يدل عليه، أو أمانة ترشد إليه، إما بصريح النص، وإما بضرب من الاجتهاد المحقق لمفاهيم الشرع، والمسترشد بأصوله ومبادئه، والراعي لحكمه ومقاصده، وفي هذا إقرار بكمال الشريعة وصلاحها لكل زمان ومكان، مصداقا لقوله عز وجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾⁵.

ثانيا: إن بيان حكم النازلة الفقهية لا يتأتى إلا بنوعين من الفهم:

- أحدهما: فهم الواقع، وإدراك معطيات النازلة وحيثياتها.
- والثاني: فهم الواجب في ذلك الواقع، وهو فهم حكم الله تعالى الذي نص عليه في كتابه، أو على لسان رسوله، ثم تنزيل حكم الله على هذا الواقع، أو على تلك النازلة.

فقد قال ابن القيم: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم، أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر... فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله، كما توصل شاهد يوسف بشقّ القميص من دبر إلى معرفة براءته وصدقه.

3 - أصول السرخسي، ج 2 ص 220.

4 - الرسالة، ص 20.

5 - سورة المائدة، الآية 4.

ومن تأمل الشريعة وقضايا الصحابة وجدها طافحة بهذا، ومن سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم»⁶.

وبه يعلم أن معرفة الأحكام الشرعية للوقائع المستجدة أمر يحتاج إلى فقه دقيق ونظر عميق.

ثالثا: إنه لا غنى عن القواعد الشرعية لمن يتصدى للفتوى؛ إذ هي الأدوات التي لا تستقيم الفتوى إلا بتمام إدراكها، ولولا القواعد الشرعية لاستعصى فهم أدلة الأحكام، وإدراك عللها ومناطاتها، وتعذر الكشف عن مقاصد الشريعة ومحاسنها، بل لولا هذه القواعد ما أدركنا من الشريعة قليلا ولا كثيرا؛ فإن فهم الشرع وإثباته بغير أدلته وقواعده مجرد اتباع للهوى وارتكانٍ للتشهي⁷. وقد جعل تاج الدين السبكي من أهم وأولى ما ينبغي أن يُعنى به المفتي، ويجعله دأبه الذي يُعيدُه ويُبدِئُه: إحكام القواعد، وتبيين مسالك النظر، ومدارك المعاهد، وإدراك اختلاف المآخذ، واجتماع الشوارد⁸.

رابعا: إنه لا ينكر تغير الفتاوى بتغير الأزمان والأحوال؛ لذلك اشترطوا في المفتي أن يكون عارفا بأحوال الناس وأعرافهم؛ لكي يتمكن من تحقيق المناط، والربط بين الحكم الشرعي وواقع الناس، فلا يمكنه الإفتاء إلا إذا كان ملما بأحوال وأعراف ونوايا المستفتي...

وقالوا في شأن تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد: "لا بد أن تكون تلك الأحكام المسنونة بحال تشهد لها قواعد الشرع بالاعتبار، أو أن تكون بحال إذا لم تشهد لها بالاعتبار لا تشهد عليها بالإبطال؛ كأن تكون من المصالح المرسلة، وهي التي لم يشهد الشرع باعتبارها ولا بإلغائها، ولو حظ فيها جهة منفعة... كما وقع لسيدنا الصديق في

6 - إعلام الموقعين، ج 1 ص 87 - 88.

7 - تراجع: القواعد الفقهية والأصولية دراسة تأصيلية لكاتب هذا المقال، ص 4 - 5.

8 - قال رحمه الله تعالى: "حق على طالب التحقيق ومن يتشوق إلى المقام الأعلى في التصور والتصديق، أن يُحكم قواعد الأحكام ليرجع إليها عند الغموض، وينهض بعبء الاجتهاد أتم نهوض، ثم يؤكد بها بالاستكثار من حفظ الفروع؛ لترسخ في الذهن ثمرة عليه بفوائد غير مقطوع فضلها ولا ممنوع.

أما استخراج القوى، وبذل المجهود في الاقتصار على حفظ الفروع من غير معرفة أصولها، ونظم الجزئيات بدون فهم مأخذها، فلا يرضاه لنفسه ذو نفس أبيّة، ولا حامله من أهل العلم بالكلية...

وإن تعارض الأمران وقصر وقت طالب العلم عن الجمع بينهما - لضيق أو غيره من آفات الزمان - فالرأي لذي الذهن الصحيح الاقتصار على حفظ القواعد، وفهم المآخذ "الأشبه والنظائر لابن السبكي: ج 1 ص 10 - 11.

توليته عهد الخلافة لعمر رضي الله عنهما، وكترك الخلافة شورى بين ستة، وكتدوين الدواوين، وضرب السكة، واتخاذ السجون، وغير ذلك كثير مما دعا إلى سنّه تغير الأحوال والأزمان⁹.

خامسا: إن الأصل في الفتاوى رعاية مصالح العباد وتحقيق منافعهم؛ فمتى توفرت شروط العمل بالمصلحة، ينبغي الرجوع إليها، وإجراء الاجتهاد والفتوى على أساسها؛ فهي مدخل ضروري، مرشد إلى حل العديد من مشاكل عصرنا، وتحقيق مقاصد خالقنا، وجلب منافعنا، ودفع المفاسد عنا.

وفي ذلك يقول الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: « هذا فصل عظيم النفع جدا، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه، ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها... »¹⁰.

بعد هذا التصدير ننتقل للحديث عن فتاوى منع الجمع والجماعات في المساجد بسبب تفشي وباء كورونا المستجد، هذه الفتاوى التي تنضاف إلى غيرها من القرارات والبيانات الجماعية الصادرة عن هيئات الإفتاء ومؤسساته المعتمدة في العالم الإسلامي، والتي نصت على وجوب إغلاق المساجد، وتعليق إقامة الصلوات بها - وذلك ضمن الإجراءات والتدابير الاحترازية، والتوجيهات العامة المتخذة حيال نازلة الوباء - إلى أن يأذن الله برفع البلاء، وصرف الوباء.

وقد خاض في هذه النازلة صنفان من العلماء، صنف يميل إلى القول بالمنع من إقامة الجماعات والجمعات في زمن الوباء، وصنف يميل إلى الجواز، فذهب الفريق الأول إلى الدعوة لتعليق الجمعة والجماعات في المساجد حتى تنجلي الغمة، وقال فريق آخر بوجوب فتح المساجد؛ لإقامة الجمع والجماعات، مع اتخاذ جميع التدابير الوقائية من انتشار الوباء وتفشيته.

وقد أفتت بالرأي الأول عدة هيئات ومؤسسات علمية معتبرة منها: المجلس العلمي الأعلى للمملكة المغربية الشريفة، والاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، والأزهر الشريف، وهيئة كبار العلماء

9 - شرح القواعد الفقهية للزرقاء، ص 174، ويراجع: معين الحكام، الفصل الثاني في القسم الثالث من الكتاب.

10 - إعلام الموقعين، ج 3 ص 14.

السعوديين، ولجنة الفتوى بالكويت، وغيرها. كما أخذت بالرأي الثاني هيئات علمية معتبرة أخرى منها: رابطة علماء المغرب العربي، ودار الإفتاء الليبية، والمجلس الإسلامي بأمريكا الشمالية، والمشيخة الإسلامية بالبوسنة، وهيئة الفتوى بـماليزيا، وغيرها...¹¹.

وفيما يلي عرض لثلاثة نماذج من الفتاوى التي دعت إلى إغلاق المساجد، وسوغت تعليق الجمع والجماعات فيها مؤقتاً¹²، وهي في عمومها دالة على كثير سواها من الفتاوى التي وردت مؤكدة لمعانها، أقدمها ليسهل تناوئها على طالبها، وتحفّ مطالعتها على راغبها.

وقد صدرت أولى هذه الفتاوى عن المجلس العلمي الأعلى للمملكة المغربية الشريفة، والثانية عن هيئة كبار العلماء بالسعودية، وصدرت الثالثة عن هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، ومن الله التوفيق والتسديد.

أولاً: فتوى المجلس العلمي الأعلى للمملكة المغربية الشريفة بإغلاق المساجد مؤقتاً، سواء بالنسبة للمصلوات الخمس أو صلاة الجمعة، الصادرة يوم الاثنين 16 مارس 2020: "الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين وعلى آله وصحبه الأكرمين:

• بناء على طلب الفتوى الموجه إلى المجلس العلمي الأعلى من أمير المؤمنين، حفظه الله، وهو الذي تشهد الأمة على رعايته لبيوت الله وتعلقه بها وحرصه على الزيادة منها وفتحها للمصلين؛

• ونظراً للضرر الفادح الناجم عن الوباء الذي يجتاح العالم؛

• واعتباراً لما صدر من توجيهات من الجهات المختصة، بما فيها وزارة الصحة، بهدف الحرص على الوقاية من الفيروس بإغلاق أماكن عمومية وخصوصية؛

• واستلهاماً من نصوص الشرع التي تؤكد على ضرورة حفظ الأبدان، وعلى تقديم دفع المضرة على جلب المصلحة؛

• وعلماً بأن من شروط الصلاة، ولاسيما في المساجد، حصول الطمأنينة، وحيث إن الخوف من هذا الوباء ينتفي معه شرط الطمأنينة.

11 - تراجع: الورقة العلمية التي أعدها الأئمة والمشايخ: عبد الله ولد أمين، ومحمد يسلم ولد محفوظ، ومحمد سالم ولد دودو في موضوع: "مناقشة فقهية لمسوغات تعليق الجمعة" وسلمت لوزير الشؤون الإسلامية والتعليم الأصلي بموريتانيا.

12 - وقد تكون لنا عودة لبيان القواعد التي أسست عليها فتاوى المجوزين لفتح المساجد، وإقامة الجمع فيها والجماعات في زمن هذا الوباء، إذا كانت هناك فسحة لذلك.

لكل هذه الاعتبارات الشرعية والعقلية الاحترازية؛ فإن الهيئة العلمية للإفتاء بالمجلس العلمي الأعلى تفتي بما يلي:

- ضرورة إغلاق أبواب المساجد سواء بالنسبة للصلوات الخمس أو صلاة الجمعة، ابتداء من هذا اليوم الاثنين 16 مارس عام 2020م الموافق لـ 21 رجب 1441هـ؛
 - طمأنة المواطنين والمواطنات بأن هذا الإجراء لن يستمر. وستعود الأمور إلى نصابها بإقامة الصلاة في المساجد بمجرد قرار السلطات المختصة بعودة الحالة الصحية إلى وضعها الطبيعي؛
 - وجوب استمرار رفع الأذان في جميع المساجد.
- حفظ الله مولانا أمير المؤمنين، وأبقاه حاميا لدين الأمة، حريصا على نفوسها من جميع أنواع التهلكات

والسلام.

الإمضاء: محمد يسف الأمين العام للمجلس العلمي الأعلى¹³.

ثانيا: قرار هيئة كبار العلماء بالسعودية رقم: (247) الصادر في 1441/07/22هـ.

ومما ورد فيه: "وقد استعرضت هيئة كبار العلماء النصوص الشرعية الدالة على وجوب حفظ النفس، من ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾¹⁴، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾¹⁵.

وهاتان الآيتان تدلان على وجوب تجنب الأسباب المفضية إلى هلاك النفس، وقد دلت الأحاديث النبوية على وجوب الاحتراز في حال انتشار الوباء كقوله صلى الله عليه وسلم: (لَا يُورَدُ مُرَضٌّ عَلَى مُصِحٍّ)¹⁶ وقوله صلى الله عليه وسلم: (فِرٌّ مِنَ الْمُجْدُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ)¹⁷ وقوله صلى

13 - تراجع: الموقع الرسمي للمجلس العلمي الأعلى للمملكة المغربية الشريفة.

14 - سورة البقرة، الآية 194.

15 - سورة النساء، الآية 29.

16 - متفق عليه.

17 - مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، رقم الحديث 9722.

الله عليه وسلم: (إِذَا سَمِعْتُمُ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا)¹⁸.

وقد تقرر في قواعد الشريعة الغراء أنه: (لا ضرر ولا ضرار). ومن القواعد المتفرعة عنها: (أن الضرر يدفع قدر الإمكان)...¹⁹.

ثالثاً: بيان هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف في شأن جواز إيقاف صلوات الجمع والجماعات حمايةً للناس من فيروس كورونا. ومما ورد فيه: "... ولما كان من أعظم مقاصد شريعة الإسلام حفظ النفوس وحمايتها ووقايتها من كل الأخطار والأضرار. فإن هيئة كبار العلماء - انطلاقاً من مسؤوليتها الشرعية - تحيط المسؤولين في كافة الأرجاء علماً بأنه يجوز شرعاً إيقاف الجمع والجماعات في البلاد؛ خوفاً من تفشي الفيروس وانتشاره والفتك بالبلاد والعباد.

كما يتعين وجوباً على المرضى وكبار السن البقاء في منازلهم، والالتزام بالإجراءات الاحترازية... وعدم الخروج لصلاة الجمعة أو الجمعة؛ بعد ما تقرر طبيًا، وثبت من الإحصاءات الرسمية انتشار هذا المرض وتسببه في وفيات الكثيرين في العالم، ويكفي في تقدير خطر هذا الوباء غلبة الظن والشواهد: كارتفاع نسبة المصابين، واحتمال العدوى، وتطور الفيروس.

فالمحققون من العلماء متفقون على أن المتوقع القريب كالواقع، وأن ما يقارب الشيء يأخذ حكمه، وأن صحة الأبدان من أعظم المقاصد والأهداف في الشريعة الإسلامية.

والدليل على مشروعية تعطيل صلاة الجمعة والجماعات وإيقافها؛ تلافياً لانتشار الوباء: ما روي في الصحيحين: (أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ قَالَ لِمُؤَذِّنِهِ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ: إِذَا قُلْتَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَلَا تَقُلْ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قُلْ: صَلُّوا فِي بُيُوتِكُمْ، فَكَأَنَّ النَّاسَ اسْتَنْكَرُوا، قَالَ: فَعَلَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، إِنَّ الْجُمُعَةَ عَزْمَةٌ [أي واجبة متحتمة]، وَإِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُخْرِجَكُمْ، فَتَمْشُونَ فِي الطِّينِ وَالِدَّحْضِ [الدَّحْضُ بِمَعْنَى الزَّلَقِ])²⁰.

18 - متفق عليه.

19 - يراجع نص قرار هيئة كبار العلماء بالسعودية، رقم: (247) بشأن إيقاف صلاة الجمعة والجماعة لجميع الفروض في المساجد بـ: <https://www.spa.gov.sa/2048662>

20 - صحيح البخاري كتاب: الجمعة باب الرخصة إن لم يُخْضَرِ الجمعة في المطر، رقم الحديث 901، وصحيح مسلم كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب الصلاة في الرحال في المطر، رقم الحديث 699.

فقد دل الحديث على الأمر بترك الجماعات تفادياً للمشقة الحاصلة بسبب المطر، ولا شك أن خطر الفيروس أعظم من مشقة الذهاب للصلاة مع المطر، فالترخص بترك صلاة الجمعة في المساجد عند حلول الوباء، ووقوعه أمر شرعي ومُسلّم به عقلاً وفقهاً، والبديل الشرعي عنها أربع ركعات ظهرًا في البيوت، أو في أي مكان غير مزدحم...

وقد انتهى الفقهاء إلى أن الخوف على النفس أو المال أو الأهل أعذارٌ تُبيح ترك الجمعة أو الجماعة... والخوف الآن حاصلٌ بسبب سرعة انتشار الفيروس، وقوة فتكه، وعدم الوصول إلى علاج ناجع له حتى الآن، ومن ثمّ فالمسلم معذورٌ في التخلف عن الجمعة أو الجماعة...²¹.

فهذه الفتاوى الثلاث مجمعة على حكم إغلاق المساجد، وتجويز التخلف عن الجمع والجماعات حتى يزول الخطر وينجلي الأمر بإذن الله تعالى.

والذي يهمننا منها- في هذا المقام بالذات- هو تبين القواعد الشرعية التي أسست عليها، والأدلة التي استمدت منها، فمعلومٌ أن الفتاوى الفقهية لا تنفك عن أدلة شرعية تبنى عليها، وقواعد تستند إليها؛ إذ إن القول في الدين من غير دليل معتبر يعد من أعظم المحرمات شرعاً، قال تعالى: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾²².

وقد روي عن الإمام أبي حنيفة قوله: (لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعرف من أين قلنا)²³ ومن ثم فلا يحل لمن لم يعرف الأدلة الشرعية وقواعدها المرعية أن يفتي في شرع الله. قال إمام الحرمين: (المفتي من يستقل بمعرفة أحكام الشريعة نصّاً واستنباطاً)²⁴.

إذا علم ذلك، فإن الفتاوى السابقة قد تضافرت على معناها مجموعة من الأدلة التفصيلية والقواعد الشرعية الكلية؛ وطريق الظفر بتلك الفتاوى هو النقل الثابت في القرآن أو السنة، أو الاجتهاد المؤسس على القواعد الشرعية والمقاصد المرعية.

21 - يراجع النص الكامل لهذا البيان بـ <https://www.almasryalyoum.com/news/details/1627045>.

22 - سورة الأعراف، الآية 31.

23 - الجواهر المضية في طبقات الحنفية للقرشي، ج 1 ص 52.

24 - البرهان، ج 2 ص 870.

ونحن في هذه الكلمة الموجزة نروم الاقتصار على بيان أهم القواعد الشرعية التي أقيمت عليها تلك الفتاوى؛ لأنها المقصودة بالبحث، ولأن بسط الكلام عن الأدلة التفصيلية المعتمدة فيها له موضع آخر، قد نخرجنا عما نحن بسبيله.

وعليه، يمكن حصر القواعد العمدة التي تأسس عليها حكم الفتاوى السابقة في القواعد الشرعية الخمس الآتية:

القاعدة الأولى: قاعدة درء المفسد أولى من جلب المصالح.

تعدّ هذه القاعدة من أهم القواعد التي أقيمت عليها فتوى إغلاق المساجد، ومنع حضور الجمع فيها والجماعات، وهي مبنية على مبدأ عام مجمع عليه بين العلماء، وهو أن الشريعة جاءت لجلب المصالح ودرء المفسد في المعاش والمعاد؛ فمن فقه الشريعة "وفهم مقاصد الكتاب والسنة، علم أن جميع ما أمر به لجلب مصلحة أو مصالح، أو لدرء مفسدة أو مفسد، أو للأمرين. والشريعة طافحة بذلك"²⁵.

ولا يخفى على عاقل "أن تحصيل المصالح المحضة، ودرء المفسد المحضة عن نفس الإنسان، وعن غيره محمود حسن، وأن تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمود حسن، وأن درء أفسد المفسد فأفسدها محمود حسن، وأن تقديم المصالح الراجحة على المرجوحة محمود حسن"²⁶. ولا يحيد عن هذا النهج إلا جاهل بالصالح والأصلح، والفساد والأفسد، أو متجاهل لما بين المرتبتين من التفاوت.

والمراد بدرء المفسد: رفعها وإزالتها؛ لما يترتب عليها من ضرر جسيم ينافي حكمة الشارع من تشريع الأحكام، ويعارض مقاصده في رعايته مصالح العباد. ففحوى هذه القاعدة أن دفع المفسدة مقدم على جلب المنفعة عند التعارض؛ فإذا اقترنت المفسدة بالمنفعة وجب إزالة المفسدة قبل تحصيل المنفعة؛ لأن في دفع المفسدة تحصيل منفعتين في الواقع، وذلك لأن وجود المفسدة يؤثر تأثيراً سلبياً على تحصيل المنفعة، وقد قالوا: "التخلية قبل التحلية" أي إزالة العقبات من طريق جلب المنفعة

25 - قواعد الأحكام، ج 1 ص 46.

26 - المصدر السابق، ج 1 ص: 4.

مقدم عليها، حتى يتسنى الانتفاع بالشيء على الوجه الأتم، ولهذا شرعت الطهارة - وهي تخلية البدن من الأخباث والأحداث - قبل إقامة الصلاة.

وعليه، فإن دفع المفسدة المترتبة عن فتح المساجد في زمن جائحة كورونا، المتمثلة في مظنة نقل عدوى الجائحة بين المصلين، وتهديد أرواحهم، أولى من جلب مصلحة إقامة شعيرة الصلاة جماعة في المساجد.

فما دامت المفسدة المترتبة عن حضور الجُمُوع والجماعات بسبب انتشار عدوى الوباء أعظم من المصلحة المترتبة عن إقامتها في المساجد، وجب تقديم دفع المفسدة، وإن استلزم ذلك تفويت المصلحة؛ لأن اعتناء الشارع بالمنهيات أكثر من اعتناؤه بالمأمورات. ومثل هذه القاعدة قولهم: إذا تعارض المانع والمقتضي يُقَدِّم المانع، إلا إذا كان المقتضي أعظم. والمراد بالمقتضي هنا: الأمر الطالب للفعل؛ فوجود المانع يمنع من الفعل غالباً.

ثم إن دفع المفسدة قُدِّم على جلب المنفعة في نازلتنا لحكمة أخرى حاصلها: أن المفسدة إذا لم تدفع في أول أمرها ربما تفاقم أمرها، وأدت إلى مفسدة أو إلى مفاسد أخرى أعظم وأكبر، لذلك كانت عناية الشرع بدرء المفاسد أشدَّ من عنايته بجلب المصالح، إلا إذا كان في درء المفسدة جلباً لمفسدة أعظم منها، فيلغى التقديم حينئذ.

يقول العز بن عبد السلام رحمه الله: "إذا اجتمعت مصالح ومفاسد فإن أمكن تحصيل المصالح ودراء المفاسد فعلنا ذلك؛ امتثالاً لأمر الله تعالى فيهما لقوله سبحانه وتعالى ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾²⁷، فإن تعذر الدراء والتحصيل، وكانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة ولا نبالي بفوات المصلحة...²⁸ فالشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان. "وعلى هذا تتخرج جميع الأحكام عند تعارض المصالح والمفاسد فيها أو عند تجردها"²⁹.

27- سورة التغابن، الآية 16.

28- قواعد الأحكام في مصالح الأناس، ج 9 ص: 98.

29- شرح مختصر الروضة، ج 3 ص 217.

فإذا ثبت أن عناية الشرع بدرء المفساد أشد من عنايته بجلب المصالح³⁰ فلا غرابة أن تستند الهيئات والمؤسسات العلمية في تقرير فتاواها- في شأن نازلتنا- على هذه القاعد الشرعية المركزية.

ولهذه القاعدة تجليات كثيرة، ولها ارتباط وثيق بقواعد رفع الضرر وإزالة المفساد والمضار في الشريعة الإسلامية؛ فهي تتقاطع معها في كثير من تطبيقاتها الفقهية، وتجلياتها العملية، كما سيتضح من خلال القاعدة الشرعية الثانية التي بُنيت عليها فتوى جواز إيقاف صلوات الجُمع والجماعات.

القاعدة الثانية: هي من جوامع كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي خرجت من خرج القواعد الفقهية، وهي قوله عليه السلام: "لا ضرر ولا ضار"³¹.

فهذا الحديث يعتبر أصلاً لجميع قواعد إزالة الضرر ودفع المضار في الشريعة الإسلامية، فهو يشمل المنع من إيقاع الضرر ابتداءً، ومن مقابلة الضرر بضرر مثله انتهاءً. ونفي الضرر والضرار هنا يعني: حرمة إلحاقه مطلقاً من أي أحد بأي أحد، والمنع يشمل جميع أنواع الضرر؛ لأن النكرة في سياق النفي تعم. كما يقرر من جهة أخرى، منع وقوعهما من الشارع؛ فإن الله لا يأمر العباد بشيء هو ضارّ لهم.

ويتفرع عنه ما لا حصر له من المسائل والفروع؛ فقد اعتبره بعضهم متضمناً لنصف الفقه؛ لأن الأحكام إما لجلب المنافع والمصالح، أو لدرء المضار والمفاسد، وكل ما هو متعلق برفع الضرر وإزالته في الشريعة الإسلامية متفرع عنه.

وقد أجمع العلماء على أن "الضرر يزال" فإذا تحقق وجود الضرر وجبت إزالته في جميع الأحوال، انطلاقاً من أنه المقصد الأول، والهدف الأسمى الذي جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيقه؛ فجلب المنفعة، وقطع المضرة هو الغاية من هذه الرسالة، بل هو الغاية من جميع الرسائل السماوية.

من هذا المنطلق قرر العلماء في نازلتنا تعليق حضور الجمع والجماعات؛ وذلك لما قد يتحصل من الضرر بالاجتماع- الذي هو مظنة نقل العدوى- ولما قد يلحقه ذلك الحضور ويفضي إليه من

30 - يعتبر المالكية سادات الاستدلال بالاستصلاح؛ حيث جعلوا المصالح المرسلّة من بين أهم أصولهم الفقهية، كما يعتبر المذهب المالكي أوسع المذاهب عناية بفقه المصالح والمفاسد.

31 - أخرجه مالك في الموطأ في الأقضية، باب القضاء في المرفق، رقم الحديث 33.

إضرار بالنفس؛ فأفتوا بجواز ترك صلاة الجماعة في المساجد؛ تجنباً لخطر هذا الوباء الذي قد يؤدي بأرواح المصلين، بناء على ما تقرر في قواعد الشريعة الغراء من أن الضرر يزال، ويدفع قدر الإمكان.

القاعدة الشرعية الثالثة: النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً. بمعنى اعتبار ما تفضي أو تؤول إليه أفعال المكلفين وتصرفاتهم؛ فإذا كانت مفضية إلى مفسدة ظاهرة، أو مؤدية إلى مناقضة مقصد شرعي فهي باطلة مردودة.

والأدلة على هذه القاعدة ثابتة بالكتاب والسنة، ويعمل الصحابة رضوان الله عليهم، يمكن - لمن أراد التفصيل - الرجوع إليها في مظانها من كتب الفقه وأصوله.

وقد اهتم العلماء بموضوع المآلات، واعتبروا النظر فيها شرطاً ضرورياً في عمليات الاجتهاد والإفتاء. قال الإمام الشاطبي: "النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل"³².

وتمس هذه القاعدة مختلف نتائج تصرفات المكلفين، وما تفضي إليه أفعالهم. وفائدة الأخذ بها تتجلى في معرفة مدى موافقة أو مخالفة الأعمال للمقاصد المتوخاة من تشريع الأحكام، وذلك ضماناً للتطبيق السليم لمقتضياتها؛ إذ لا يعتبر منها إلا ما كان موافقاً لقصد الشارع في التكليف، وملائماً لحكمه وغاياته من التشريع.

وقد حصر الإمام الشاطبي النظر في المآلات في خمس قواعد هي: الذرائع، والحيل، ومراعاة الخلاف، والاستحسان، والتحفظ والاحتياط في جلب المصالح، حتى لا يعود ذلك عليها بالإبطال. والذي يهمننا من هذه القواعد على جهة الخصوص قاعدة: الذرائع؛ اعتباراً لتعلقها بنازلتنا، وتحكيمها في فتوى إيقاف صلوات الجمع والجماعات بالمساجد.

وفيما يلي كلمة عن هاته القاعدة المألية، وعن تعلقها بما نحن بصدد:

- قاعدة الذرائع:

الذرائع: هي الوسائل والطرق الموصلة إلى الشيء، مفسدة كان هذا الشيء أو مصلحة، قولاً كان أو فعلاً. غير أن إطلاق اسم "الذرائع" قد غلب على الوسائل المفضية إلى المفسد؛ فإذا قيل: هذا

32 - الموافقات، ج 4 ص 194.

من باب سد الذرائع، فمعنى ذلك: أنه من باب منع الوسائل المؤدية إلى المفساد³³. والذرائع كما عرفها ابن العربي هي: "كل عمل ظاهر الجواز يتوصل به إلى محذور"³⁴.

ومعنى سد الذرائع في اصطلاح الشهاب القرافي: "حسم مادة وسائل الفساد دفعا لها، فمتى كان الفعل السالم عن المفسدة وسيلة للمفسدة منع مالك ذلك الفعل"³⁵.

وتنقسم الذرائع بحسب ما تفضي إليه ثلاثة أقسام: قسم أجمعت الأمة على سده، وقسم على عدم سده، وقسم مختلف فيه. فما كان إفضاؤه إلى المفسدة قطعاً: فهو مجمع على سده، وذلك كوضع السم في الطعام أو الماء الذي يُعلم أن الغير سيقنات منه، فإن هذا من قبيل الذرائع التي يُقطع أنها ستؤدي إلى مفسدة محققة، لذلك اتفق العلماء على تحريمها.

وما كان إفضاؤه إلى المفسدة نادراً: وهو الصفة الغالبة على جميع الأشياء المباحة، فهذا النوع مال الأكثرون إلى عدم سده، وذلك مثل حفر بئر بموضع لا يؤدي غالباً إلى وقوع أحد فيه؛ لأن منفعة الناس بماء البئر حاصلة مؤكدة، أما ضرره على الغير فهو قليل نادر.

وأما ما كان إفضاؤه للمفسدة غالباً لا نادراً: فهو محل خلاف بين الفقهاء³⁶، وتعتبر فتاوى إغلاق المساجد ومنع الجمع والجماعات في زمن الوباء المستجد من أمثلة هذا القسم؛ فقد تقرر طبيّاً، وثبت من الإحصاءات الرسمية أن عدم التزام ما يعرف بـ: "الحجر الصحي" و"التباعد الاجتماعي" الذي فرضته الجائحة من أهم الأسباب الداعية - في الغالب - إلى انتشار هذا الوباء الفتاك. لذلك بات لزاماً ترك مسافة آمنة بين شخصين أو أكثر للوقاية من عدواه، والحيلولة دون انتشاره، والتقليل من عدد وفياته ومصابيه في العالم. وهذا مما لا يتأتى مع تراص صفوف المصلين في المساجد.

وتأسيساً على قاعدة سد الذرائع هاته، ودفعاً للضرر المتوقع من انتشار الوباء، وسداً لأبواب المفسدة، مُنعت - بصفة مؤقتة - إقامة الجمع والجماعات في المساجد، وذلك في تفاعل مع مقررات الجهات الطبية المختصة، والإجراءات الوقائية والاحترازية المتخذة في سبيل درء ما قد تفضي إليه

33 - الوجيز في أصول الفقه، ص 245.

34 - أحكام القرآن، ج 2 ص 798.

35 - الفروق، ج 2 ص 32، وقال الشاطبي في موافقاته: قاعدة الذرائع التي حكمها مالك في أكثر أبواب الفقه حقيقتها "التوصل بها هو مصلحة إلى مفسدة".³⁵.

36 - يراجع: شرح تنقيح الفصول، ص 448، ومقدمة في أصول الفقه، ص 104 - 105.

الصلاة الجماعية داخل المساجد من مفسدة محتملة، وما قد تؤول إليه العبادات الجماعية من مضرة متوقعة، ويكفي في تقدير خطر هذا الوباء غلبة الظن، وشواهد الحال.

فهذه الفتوى تكشف عن الدور الوقائي لسد الذرائع؛ إذ يُنظر إلى مآلات الأفعال ونتائج تصرفات الإنسان، فإذا ترتبت عليها مفسدة أو مضرة، فإنه يمنع من الفعل ابتداءً؛ توقيا من وقوع الضرر، وقطعا لأسبابه البعيدة المحتملة الوقوع.

وعليه، فإذا كانت المصلحة متوقعة، كانت الذريعة أو الوسيلة مطلوبة شرعا، وإن كانت المفسدة أو المضرة غالبية كانت الذريعة ممنوعة شرعا؛ لأن المصلحة مطلوبة، فيكون ما يؤدي إليها مطلوباً، والمفسدة ممنوعة فيكون ما يؤدي إليها ممنوعاً، حتى لو كان القصد حسناً، والنية صالحة.

يقول الإمام الشاطبي: "يكون العمل في الأصل مشروعاً، لكن يُنهى عنه لما يؤول إليه من مفسدة"³⁷ لذلك بات لزاماً على المجتهد أن لا يحكم على "فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام، إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل"³⁸.

القاعدة الشرعية الرابعة: حفظ الأبدان من أعظم مقاصد الإسلام.

لقد جاءت شريعة الإسلام بأحكام وافية لحفظ الضروريات التي عليها تقوم حياة الناس، وعليها يتوقف وجودهم في الدنيا، بحيث لو فُقدت لعمت فيهم الفوضى، وتعرض وجودهم للخطر والدمار. ولرعاية هذه المقاصد الضرورية، واستدامة حفظها سلكت طريقين أساسيين:

- أولاً: وَضَعَت الأحكام الشرعية التي تؤمّن وجود هذه الضروريات، والتي تقيم أركانها، وتكفل تحقيق المنافع منها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.
- ثانياً: وضعت الأحكام الشرعية التي تحفظها، وتصونها من الضياع، وتحميها من أسباب الفساد والزوال، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم.³⁹

37 - الموافقات، ج 4 ص 198.

38 - المصدر السابق، ج 4 ص 194.

39 - «فأصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من جانب الوجود؛ كالإيمان، والنطق بالشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وما أشبه ذلك. والعبادات راجعة إلى حفظ النفس والعقل من جانب الوجود أيضاً؛ كتناول المأكولات والمشروبات،==

ويعدُّ حفظ الأبدان من أعظم المقاصد في الشريعة الإسلامية؛ فرعاية النفس أمر مطلوبٌ ومقصود، وإلحاق المفسدة بها أمر منهى عنه وغير مقبول شرعاً؛ لأن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها.

ولما كان من أعظم مقاصد الشريعة حفظُ النفوس وحمايتها، فقد شرع الإسلام لحفظها ووقايتها أحكاماً في مختلف أبواب العبادات والعادات، والمعاملات، والعقوبات، وحرّم كل ما من شأنه أن يعرضها للأخطار والأضرار.

وقد جاءت الفتوى بإغلاق المساجد، ومنع حضور الجمع والجماعات من الإجراءات الاحترازية المؤسسة على قاعدة حفظ نفوس المصلين من الهلاك، اعتباراً لما قد يترتب عن انتشار الوباء من إزهاق للأرواح. فقد ثبت بحسب تقارير الأطباء أن هذا الوباء يؤدي إلى العدوى، وإلى الموت والهلاك؛ ما لم تكن هناك تدابير احترازية شاملة.

ووجه المصلحة بالنسبة للمكلف في حكم إغلاق المساجد زمن كورونا هو الحفاظ على النفس من العدوى الحاصلة بالتزاحم بين المصلين، وتراص صفوفهم.

ثم إن هذه الفتوى في نازلتنا تحقق مصلحتين مقصودتين: مصلحة الحفاظ على الدين، وأيضاً مصلحة الحفاظ على النفس؛ لأن الأنفس إذا ضاعت وهلك الدين. فهي بهذا تحفظ مقصدين ضروريين من مقاصد التشريع الإسلامي هما: كلي حفظ النفس، وكلي حفظ الدين في آن واحد.

القاعدة الشرعية الخامسة: أن ما قارب الشيء يعطى حكمه.

وردت هذه القاعدة لدى فقهاء المالكية وجمهور الشافعية بصيغ استفهامية متنوعة دالة على الخلاف فيها مثل قولهم: "ما قارب الشيء هل يعطى حكمه؟". غير أن الذي تدل عليه كثرة دورانها في كتب الفقه هو اعتمادها في شتى المذاهب، والاستناد إليها فيما لا يحصى من الفروع الفقهية، مما دعا بعض الباحثين إلى اعتبارها أصلاً ثابتاً مستقراً، ولو تُنزع في بعض تطبيقاته وشروطه.⁴⁰

== والملبوسات، والمسكنات، وما أشبه ذلك. والمعاملات راجعة إلى حفظ النسل والمال من جانب الوجود... والجنايات: ويجمعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ترجع إلى حفظ الجميع من جانب العدم» الموافقات، ج 2 ص 8-9.

40 - تراجع: القاعدة رقم 344 في معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية، ج 8 ص 431 - 432.

تقرر هذه القاعدة مبدأً شرعياً عملياً يُرجع إليه في تخريج عدد لا يحصى من المسائل والنوازل الجديدة وهو: إعطاء الشيء المقارب نفس حكم ما قاربه؛ بناءً على أن المتوقع القريب كالواقع، وأن الأصول مبنية على أن القليل تبعٌ للكثير، وأن ما كان احتمال حصوله أقوى من عدمه، فهو كالحاصل الثابت الوقوع؛ لأن الغالب عندهم كالمحقق.

فهذه القاعدة من بين القواعد التي استُمدت منها فتوى جواز تعطيل الجمع والجماعات في الجوامع والمساجد؛ إذ الغالب على الظن بحسب التقارير الطبية، والمعلومات الرسمية حول الوباء المستجد بأن التجمع أياً كان في المساجد أو في الأسواق أو في الملاعب أو في مثيلاتها من الفضاءات العامة علةٌ لانتشار "الفيروس بين المجتمعين"، وأن عدم التباعد الاجتماعي أو الجسدي بين الأشخاص من أكثر الأسباب المؤدية في الغالب الأعم إلى تفشي العدوى، ونقلها إلى مخالطيهم. ولهذا كان لزاماً على المسلم أن يجتنب إيقاع الضرر بنفسه وبأهله أو بغيره، وأن يحول دون انتقال العدوى بين الناس.

ومن المعلوم أن الإسلام لم يحرم شيئاً إلا أحلَّ خيراً منه، مما يسدّ مسده ويغني عنه؛ فقد أسقط الشرع الطهارة بالماء عن المريض أو الخائف من حدوث المرض المتوقع، أو زيادته واستفحاله، وفي المقابل أباح التيمم. وأسقط الصيام عن العاجز والمريض مرضاً مزمناً، ورخص للمسافر والحامل والمرضع الإفطار في رمضان، إلى غير ذلك من الأحكام الدالة على مرونة الشريعة ويسر تكاليفها وأحكامها.

وكذلك الشأن في نازلتنا حيث تحقق أو غلب على الظن وجود وباء تتعذر بسببه صلاة الجمعة، وكذا صلاة الجماعة، ولا نضمن معه عدم انتشاره، ويكفي في تقدير خطر هذا الوباء غلبة الظن والشواهد: كارتفاع نسبة المصابين، واحتمال العدوى، وتطور الفيروس، فلا مساغ لأن يشعر المرء بالإثم إذا صلى في غير المسجد، وإنما يفوته فضل صلاة الجماعة.

وبالبدل الشرعي عن الجمعة أربع ركعات ظهرًا في البيوت، أو في أي مكان طاهر آمن، غير مزدحم؛ إذ إن الخوف على النفس أو الأهل أو الجماعة أَعذارٌ تُبيح ترك الجمعة والجماعات، والخوف الآن حاصل ثابت بسبب سرعة انتشار الفيروس، وقوة فتكه، وعدم الوصول إلى علاج ناجع له حتى الآن، ومن ثمَّ فالمسلم معذورٌ في التخلف عن الجمع والجماعات.

وبهذا يتبين وجهُ شمول قاعدتنا لفتوى إغلاق المساجد، وتجويز منع الجمع والجماعات، ودخولها في عموم مسائلها الفقهية وتطبيقاتها العملية؛ ما دام الاجتماع للصلاة في المساجد عند حصول اليقين أو غلبة الظن سيعرض المصلين للهلاك أو للضرر الجسيم، مع ما يترتب على اعتبار هذه القاعدة من التيسير ورفع الحرج، والتوسعة على المكلفين. قال تعالى: «هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج»⁴¹، وقال جل شأنه: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»⁴².

وبعد، فهذا تمام القول في القواعد الشرعية الضابطة لفتوى إغلاق المساجد، وتجويز التخلف عن الجمع والجماعات، وهي إذا تحققها المفتي لم يستطع الاستغناء عنها؛ لاضطراره إلى إعمالها، وبناء الأحكام عليها، فهي كليات لا مناص من تحكيمها في أجوبته عما يعرض للناس من مسائل هذا الوباء، أو غيرها من النوازل والطوارئ التي يناط حكمها بها، بل إن رعاية المجتهد لهذه القواعد لمن العواصم التي تحميه من الجنوح إلى الخطأ والزلل في الحكم والفتوى.

ختاماً أسأل الله الجواد الكريم أن يجعل سعبي مقرباً إليه ومزدلفاً لديه، وألا يجعلني من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

41 - سورة الحج، الآية 76.

42 - سورة البقرة، الآية 184.

التوجيهات الشرعية في زمن الوباء

ذ. إدريس الفاسي الفهري

جامعة القرويين - فاس.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا¹﴾.

وهذه الآية الجليلة في اعتقادي وافية بالغرض فيما نرومه هنا: مفهومها وقضية، غاية ووسيلة، تأصيلا وتفريعا. وهي في نفس الوقت ضمان واف كاف للاستقرار النفسي والاجتماعي، بل وحتى الاقتصادي والسياسي في زمن الوباء.

وليس لكاتب هذه الكلمات مقال قبل هذه الآية ولا بعدها: وكيف يكون له مقال قبلها والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ²﴾! أم كيف يكون له من مقال بعدها والله تعالى يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ³﴾!

فلا يبقى والحالة هاته إلا التحليل والتفصيل، مع ما يوفق الله إليه من التقسيم والتفسير.

وإن قول الله تعالى في الآية صدره: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ﴾ إشارة إلى ما في موضوعها من العموم، وبيان لكون الأمر يتعلق بالحالات الطارئة كما يتعلق بالأحوال المعتادة. فما

1- سورة النساء، الآية: 82.

2- سورة الحجرات، الآية: 1.

3- سورة الحشر، الآية: 7.

نتطرق إليه هنا من خصوص زمن الوباء مشمول بما يأتي على الناس من الأمر المخوف. وفي التنويه بذكره في هذا السياق إشارة إلى أنه مما ينفرد بتوجيهات شرعية خاصة في حال حلوله.

فكان من اللازم علينا بموجب هذه الآية الكريمة أن نستنبط التوجيهات الشرعية في زمن الوباء، وهو ما يقتضي ابتداء تقرير المسلك المنهجي الأقرب إلى السداد في استنباطها.

أولاً: الموجهات المنهجية النظرية للموضوع:

تنطوي في المسلك المنهجي اللازم في الموضوع تفصيلات:

أولها: تفصيل عملي، وهو متعلق بالألفاظ الشرعية التي جاءت في التعبير عن حال الوباء وما يدخل في معناه، مما يحمل توجيهها شرعياً يتعلق بموضوعه. وسنعرض له لاحقاً على حدته.

وفي الثاني والثالث تفصيلات نظرية:

أما الثاني فيظهر ما فيه بالتمييز فيما ينزل بالناس بين ما يُردُّ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يُردُّ منه إلى أولي الأمر. فقد ميزت الآية بينهما كما هو منصوص في قوله تعالى: ﴿ولو ردهو إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم﴾.

وأما الثالث فيتعلق بكيفية ربط كل واحد من هذين النوعين المحددين في الآية بالأوضاع العلمية الاصطلاحية التي تقررت بناء على أنظار علماء أصول الفقه فيما حرروه من القوالب العلمية، والطرق العملية للاستنباط. وقد نصت الآية على ضرورة الالتزام به، وذلكم قوله تعالى: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾.

وما يذكر في هذين التفصيلين النظريين هو من المسلمات الأصولية المقطوع بها في الفقه وأصوله، وما كان لنا أن ندرجه في مادة هذا المقال لولا أن عدداً من المتدخلين بالقول والفعل في هذا الموضوع - كما شهدناه في الأشهر الأخيرة، وخصوصاً عبر ما حدث من وسائل التواصل الاجتماعي - قد تناسوا ما يلزم من التوجيه الشرعي في السلوك المنهجي السديد.

ولذلك فإن ما نذكره في موضوعهما هو على سبيل تقرير المبادئ المسلمة:

فمن ذلك أن الاستدلال الشرعي ينقسم:

- إلى منصوص شرعي وهو المقصود بما يُردُّ إلى الرسول.
- وإلى ما يلحق بالمنصوص على سبيل القياس فيما تبينت علته، وظهرت مناسبته، وهو في معنى ما يُردُّ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.
- وإلى ما هو على سبيل الاستصلاح وغيره من الأدلة التي لا يشترط فيها إلا جلب المصلحة، أو درء المفسدة، مع عدم المعارضة للمنصوص، وهو ما يُردُّ إلى أولي الأمر.
- ومن ذلك أن المقصود بأولي الأمر لا يخرج عن اثنين هما: العلماء، والأمراء:
- فالعلماء يستعملون مختلف أنواع الاستدلال الشرعي، ويربطون الحكم التكليفي فيها بالحكم الوضعي.
- والأمراء ينزلون عند مقتضى النص الشرعي، وما يلحق به مما استنبطه العلماء، ولهم نوع من التصرف خاص فيما يرونه من وسائل جلب المصالح ودرء المفاسد، وهو ما يصطلح عليه بالمصالح المرسلة.
- ومن المشهور أن المصالح المرسلة هي ما لا يشهد له الشرع بالاعتبار ولا بالإلغاء، وتفهم من ذلك مجموعة من الاعتبارات:
- أولها: أن العمل بالمصالح المرسلة هو مرتبة ضرورة فيما لم يرد فيه دليل منصوص، ولا دليل مما يعتبر إلحاقا لغير المنصوص به، كالقياس وغيره.
- وثانيها: أن العمل بالمصالح المرسلة قد يصير مُلغى إذا صادم منصوصا أو ما يلحق بالمنصوص.
- وثالثها: أن من وظائف علم المقاصد الشرعية توجيه المصالح المرسلة وما يلحق بها لتصح نسبتها إلى الشرع.
- ونصل من هذه الاعتبارات إلى تقارير نظرية:
- أولها: أن تطبيق المصالح المرسلة وما يلحق بها من الأدلة مرحلة متأخرة عن تطبيق النصوص الشرعية وما يلحق بها. ولذلك فإنه لا يمكننا أن نصل إلى تطبيق المصالح المرسلة إلا بعد استفراغ الجهد في استنباط النصوص الشرعية المتعلقة بنفس الموضوع.

وثانيها: أن ما يستنبط من النصوص الشرعية وما يلحق بها هو توجيه رباني مباشر في الموضوع.

وثالثها: أن تطبيق المصالح المرسلة لا بد أن يخضع للتوجيه الرباني في الموضوع، وأنه إذا خالف هذا التوجيه لم يعد في حيز المصالح المرسلة وإنما في حيز المصالح الملغاة.

ثانيا: الموجهات المنهجية العملية للموضوع:

إن التفصيل الثالث أي التفصيل العملي المتعلق بالألفاظ الشرعية التي جاءت في التعبير عن حال الوباء وما يدخل في معناه، مما يحمل توجيهها شرعيا يتعلق بموضوعه؛ يظهر من خلال ثلاثة أمور:

أحدها: ما جاء التعبير عنه في القرآن الكريم وحديث النبي عليه الصلاة والتسليم بلفظ أعم من الأوبة الحسية، كالابتلاء والفتنة ونحوها من الألفاظ.

وثانيها: ما جاء بلفظ مساو للأوبة؛ لأنه متلازم معها، كلفظ العدوى مثلا.

وثالثها: ما جاء بلفظ أخص من الوباء، ومن ذلك ما ورد بخصوص الطاعون، والجرب، والجذام، ونحو ذلك.

فلا ينبغي أن نقصر الأخص على ما يتعلق بخصوصه، ولا أن نهمل الأعم اعتبارا لخصوص ما نحن بصده. بل إنه مما يلزمنا في السلوك الاستنباطي السليم أن نعتبر بكل ذلك، وأن نستنبط جميع التوجيهات الشرعية التي يسمح بها لنكون على بصيرة فيما نواجهه بما بصرنا به الشرع الحكيم.

ويعلم من التحليل التفصيلي للعبارات الأعم استنادا على البحث الاستقصائي للاستعمال القرآني لكلمتي الابتلاء والفتنة بأنه يجمع بينهما معنى الاختبار، ويفترقان في الاعتبار:

فباعتبار ما يكون من اختبار الناس بعضهم ببعض يسمى فتنة، قال الله تعالى: ﴿وجعلنا بعضهم لبعض فتنة﴾⁴.

4 - سورة الفرقان، الآية: 20.

وباعتبار ما يكون من اختبار الله تعالى لخلقه يسمى ابتلاء، قال الله تعالى حاكيا عمّن سبق: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾⁵، وقال تعالى خطابا لمن لحق: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾⁶.

وأما على معنى استيعاب الاختلاف، وتضافر الجهود لمواجهة الابتلاءات والفتن وعموم الأزمات فقد خاطب الله تعالى في كتابه نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وخاطب من خلاله عموم المؤمنين بقوله: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾⁷.

ثالثا: التوجيهات الاعتقادية في زمن الوباء:

أول ما تدل عليه النصوص الشرعية الصحيحة الصريحة في موضوع الوباء يتعلق بالجانب الإيماني الغيبي الذي هو عماد الإيمان بالقدر، وهو الذي يورث العبد الرضى والطمأنينة.

وأول واجب المؤمن بشأنها المعرفة بالمبتلي بها سبحانه، وعدله، وفضله، ورحمته، وألطافه بخلقه، وهو ما يعبر عنه بحسن الظن بالله تعالى، ومما ينشد في موضوعه⁸:

أَحْسِنِ الظَّنَّ بِرَبِّ عَوْدَكَ حَسَنًا أَمْسِ وَسَوَّى أَوْدَكَ
إِنَّ رَبًّا كَانَ يَكْفِيكَ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ سَيَكْفِيكَ غَدَكَ

وما ينزل بالعبد من الابتلاءات هي امتحانات يختبرنا الله من خلالها، ويلطف بنا من حيث لا ندري برحمته وألطافه الجارية في خضمها.

5- سورة الكهف، الآية: 7.

6- سورة الملك، الآية: 2.

7- سورة المائدة، الآية: 50.

8- الفرج بعد الشدة، لابن أبي الدنيا: ص. 78.

فعند نزول الفتن والابتلاءات يكون الأوان قد فات لاجتنابها، فلا يبقى للعباد إلا الصبر عليها، قال الله تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا﴾⁹.

وهذا الصبر الموصى به في حال الفتن هو عين الصبر الموصى به في الابتلاءات، قال الله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾¹⁰. والتصور الجامع للخير والشر في مجال الابتلاء، وما يخفى عن الإنسان فيما تسفر عنه الفتن والابتلاءات والوباء هو المناعة الإيمانية التي يتمكن من جرائها المؤمن أن يستقبل صنوف الأقدار بصدر رحب ونفس مطمئنة، فإن العاقبة خفية غير معلومة والعاقبة كما قال تعالى للمتقين.

ولله تعالى في جميع ما قدره رحمة جارية، وألطف سارية. قال ابن عطاء الله السكندري في الحكم: «من ظن انفكاك لطف الله تعالى عن قدره، فذلك لقصور نظره».

وهذا الصبر الذي وصفنا، فيه تفصيل متعلق بالصبر عموما وبالفتن خصوصا.

أما الموصى به في الصبر عموما فهو أن الصبر ليس على الأمر الفائق ولا الهم البائت، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه¹¹ عن أنس رضي الله عنه: «الصبر عند الصدمة الأولى».

وأن من شرط الصبر التجميل فيه، واقتترانه بالرضى وعدم التسخط. وهو قول نبي الله تعالى يعقوب عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾¹². والصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه، ولا تسخط يصحبه، بل قالوا في تعريف الصبر الجميل في هذه الآية وأختها: هو الذي لا تكشير معه، يعني الصبر مع غاية التسليم والرضى.

وأما ما يتعلق بالصبر في الفتن خصوصا فقد ثبت من رواية نعيم بن حماد في كتاب الفتن¹³: حدثنا وكيع عن سفيان عن الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

9 - سورة الفرقان، الآية: 20.

10 - سورة الأنبياء، الآية: 35.

11 - البخاري: كتاب الجمعة، باب زيارة القبور. مسلم: كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى.

12 - سورة يوسف، الآية: 18.

13 - كتاب الفتن، لنعيم بن حماد المروزي، تح: سمير أمين الزهيري، ط. 1، 1412هـ، مكتبة التوحيد، القاهرة: ص. 141، الحديث رقم: 348.

«إن الفتنة إذا أقبلت شبهت وإذا أدبرت أسفرت.» وهذا سند صحيح. ومعناه أن الفتن في أول إقبال لها قد يحصل بشأنها اضطراب واشتباه، ولا يتبين أمرها إلا بعد مرورها وانصرافها. وحينئذ يكون الأوان قد فات لمن لم يستقبلها بما يجب عليه فيها. وهذا أيضا مما يدخل في معنى الحديث السابق أن الصبر عند الصدمة الأولى.

رابعا: التوجيهات العملية في زمن الوباء:

1. توجيهات عملية منصوصة في الشرع:

إن تعلق القلب بمسبب الأسباب، والاطمئنان إلى حكمه، وعدله، وفضله، في كل ما يقع ويُتوقع؛ يتوجب معه على المؤمنين أداء ما تستدعيه مواجهة الوباء من الإجراءات، فالعبد المؤمن مع اطمئنانه إلى مجاري الأقدار لا ينزع يده من اتخاذ الأسباب، والاجتهاد على مقتضى ما بثه في الأكوان من العادات الثابتة والقوانين الكونية. وذلك بالانتهاض لمعالجة أسباب الوباء، والحد من آثاره.

ولعل من أهم ما يتبين منه موافقة مقتضى العقيدة الصحيحة لواجبات العمل المنصوصة، ما وقع في إبان الطاعون على زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحديث متفق عليه¹⁴ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وملخصه أن عمر رجع عن وجهته إلى الشام، لما سمع بتفشي الطاعون فيها، تجنباً للعدوى، وذلك بعد استشارات موسعة. فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفرارا من قدر الله؟! فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله. أرايت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان إحداها خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟! قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف - وكان متغيبا في بعض حاجته - فقال: إن عندي في هذا علما، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه. قال: فحمد الله عمر ثم انصرف.

فقد توافق الرأي الصحيح مع النقل الثابت الصريح على معنى واحد، وهو مراعاة أسباب الوقاية، وأن ذلك لا يقدر في الإيمان بالقدر شيئا.

14- البخاري: كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون. مسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.

2. توجيهات عملية من المصالح المرسلة وما يلحق بها:

إن الموجه العملي للمصالح المرسلة وما يلحق بها في زمن الوباء، ومنها الأوبئة، راجع إلى أمرين مترابطين:

أولهما: كون الحوادث في كل أزمة إنما هي أحوال مستثناة من الأحوال العامة التي تجري في الأوقات الاعتيادية، وذلك ما يجعل من أوقات الوباء داعيا ملجئا إلى الأخذ بالمصالح المرسلة وما يلحق بها.

وذلك ما يسمى في الاستعمال المعاصر بحالة الطوارئ بحيث لا تجري فيها الإجراءات التي تعتمد عليها الدولة على الحال المعتاد نظرا لما يطرأ من ظروف الوباء وما يحدث فيها.

وثانيهما: كون الإجراءات المطبقة في هذه الأحوال المستثناة راجعة إلى مجموعة من الموازنات المحكومة بتراتبية المقاصد الشرعية، يعني تقديم حفظ الضروريات على الحاجيات، والحاجيات على التحسينيات. ويعني استحضار تراتبية الكليات الخمس التي جاءت الشريعة الإسلامية بالمحافظة عليها، وذلك كما في غيرها من الشرائع. ويعني التمييز فيما بينها بحسب جزئيتها وكتلتها.

ويدخل في هذه التراتبية كذلك اعتبار خصوص المصالح وعمومها، وترتيب المصالح فيما بينها، وكذلك ترتيب درء المفاسد على هذا النسق.

ويمكننا أن نمثل لذلك بما شهدناه في مختلف دول المعمور خلال الأشهر الماضية من انتشار هذا الوباء المعروف في الاستعمال العام بلقب كورونا، وذلك بسبب نوع من الفيروسات المتخلقة حديثا، والمسمى في التداول الطبي بكوفيد 19، وهو فيروس يتخذ من جسم الإنسان حاملا مضيفا، وينتقل بانتقال الناس من شخص إلى غيره. ويختلف فتك هذا الفيروس بالجسم باختلاف القدرة المناعية للأجسام، فقد يحمله شخص لا تظهر عليه أعراض مرضية، ولكنه ينقله إلى غيره ممن قد يهلك بسبب تداعياته في جسمه. ويكون انتقاله بسبب رذاذ الأنفاس ولاسيما العطاس وغيره، وقد تحمله يد الشخص المصاب إذا تشبعت من أنفاسه، فينتقل عبر ما تمسه يده من الأسطح إلى يد أخرى فننقله إلى الجوف عن طريق الأنف أو الفم.

وليس من سبيل لاجتناب هذا الوباء إلا بأخذ الحيطة والحذر وذلك بالتباعد بين الأشخاص، وارتداء اللثام الطبي، وغسل الأيدي باستمرار، وتهوية الغرف، واجتناب الغرف المكيفة التي تجعل نفس الهواء بها يحمله من الفيروسات محبوسا في نفس النطاق.

وهذه الأسباب المنصوح بها لاجتناب انتقال العدوى هي في مجملها من باب الأخذ بالاحتياط، وهو مما يلحق بالمصالح المرسله ويشاركها في كثير من خصائص معناها.

وقد اتخذت السلطات مجموعة من الإجراءات في مختلف دول المعمور تصب كلها في هذا النطاق، ومن جملتها عزل الأشخاص المصابين، بل قد اتخذت قرارات في أكثر الدول بعزل مجموع السكان بعضهم عن بعض.

وقد عرضت في هذه السبيل مجموعة من الإجراءات الاضطرارية لتجنب انتشار العدوى: منها ما يتعلق بالحقوق الأساسية مثل حرية التنقل والتجمع، ومثل إغلاق الحدود. ومنها ما يتعلق بالعوادات مثل إقفال المدارس والجامعات والمصانع والمتاجر والمطاعم إلى غير ذلك.

وهذه الإجراءات كلها، وإن كانت عامة في الدول الإسلامية وغيرها؛ فهي بالنسبة للشرعية الإسلامية من باب المصالح المرسله وما يلحق بها.

والموجه العملي في جميع ذلك هو من باب موافقة مقاصد المكلفين لمقاصد الشارع، فإن الالتزام بالإجراءات المذكورة مما يصب في تحري مقصود الشارع في المحافظة على كلي النفس في مقابل ما هو من الحاجيات العقلية كإغلاق المدارس والجامعات، أو المالية كإغلاق المصانع والمتاجر. أو ما هو من التحسينيات كإلغاء الاحتفالات، والتجمعات، وأسفار الترفيه.

خامسا: التوجيهات التعبدية في زمن الوباء:

1. توجيهات تعبدية منصوصة في الشرع:

لعل بعض الناس، ولا أقول أكثرهم يتهادون مع صحة الإيمان واليقين في الجانب العملي ويغفلون على ما دلنا عليه المولى تعالى من الاستعانة به والتضرع إليه في أحوال الفتن، قال الله عز وجل: ﴿قل أرايتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم

بالبأساء والضراء لعلمهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بها أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴿١٥﴾.

وقد سقت عن عمد هذه الآيات بتمامها لئلا يلتبس على أحد شيء من مضمونها ومعناها، وذلك أن الإنابة إلى الله والتوبة إليه من المعاصي والتضرع إليه بالدعاء والتسبيح والصلاة والصيام والصدقة أداءً لما أوجب سبحانه من ذلك، واستزادةً من نوافل العبادة والذكر هو أعظم مفاتيح الفرج. ولعل ذلك من الوضوح بحيث لا يحتاج في هذا السياق إلى مزيد تفصيل ولا زيادة استدلال.

2. مرجع الترخّص في العبادات زمن الوباء:

يرجع الموجه التعبدي للمصالح المرسلة وما يلحق بها في زمن الوباء إلى أمر جوهري يظهر عند التعارض بين حفظ الدين وحفظ النفس، وذلك بخلاف بقية الضروريات الخمس، فإن ترتيب الثلاثة الباقية واضح.

والسؤال عن الأولي بالتقديم هل الدين أو النفس حاضر باستمرار في مقاصد الشريعة، والجواب عنه واضح بالنظر إلى وصف الكلية والجزئية في كل واحد من هذين الضروريتين، فإن حفظ كلي النفس مقدم على حفظ جزئي الدين، ومن أمثلته المشهورة: النطق بكلمة الكفر لمن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، وأكل المحرم في حال فقد غيره. كما أن حفظ كلي الدين مقدم على حفظ جزئي النفس، ومن أمثلته المشهورة تشريع الجهاد مع ما فيه من تعرض النفس للهلاك حفظاً لدين الجماعة.

ومن الواقع حالياً من جراء ما يجري به العمل للحد من انتشار فيروس كوفيد 19 المذكور آنفاً ما اضطرت إليه الحكومات في شؤون من العبادات من تعطيل الجمع والجماعات، وصلاحي العيدين، وتعطيل العمرة رأساً، والاقتصار في الحج على تمثيلية رمزية، وحث الناس على الامتناع عن حضور الجنائز، وكذلك ما وقع في رمضان من تعطيل الجماعة في التراويح إلى غير ذلك.

وعموم ما تم الامتناع عنه من شعائر الدين مشروع بشرط الاستطاعة، موضوع عن ذوي الأعذار، وقد تبين أن خشية العدوى من العذر الذي يبيح التخلف عما ذكر.

15- سورة الأنعام، الآية: 41-45.

ولذلك فإن القول برجوع الإجراءات المتعلقة بهذا الشأن في حالة هذا الوباء المنتشر في أيماننا هاته إلى المصالح المرسله وما يلحق بها قول بعيد عن الصواب، فإن ما يذكر من الأعذار في التخلف عما ذكر كله من المنصوص وما يلحق بالمنصوص. وهو معنى الموجه التعبدي فيما نحن بصددده. وحينئذ فإنه لا يقال بأن الامتناع عن هذه الشعائر الجماعية من صنف المصالح المرسله وما يلحق بها. ولا يتصور في الموضوع التعارض بين كلي حفظ الدين وكلي حفظ النفس إلا إذا اعتبرنا تحديدا استمرار امتناع أهل البلاد عن هذه الشعائر الجماعية مع الطوع والقدرة؛ لأنها من شعائر الإسلام، ومن مظاهر الدين. ولكن باعتباره امتناعا مؤقتا، فإنه يعتبر جزئيا، وأعني جزء الوقت بالنسبة لحفظ كلي الدين، ولهذا فإن حفظ كلي النفس يقدم عليه في هذه الحالة.

سادسا: التوجيهات الأخلاقية زمن الوباء:

1. التوجيهات الأخلاقية المنصوصة:

مدار ذلك على إشاعة قيم السلم، والتسامح، والعدالة، ومكارم الأخلاق، وتطهير سخائم الصدور بطرد دواعي البغضاء، واستبعاد أسس الأحقاد، وتوطين مشاعر المودة ومبادئ الأخوة بين الناس.

وأول ما يخطر بالبال في هذا السياق، ما أمر الله ببيانه من أساس الاجتماع البشري، وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾¹⁶.

وفي هذا التعارف الذي أمر الله به، وأساس التفاضل الذي بينه جاءت تفاصيل، تجمع الأقوال والأفعال وجميع التصرفات:

فما يتعلق بالقول: صيغته، وفحواه، وابتدأه ومنتهاه، فقد قال الله تعالى: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا﴾¹⁷، وقد بين الله تعالى أن ذلك مما كلف به المسلمين كما كلف به أهل الكتاب من السابقين، فقال عز من قائل: ﴿وإذ

16- سورة الحجرات، الآية: 13.

17- سورة الإسراء، الآية: 53.

آخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين
وقولوا للناس حسنا¹⁸.

ولم يقصر الله تعالى ذلك على القول بل جعله أساس المعاملة في الفعل، والعلاقة بين الناس
عموما، وإن كان الجانب الآخر مسيئا، فقال سبحانه: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما
يصفون﴾¹⁹.

ويدخل في هذا المعنى جميع ما أمر الله تعالى به من مكارم الأخلاق، وأنواع التعاملات، حتى
لقد جعل الأخلاق الإنسانية العامة المشتركة دليلا على النبي عليه الصلاة والسلام، وشعارا لدعوته
منشورا بين الأمم، فقال سبحانه: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا
عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم
الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتَّبَعُوا
النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾²⁰. فقد جعل الله تعالى أعظم دلالة على نبوة هذا النبي هو
ما يدعو إليه من سامي الأخلاق التي يعرف الناس جميعا حسننها، وما يدعو إليه من تحليل الطيبات
التي توافق الطبيعة والفطرة الإنسانية المشتركة، وتحريم الخبائث التي تنفر منها الطباع كلها.

ومعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه الصفة وهذا المعنى، هو أعظم وقاية مما يقع من
الفتن بين الناس، وأنجع وسيلة لوقوع الانسجام والتعايش بينهم في عموم المجتمعات.

وجميع ما ذكرناه هنا من التوجيهات الأخلاقية المنصوصة، إنما هو على سبيل الإجمال دون
التفصيل؛ لأنها مما لا تفي ببيانه عشرات المجلدات.

2. التوجيهات الأخلاقية التي تتضمنها المصالح المرسلة وما يلحق بها:

إن ذكرنا للأخلاق ضمن الموجهات للمصالح المرسلة في زمن الوباء يرجع إلى ثلاثة أمور:

أحدها: أن النصوص الشرعية الواردة في مجال الأخلاق تأتي ضمن الأوامر والنواهي العامة
التي تعتبر في حد ذاتها من كليات الدين التي لا تقبل النسخ، ولا الاختلاف، ولا التبويض، ولا

18- سورة البقرة، الآية: 82.

19- سورة المؤمنون، الآية: 97.

20- سورة الأعراف، الآية: 157.

التحويل، فهي لذلك مما لا خلاف في أن ما يعارض وجهها من وجوها أو تفصيلا من تفصيلاتها، ولو لم يكن منصوبا أو مقيسا، مما قد يُرد به القياس المخرّج على أصوله وقواعده، وهي في الغالب مدعاة للعدول عن القياس إلى الاستحسان. فأحرى أن ترد بمخالفتها التصرفات الداخلة في المصلحة المرسلّة التي لا تستند إلى تعليل كالذي يستند عليه القياس.

والثاني: أن الأزمات كاشفة عن أخلاق الناس، وأما في الوقت الاعتيادي فقد يغطي على سوء الأخلاق ما يتعايش به الناس من المداراة والمجاملات. ولذلك كان اعتبار هذا الموجه في هذه الأوقات هو روح ما ينبغي فيها من التصرفات.

والثالث: أن من أهم مقومات الأخذ بالمصالح المرسلّة مبدأ تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وهو المورد الأعظم للتوجيهات الأخلاقية عموما.

ولذلك فإن ما يعرض في زمن الوباء من التصرفات الحكومية المستندة على المبادئ الأخلاقية الحكيمة هو من باب الأخذ بالمصالح المرسلّة بناء على الموجه الأخلاقي:

ومن أمثلة ذلك العقاب على بث الإشاعات الكاذبة التي تسبب البلبلة بين الناس أو المساعدة على نشرها من غير تثبت من مصدرها، وهذا من المخالفات الأخلاقية الجسيمة، فإن الذي يذيع الإشاعة الكاذبة لا يقل مسؤولية عمن يطلقها.

ومن أمثلة ذلك تحديد المقتنيات من السلع والضروريات، تحسبا لمن يقوم بتخزينها زمن الوباء بما يزيد عن حاجته بعشرات المرات على حساب فقدها من الأسواق، وتهافت الناس على ما فضل منها لسد ما ينوبهم من الضرورات.

سابعاً: التوجيهات الإحسانية في زمن الوباء:

1. التوجيهات الإحسانية في النصوص الشرعية:

مما تثبته النصوص الصحيحة الصريحة في هذا الباب هو ما يمكن إجماله في عبارة الاستنهاض للقيام بواجبات الإحسان. ويتجلى ذلك في التشجيع والحث على قيم التضامن والمواساة. وهو أيضا مما يطول الاستدلال عليه من النصوص الدينية عموما ومن القرآن والسنة خصوصا.

بحيث يتبدى ذلك من مواساة الحيوان، ويكفيها في موضوعه الحديث المتفق عليه²¹ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «في كل كبد رطبة أجر».

وأما فيما يتعلق بمواساة المحتاجين، فهو الواجب الديني الذي لا ينفك عن واجب الصلاة، إلى درجة أنه يمكن الجزم بأن الله تعالى لم يفرق في كتابه بين الصلاة بصفتها عبادة بدنية محضة، وبين الزكاة باعتبارها عبادة مالية. بل لقد أدخل الشرع في مجال عبادة الصدقات جميع ما يكون من المواساة والإعانة بالجسد، ابتداء من الابتسامة في وجه الناس، ومرورا بإماطة الأذى عن الطريق²²، ووصولاً إلى تعميم مفهوم الصدقات على كل إعانة ومساعدة للمحتاج إليها، بل وعمومها حتى لمجرد الامتناع عن كل قول أو فعل يمكن أن تحصل منه الإذابة للناس؛ ففي الحديث المتفق عليه²³ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يمسك عن الشر فإنها صدقة».

وعلى غرار ذلك نقول في المعاملة مع الأرض والماء والهواء والحيوان، وكل المجال البيئي الذي يتعايش معه الإنسان؛ فإن من أعظم الإجراءات التي ينبغي مراعاتها والأخذ بها وتوجيه الناس إلى المحافظة عليها، وإنذارهم مما يتوقع من الإخلال بها من الفتن والأزمات والابتلاءات، هو ما سماه الله تعالى في كتابه بالفساد في الأرض، وهو الذي نسميه في أيامنا هاته بالمحافظة على البيئة مما يسيء إليها أو يدمرها؛ لأن في تدمير بيئة الإنسان تدميراً له هو نفسه، علم ذلك أو لم يعلمه، عجلت له نتائجه أو أجلت. قال الله تعالى تكليفاً وإلزاماً: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾²⁴، وقال سبحانه تحقيقاً وإنذاراً: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾²⁵.

21 - البخاري: كتاب المساقاة - الشرب، باب فضل سقي الماء. مسلم: كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها.
22 - نذكر على سبيل المثال لا الحصر الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة». البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه. مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

23 - جزء من حديث متفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: البخاري: كتاب الزكاة، باب على كل مسلم صدقة فمن لم يجد فليعمل بالمعروف. مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

24 - سورة الأعراف، الآية: 55.

25 - سورة الروم، الآية: 40.

2. التوجيهات الإحسانية المتأسسة على المصالح المرسلّة وما يلحق بها:

لا مدعاة للتذكير بما مر في توجيه النصوص الشرعية إلى الإحسان في زمن الوباء، والأمر فيه أكثر من أن يستقصى، فإنه الإحسان الذي هو أحد فروع الدين الثلاث. وهو لذلك يعتبر في الشرع أحد أكبر الكليات. ومن أجل ذلك يمكن اعتباره أحد أكبر الموجّهات للمصالح المرسلّة وما يلحق بها في زمن الوباء. ومن أمثلة ذلك ما يستنهض إليه عموم الناس، فإن مما يذكر ضمن أشهر الأمثلة على التصرفات الشرعية المبينة على المصالح المرسلّة²⁶ فرض الضرائب الخاصة إذا لم يوف بيت المال بتغطية الحاجات العامة.

ومن ذلك ما عرفته التجربة المغربية عند ظهور هذا الوباء المعروف بكورونا- نسأل الله تعالى أن يرفعه بقدرته- من إحداث صندوق خاص بهذه الأزمة أسهم فيه ذوو اليسار وأصحاب الرواتب كل بحسب حاله، وقد كان الاستنهاض إلى ذلك متروكا لاختيار الناس، بحيث لم يقع إلزام كما لم يقع إخلال، واستطاعت الدولة أن توفر من هذا الصندوق الاحتياجات الطارئة، ومنها على الخصوص الاحتياجات الصحية، والتعويضات التي وزعت على من توقفت أعمالهم التي يقتاتون منها بسبب الوباء ولم يكن لهم مورد مالي يغطي احتياجاتهم.

خاتمة:

واجب القائمين على التوجيه الديني زمن الوباء:

جمعت في النقط السبع التي تضمنها هذا المقال أطرافاً من القول ما فتئت أرددتها مجتمعة ومفترقة بحسب السياقات التي أتاحت لي أو التي بادرت إليها مدة انتشار هذا الوباء الذي تعاني منه الإنسانية جمعاء، إيماناً بأن واجب من يتولى من أمر الإرشاد الديني شيئاً في زمن الوباء منه واجبات ثابتة على مدار الأزمان، ومنه ما جدت في موضوعه مستجدات، وتجددت من جرائها واجبات:

26- جاء الإمام الشاطبي في كتابه الاعتصام (طبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر: 115/2 وما بعدها). بعشرة أمثلة مفصلة للمصالح المرسلّة، هي: جمع المصحف، وحذ شارب الخمر، وتضمين الصناع، والسجن ونحوه من أنواع العقوبة، وتوظيف الضرائب إذا لم يف بيت المال بحاجات الدولة، والعقوبة بالمال، واستيفاء الحاجات إذا طبق الأرض الحرام، وقتل الجماعة بالواحد، والتنازل عن شرط بلوغ درجة الاجتهاد في الإمام والقاضي لخلو الزمان عن يبلغون هذه المرتبة، وبيعة الفضول مع وجود الفاضل درءاً للفتنة.

أما الواجبات الثابتة اللازمة لخطاب التوجيه الديني في مواجهة الأوبئة والأزمات؛ فيمكن أن نلخصها في أمرين: سابق، ولاحق: وقائي، وعلاجي: فالوقائي السابق هو الإنذار، والعلاجي اللاحق هو نشر طمأنينة الإيوان، والاستنهاض للقيام بواجبات الإحسان:

أما الواجب الثابت الأول، فهو الإنذار والوقاية من الأزمات تجنباً لوقوعها، وذلك ما يفهمه قول الله تعالى مرتبطاً بالمتفكرين في الدين خاصة: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾²⁷.

وجاء مفاد ما ينذرون منه قومهم في قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾²⁸، إذ الفتنة والوباء لا يستثنيان أحداً.

ولا يتسع المقام - مهما طال - لبيان تفصيل هذه الجملة، أي مضمن ما ينذرون قومهم ويرشدونه إلى اتقائه واجتنابه. ولكن مدار ذلك على إشاعة قيم السلم، والتسامح، والعدالة، ومكارم الأخلاق، وتطهير سخائم الصدور بطرد دواعي البغضاء، واستبعاد أسس الأحقاد، وتوطين مشاعر المودة، ومبادئ الأخوة بين الناس.

وأما الواجب الثابت الثاني العلاجي، فهو مواجهة الأزمات بنشر طمأنينة الإيوان، والاستنهاض للقيام بواجبات الإحسان. وهذا أيضاً مما يطول تفصيله، وقد أشرت إلى بعض ما يتضمنه في صلب المقال أعلاه.

وأما بالنسبة للواجبات المستجدة والتي ينبغي أن يتجدد وفقاً لها خطاب التوجيه الديني في زمن الأوبئة والأزمات خاصة؛ فإن الذي يدعو إلى تفصيله هنا هو ما استجد في العصر الذي نعيشه من التطورات في مختلف المناحي العلمية، ومن التقدم المبهر في وسائل التنقل والتواصل والإعلام، وما تم إقراره كونياً من الأعراف والمبادئ العامة، ومن القوانين الدولية، وما أنشئ من مؤسسات المجتمع الدولي، وقد جاء ذلك كله في سياق تطور تاريخي وعلمي معلوم الموارد والمصادر، وهو مفتوح في المستقبل على إمكانات متجددة قد لا يدركها الخيال.

27 - سورة التوبة، الآية: 123.

28 - سورة الأنفال، الآية: 25.

وقد قَرَّبَتْ تلك التطورات ما كان يعتبر بعيدا، وخَوَّلَتْ الاطلاع على ما كان الاطلاع عليه متعذرا أو مستحيلا، وبلغ الأمر في اللحظة التاريخية التي نعيشها اليوم أن كل شيء مما عرفته الإنسانية من التطورات والأحداث له إسهامه الخاص في التوسيع من دائرة الآثار والتبعات لكل ما يحدث من الأزمات.

وهو مما يستدعي أكثر من أي وقت مضى تعميم الوعي وإجراءات الإنذار والوقاية من الأزمات الواقعة أو المتوقعة والتحذير من كل ما يجر إليها، وهو ما يستدعي كذلك مزيدا من الثبات والطمأنينة الإيمانية، وتوسيع دائرة التآزر والتعاون والإحسان الإنساني في مواجهة الأزمات.

الأوبة بين الأطباء والفقهاء: تأملات في رسالة للشيخ مَرْعِي بن يوسف الكَرْمِي عنوانها: (ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون).

ذ. سعيد المغناوي

جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس.

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

يروم هذا المقال الكشف عن مضمون ما جاء في كُتَيْب أو رسالة مفيدة ألفها الشيخ مَرْعِي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكَرْمِي المقدسي رحمه الله، في عشرين صفحة تقريبا، وهي بعنوان (ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون)؛ وقد صدرت طبعتها الأولى عن دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، عام 1421هـ/2000م، ضمن سلسلة لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام، العدد 18، وبتقديم وتعليق لخالد بن العربي مُدْرِك.

وهذه الرسالة واحدة من عشرات المؤلفات التي ألفها العلماء المسلمون حول وباء ومرض خطير، ابتليت به الإنسانية منذ القديم، هو وباء الطاعون.

التعريف بالمؤلف:

هو مَرْعِي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكَرْمِي، نسبة لطولكرم، قرية بقرب نابلس، ثم المقدسي. كان إماما محدثا فقيها. وقد دخل مصر وتوطنها وأخذ عن بعض شيوخها، وتصدر للإقراء والتدريس بجامع الأزهر، ثم تولى المشيخة بجامع السلطان حسن في القاهرة، وكانت وفاته بمصر عام 1033هـ/1624م¹.

1- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المُحَبِّي، (المطبعة الوهبية بمصر، 1284هـ)، 4/358، 361.

من مؤلفاته الكثيرة: دليل الطالب لنيل المطالب في الفقه، ودليل الطالبين لكلام النحويين، وإرشاد من كان قصده لا إله إلا الله وحده، ومقدمة الخائض في علم الفرائض، والقول البديع في علم البديع، وأقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمتشابهات، وقرة عين الورود بمعرفة المقصور والممدود، والفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة، وبديع الإنشاء والصفات في المكاتبات والمراسلات، وبهجة الناظرين في آيات المستدلين، والبرهان في تفسير القرآن، وتنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين، والأدلة الوفية بتصويب قول الفقهاء والصوفية، وسلوك الطريقة في الجمع بين كلام أهل الشريعة والحقيقة، والروض النضر في الكلام على الخضر، وتحقيق الظنون بأخبار الطاعون، وتلخيص أوصاف المصطفى وذكر من بعده من الخلفاء، وشفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور، وتحقيق المقالة: هل الأفضل في حق النبي: الولاية أو النبوة أو الرسالة².

التعريف بالرسالة:

لقد اهتم الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي رحمه الله بموضوع الطاعون اهتماما بالغاً - كما قال خالد بن العربي مُدْرِك - فقد ألف فيه أولاً رسالة سَمّاها (تحقيق الظنون بأخبار الطاعون)، جمع فيها عدة نصوص حول وباء الطاعون، وجعلها في عشرين فصلاً، تناول في كل فصل منها مسألة من مسائله، وناقشها من خلال أقوال العلماء³.

ثم ألف رسالته هذه التي نحن - اليوم - بصدد التعريف بها، فتناول فيها بالتحليل قضيتين مهمتين، هما: جدوى الأدعية والأذكار في دفع الطاعون، والتساؤل عن دور الطب في دفع الطاعون عن الناس⁴. وفرغ من تأليفها سنة إحدى وثلاثين وألف من الهجرة النبوية (1031هـ).

كما تحدث أيضاً عن هذا الوباء الفتاك في أبواب من رسالته التي سَمّاها (سلوان المصاب بفرقة الأحباب)⁵.

2- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المُحَيِّي، 4/ 358-360.

3- انظر كتاب: ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون، لمرعي بن يوسف الكرمي، ص 10 من مقدمة المحقق.

4- نفسه، ص 10 من مقدمة المحقق.

5- نفسه، ص 11 من مقدمة المحقق.

ويمكن تلخيص ما ورد في رسالته التي تحدث فيها عما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون، فيما يلي⁶:

- افتتح كتابه بالبسملة والحمدلة والتصلية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه. ثم ذكر سبب إقدامه على تأليف هذه الرسالة.

- ثم أشار إلى اختلاف العلماء في جدوى التداوي من الطاعون، وفي قدرة الأدعية والأذكار ونحوها على النفع فيه ودفع شره.

- فذكر رأي الفريق الأول من العلماء الذين ذهبوا إلى القول بأنَّ التدَاوِي لا يُفِيدُ مَعَ الطَّاعُونِ شيئاً، واستشهد هنا بأقوال ابن القيم الجوزية والسيوطي.

- وانتقل بعد ذلك لبيان حقيقة الطاعون عند ابن سينا وغيره من الأطباء.

- ثم أشار إلى ما وقع من الاختلاف في سبب حدوثه ونشأته.

- فأورد أقوال بعض الأطباء في ذلك، وقول ابن سينا.

- ونقل عن أهل الشرع القول ببطلان ما ذهب إليه الأطباء في هذه المسألة، وما استدلوا به على ذلك.

- كما نقل عن أهل الشرع قولهم أولاً: إن سبب الطَّاعُون هو ظُهُور الفَوَاحِش والمَعَاصِي؛ وقولهم ثانياً: إنه من وخز الجن. وذكر بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي استشهدوا بها على آرائهم هذه.

- وبعد أن ذكر آخر حديث نبوي يُشير إلى أن الطاعون هو من وخز الجن، أورد قولاً لابن حجر العسقلاني في (فتح الباري) يردّ فيه على الأطباء، مبيناً لهم أن المعرفة بهذه المسألة إنما تدرك بالتوقيف وليس للعقل فيها مجال.

- ثم رجع للحديث عن الفريق الثاني من العلماء الذين ذهبوا إلى القول بأنَّ التدَاوِي يفيد مع الطاعون، وينفع لعموم الحديث الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمر بالتداوي، واستشهد هنا بقول ابن حزم رحمه الله في كتابه (الفِصْلُ في الملل والأهواء والنحل).

6- نفسه، ص 11-13 من مقدمة المحقق.

- ثم ذكر ما نقله ابن قيم الجوزية في (زاد المعاد) عن بعض الأطباء في كيفية التداوي من الطاعون، وما نصح به ابن سينا والسمرقندي وأطباء آخرون من الأدوية والعلاجات النافعة في التداوي منه؛ ومنها الفصد الذي اختلفوا في مدى نجاعته؛ ومنها كذلك الأذكار والأدعية التي نُقل عن ابن القيم أنها دافعة للأرواح الشيطانية، بل هي من أنفع الأدوية.

- وبعد ذلك أورد مجموعة من الأذكار والأدعية التي نصّت عليها بعض الأحاديث النبوية أو رُويت عن بعض السلف أو العارفين، من شأنها - كما قال - أن تحرس صاحبها من كيد الجن، الذي عُلم أن الطاعون ناتج عنه.

- وختم رسالته بالتنبيه إلى أن كلام المنجمين في الإخبار بالطاعون وغيره من الحوادث كذب وهتان وظن وحسبان، وأنه لا يجوز تصديقهم في ذلك بحال من الأحوال. واستدل على رأيه هذا بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأخبار تاريخية وأشعار.

تأملات فيما جاء في هذه الرسالة:

عنوان هذه الرسالة التي ألفها الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي - كما قلنا قبل قليل - هو: (ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون)، وهو عنوان يوحي منذ البداية بأن في الرسالة مقارنة بين ما اقترحه الأطباء من الأدوية والعلاجات لدفع شر الطاعون، وما يفعلونه من ممارسات طبية لهذا الغرض؛ وما أورده أهل الشرع من أدعية وأذكار، آمنوا بفاعليتها، وعرفوا قيمتها عن طريق التجربة، ووصفوها للناس لنفس الغرض.

قال رحمه الله بعد البسملة: "الحمدُ لله النَّافعُ الضَّارَّ، خَلَقَ الدَّاءَ والدَّوَاءَ وَالْمَنَافِعَ وَالْمَضَارَّ، بِيَدِهِ النَّفْعُ والضَّرُّ، والخير والشرُّ، والنَّهْيُ والأمر، الحكيم القَهَّار. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وأفضل المتوكِّلين، المستسلم للقضاء والأقدار"

قوله: "الحمدُ لله النَّافعُ الضَّارَّ". يعني أن هذا مما يجب ألا يغفل عنه الناس، وهو أن من أسماؤه سبحانه وتعالى: النافع والضار؛ أي: المقدر للضر على من أراد كيف أراد، والمقدر للنفع والخير لمن أراد كيف أراد، كل ذلك على مقتضى حكمته سبحانه. وإذا كان كذلك عز وجل، فبيده جل وعلا "النَّفْعُ والضَّرُّ، والخير والشرُّ"، وهو خالق المنافع والمضار. قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك توتي

الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير⁷، وقال تعالى: «قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»⁸، وقال تعالى: «وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم»⁹، وقال تعالى: «كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون»¹⁰، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: (يَا غَلَامُ إِنِّي أَعَلَّمْتُ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ يُحْدِثْ لَكَ مَجَاهِدًا، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)، قال الترمذي رحمه الله: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ"¹¹.

ثم إن الله سبحانه وتعالى - كما قال الشيخ مرعي - خلق الداء والدواء، وهي حقيقة أخبرنا بها النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، فعن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله عز وجل حيث خلق الداء خلق الدواء، فتداؤوا)، رواه الإمام أحمد في مسنده¹². وفي رواية لأبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في صحيحه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً)¹³. وفي رواية أسامة بن شريك عند الترمذي في

7- سورة آل عمران، الآية: 26.

8- سورة الأعراف، الآية: 188.

9- سورة يونس، الآية: 107.

10- سورة الأنبياء، الآية: 35.

11- سنن الترمذي (تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م): أبواب صفة القيامة والرفائق والورع، باب منها، الحديث رقم 2516، 4/284-285.

12- رواه أحمد بن حنبل في مسنده (شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاكر وآخرون، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1416هـ/1995م): باقي مسند المكثرين، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، الحديث رقم 12534، 10/507. قال محققو المسند: إسناده حسن لأجل عمران العمي، وكذا حسنه الهيثمي وذكر الخلاف فيه. والحديث لفظه المشهور والأصح عند أبي داود في الطب.

13- صحيح البخاري (دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م): كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، رقم الحديث 5678، ص 1441.

سنه¹⁴، قال: قَالَتِ الْأَعْرَابُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَدَاوَى. قَالَ: (نَعَمْ، يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً) - أَوْ قَالَ: (دَوَاءً - إِلَّا دَاءً وَاحِدًا). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُوَ؟ قَالَ: (الْهَرَمُ). قَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي الْبَابِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي خُزَيْمَةَ عَنْ أَبِيهِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ فِي (فَتْحِ الْبَارِيِّ) بَعْدَ أَنْ أوردَ جَمِيعَ الرِّوَايَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ لِهَذَا الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ: "وَفِي مَجْمُوعِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ مَا يُعْرِفُ مِنْهُ الْمُرَادُ بِالْإِنْزَالِ... وَهُوَ إِنْزَالُ عِلْمٍ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ الْمَلِكِ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَثَلًا، أَوْ عَبَّرَ بِالْإِنْزَالِ عَنِ التَّقْدِيرِ. وَفِيهَا التَّقْيِيدُ بِالْحَلَالِ، فَلَا يَجُوزُ التَّدَاوِي بِالْحَرَامِ. وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ... الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الشِّفَاءَ مُتَوَقَّفٌ عَلَى الْإِصَابَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الدَّوَاءَ قَدْ يَحْصُلُ مَعَهُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي الْكَيْفِيَّةِ أَوْ الْكَمِّيَّةِ فَلَا يَنْجَعُ، بَلْ رُبَّمَا أَحْدَثَ دَاءً آخَرَ. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ بَعْضَ الْأَدْوِيَةِ لَا يَعْلَمُهَا كُلُّ أَحَدٍ، وَفِيهَا كُلُّهَا إِبْتِاثُ الْأَسْبَابِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ لِمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّهَا بِإِذْنِ اللَّهِ وَبِتَقْدِيرِهِ، وَأَنَّهَا لَا تَنْجَعُ بِذَوَاتِهَا بَلْ بِمَا قَدَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا، وَأَنَّ الدَّوَاءَ قَدْ يَنْقَلِبُ دَاءً إِذَا قَدَّرَ اللَّهُ ذَلِكَ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ: (بِإِذْنِ اللَّهِ)، فَمَدَارُ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى تَقْدِيرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ. وَالتَّدَاوِي لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ كَمَا لَا يُنَافِيهِ دَفْعُ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَكَذَلِكَ تَجَنُّبُ الْمُهْلِكَاتِ وَالِدُّعَاءُ بِطَلَبِ الْعَافِيَةِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ... وَيَدْخُلُ فِي عُمُومِهَا أَيْضًا الدَّاءُ الْقَاتِلُ الَّذِي اعْتَرَفَ حُذَّاقُ الْأَطِبَّاءِ بِأَنَّهُ لَا دَوَاءَ لَهُ، وَأَقْرَبُوا بِالْعَجْزِ عَنْ مُدَاوَاتِهِ، وَلَعَلَّ الْإِشَارَةَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ بِقَوْلِهِ: (وَجَهْلُهُ مَنْ جَهْلُهُ) إِلَى ذَلِكَ، فَتَكُونُ بَاقِيَةٌ عَلَى عُمُومِهَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي الْحَبْرِ حَذْفُ تَقْدِيرِهِ: لَمْ يَنْزِلْ دَاءٌ يَقْبَلُ الدَّوَاءَ إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى. وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: (جَهْلُهُ مَنْ جَهْلُهُ)، مَا يَقَعُ لِبَعْضِ الْمَرْضَى، أَنَّهُ يَتَدَاوَى مِنْ دَاءٍ بِدَوَاءٍ فَيَبْرَأُ، ثُمَّ يَعْتَرِيهِ ذَلِكَ الدَّاءُ بَعِيْنُهُ، فَيَتَدَاوَى بِذَلِكَ الدَّوَاءِ بَعِيْنُهُ، فَلَا يَنْجَعُ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ الْجَهْلُ بِصِفَةِ مَنْ صِفَاتِ الدَّوَاءِ، قُرْبَ مَرَضَيْنِ تَشَابَهَا، وَيَكُونُ أَحَدُهُمَا مُرَكَّبًا لَا يَنْجَعُ فِيهِ مَا يَنْجَعُ فِي الَّذِي لَيْسَ مُرَكَّبًا، فَيَقَعُ الْخَطَأُ مِنْ هُنَا. وَقَدْ يَكُونُ مُتَّحِدًا، لَكِنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ لَا يَنْجَعَ فَلَا يُنْجَعُ، وَمِنْ هُنَا تَخَضُّعُ رِقَابِ الْأَطِبَّاءِ. وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَهٍ مِنْ طَرِيقِ أَبِي خُزَيْمَةَ... عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رُفِي نَسْتَرَقِيهَا، وَدَوَاءٌ تَدَاوَى بِهِ، هَلْ يَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا؟ قَالَ:

14 - سنن الترمذي: أبواب الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه، الحديث رقم 2038، 3/ 561-562.

(هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى). وَالْحَاصِلُ أَنَّ حُصُولَ الشِّفَاءِ بِالدَّوَاءِ، إِنَّمَا هُوَ كَدْفَعِ الْجُوعِ بِالْأَكْلِ وَالْعَطَشِ بِالشُّرْبِ، وَهُوَ يَنْجَعُ فِي ذَلِكَ فِي الْغَالِبِ، وَقَدْ يَتَخَلَّفُ لِمَانِعٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ... وَاسْتِثْنَاءُ الْمَوْتِ فِي حَدِيثِ أَسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ وَاضِحٌ، وَلَعَلَّ التَّقْدِيرَ إِلَّا دَاءَ الْمَوْتِ، أَيِ الْمَرَضِ الَّذِي قُدِّرَ عَلَى صَاحِبِهِ الْمَوْتُ. وَاسْتِثْنَاءُ الْهَرَمِ فِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى، إِمَّا لِأَنَّهُ جَعَلَهُ شَيْئًا بِالْمَوْتِ، وَالْجَامِعُ بَيْنَهُمَا نَقْصُ الصَّحَّةِ، أَوْ لِقُرْبِهِ مِنَ الْمَوْتِ وَإِفْضَائِهِ إِلَيْهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْإِسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعًا وَالتَّقْدِيرُ: لَكِنَّ الْهَرَمَ لَا دَوَاءَ لَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ¹⁵.

وقول المؤلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه "أشرف المرسلين، وأفضل المتوكلين، المستسلم للقضاء والأقدار"

أقول: نعم، هو صلى الله عليه أشرف المرسلين، بما فضله الله سبحانه وتعالى عليهم جميعاً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ)¹⁶.

وهو صلوات الله وسلامه عليه أفضل المتوكلين، أي من أفضل من فوّض أمره إلى الله، واستسلم لقضائه وقدره ورضي به، واعتمد على الله وله ثقة به. والمتوكلون على الله - كما قال الطبري في تفسيره - هم "الراضون بقضائه، والمستسلمون لحكمه فيهم، وافق ذلك منهم هوى أو خالفه"¹⁷. وقال القرطبي في تفسيره: "التوكل: الاعتماد على الله مع إظهار العجز"¹⁸. وقال ابن القيم: "وسر التوكل وحقيقته، هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب، مع خلوّ القلب من الاعتماد عليها والركون إليها"¹⁹.

15- فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ابن حجر العسقلاني، (رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه واستقصى أطرافه ونوّبه على أرقامها في كل حديث محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية)، 136-135/10.

16- صحيح مسلم (تحقيق أبو قتيبة نظر بن محمد الفارابي، دار طيبة، 1427هـ/2006م): كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث 523، 237/1.

17- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، (تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م)، تفسير الآية 159 من سورة آل عمران: "إن الله يحب المتوكلين"، 346/7.

18- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، (تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م)، تفسير الآية 159 من سورة آل عمران: "إن الله يحب المتوكلين"، 385/5.

19- الفوائد، ابن القيم، (تحقيق عصام الدين الصبابي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثانية، 1415هـ/1994م)، ص 126.

ثم إن التوكل، لا ينافي الأخذ بالأسباب، فعَنْ أَبِي خُزَامَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رُقِيَ نَسْرَقِيهَا، وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ، وَتَقَاةً نَتَقِيهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا؟ قَالَ: (هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ). قَالَ أَبُو عِيْسَى الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ"²⁰. وقال ابن أبي العزّ الدمشقي في شرحه للعقيدة الطحاوية: "وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب! وهذا فاسد، فإن الاكتساب: منه فرض، ومنه مستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام، كما قد عُرف في موضعه. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أفضل المتوكلين، يلبس لأمة الحرب، ويمشي في الأسواق للاكتساب، حتى قال الكافرون: (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ)"²¹.

وبعد البسملة والحمدلة والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه، ذكر الشيخ مرعي الكرمي سبب تأليفه لهذا الكتيب أو الرسالة، فقال: "فقد سُئِلْتُ في جمع أدعية وأذكار تُستعمل للطّاعون، وهل ذلك يُفيد، وهل الطّبُّ له مدخل فيه وينفع؟

بمعنى أنه سُئِلَ رحمه الله:

1- عن جمع أدعية وأذكار تُستعمل للطّاعون.

2- هل هذه الأدعية والأذكار مفيدة في دفع شر الطّاعون؟

3- هل الطب ينفع في التدّوي من الطّاعون، أو له ما يُسهم به في القضاء عليه؟

ثم شرع في ذكر شيء مما يتعلق بهذه المسائل، فأشار في البداية إلى أنّ الفقهاء قد اختلفوا في مسألة مهمة جدا لها علاقة بهذا الوباء، وهي: هل يُفيد التّدّوي للطّاعون، وهل ينفع فيه ما ورد من الأدعية والأذكار ونحوها؟

وأوضح أنهم منقسمون حول هذه المسألة إلى فريقين:

- جماعة من الفقهاء ترى أنّ التّدّوي لا يُفيد مع الطّاعون شيئا، وقالوا: إنّ كل داء بسبب من الأسباب الطبيعية له دواء من الأدوية الطبيعية، إلّا الطّاعون، فإنه قد أعْيَى الأطبّاء دواؤه.

20- سنن الترمذي: أبواب الطب، باب ما جاء في الرقي والأدوية، الحديث رقم 2065، 581/3-582.

21- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العزّ الدمشقي، (تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1411هـ/1990م)، 2/ 351-352.

- وجماعة أخرى من الفقهاء ترى أنَّ التداوي يفيد مع الطاعون، وينفع لعموم الحديث الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، الوارد في الأمر بالتداوي.

وكل فريق من هذين الفريقين له ما يبرهن به على ما ذهب إليه، وقد ذكر المؤلف رحمه الله بعضاً مما جاء عنهم في ذلك أو استشهدوا به:

فبالنسبة للفريق الأول:

- قال ابن القيم فيما نقله عنه السيوطي: "وهذا الطاعون قد أعبى الأطباء دواؤه، حتى سَلَّمَ حُذَاقَهُمْ أَنَّهُ لَا دَوَاءَ لَهُ، وَلَا دَافِعَ لَهُ، إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ وَقَدَّرَهُ"²².

- وقال السيوطي في كتابه الذي جمع فيه أخبار الطاعون: وَأَكْثَرُ أَنَاسٍ فِي الطَّاعُونِ مِنْ أَشْيَاءَ لَا تُغْنِيهِمْ، وَأُمُورٍ لَا تَعْنِيهِمْ؛ مِنْ ذَلِكَ اسْتِعْمَالُ مَأْكُولَاتٍ قَوَابِضَ، وَجُفَفَاتٍ حَوَامِضَ، وَتَعْلِيقُ فُصُوصَ، لَهَا فِي كُتُبِ الطَّبِّ نُصُوصٌ. وَهَذَا بَابٌ قَدْ أَعْيَى الْأَطْبَاءَ، وَاعْتَرَفَ بِالْعِجْزِ عَنْ مَدَاوَاتِهِ الْأَلْبَاءَ. وَأَنَاسٌ رَتَّبُوا أَدْعِيَةً لَمْ يَرِدْ بِهَا حَدِيثٌ وَلَا أَثَرٌ، وَابْتَدَعُوا أَذْكَارًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَيُسُّوْا أَيْنَ الْمَفْرُ؟ وَآخَرُونَ تَحَوَّلُوا إِلَى الْبَحْرِ وَشَاطِئِ النَّهْرِ، وَمَا شَعَرُوا أَنَّ مَجَاوِرَةَ الْبَحْرِ مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ لِلطَّاعُونِ طِبًّا، وَالْمُضِرَّةِ عِنْدَ فُسَادِ الْهَوَاءِ جَسْمًا وَثَبًّا، إِنَّمَا يَصْلَحُ سَكُنُ الْبَحْرِ لِمَنْ يَشْكُو الْغَمَّ، أَوْ سُوءَ هَضْمٍ²³.

- وفي كتاب السيوطي السالف الذكر أيضا ما نصه: وَلَمْ أُعَوَّلْ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا ذَكَرَهُ الْأَطْبَاءُ فِيهِمَا يُسْتَعْمَلُ أَيَّامَ الطَّاعُونِ؛ لِأَنَّهُ شَيْءٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَهُمْ إِنَّمَا بَنَوْا مَا ذَكَرُوهُ عَلَى مَا قَرَّرُوهُ مِنْ أَنَّ الطَّاعُونِ نَاشِئٌ عَنِ فُسَادِ الْهَوَاءِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ فُسَادُ مَا قَالُوهُ بِمَجِيءِ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ بِخِلَافِهِ، فَالْأَوَّلَى طَرَحَ ذَلِكَ، وَالتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ²⁴.

- وقال بعضهم²⁵:

22- انظر: ما رواه الواقعي في أخبار الطاعون، للسيوطي، (شرح وتحقيق ودراسة د. محمد علي البار، دار القلم، دمشق)، ص 147؛ ولقد أشار السيوطي إلى أن قول ابن القيم هذا قد ورد عنده في كتاب (الهدى) الذي هو (زاد المعاد)، لكن لم أعثر عليه في نسخ (زاد المعاد) المتداولة بين أيدينا اليوم، ولا أدري من أي نسخة استقاه.

23- ما رواه الواقعي في أخبار الطاعون، للسيوطي، ص 216-217.

24- نفسه، ص 172.

25- انظر: ما رواه الواقعي في أخبار الطاعون، للسيوطي، ص 217.

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ *** إِلَّا الْحَمَاقَةَ وَالطَّاعُونَ وَالْهَرَمَا

أما بالنسبة للفريق الثاني:

- فقال ابن حزم رحمه الله: صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصحيح الطب والأمر بالعلاج به، وأنه صلى الله عليه وسلم قال: (تَدَاوُوا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقْ دَاءً إِلَّا خَلَقَ لَهُ دَوَاءً إِلَّا السَّامَ)²⁶، والسَّامُ: الموت؛ فاعترض قوم فقالوا: قد سبق في علم الله عزَّ وجلَّ بنهاية أجل المرء، مدَّة صحَّته وسقمه، فأَيُّ معنى للعلاج؟ قال: فقلنا لهم: نسألُكم هذا السؤال نفسه في جميع ما يتصرف فيه الناس من الأكل والشرب، واللباس لطرد البرد والحر، والسعي في المعاش بالحرث والغرس، والقيام على الماشية والحرفة بالتجارة والصناعة. ونقول لهم: قد سبق علم الله تعالى بنهاية أجل المرء ومُدَّة صحَّته، ومُدَّة سقمه، فأَيُّ معنى لكل ما ذكرنا؟ فلا جواب لهم إِلَّا أن يقولوا: إِنَّ علم الله تعالى أيضًا قد سبق بما يكون من كل ذلك، وبأنها أسباب إلى بلوغ نهاية العمر المقدَّرة. فنقول لهم: وهكذا الطب، فقد سبق في علم الله تعالى أن هذا العليل يتداوى، وأنَّ تداويه سبب إلى بلوغ نهاية أجله، فَالْعِلْلُ مُقَدَّرَةٌ، وَالزَّمَانَةُ²⁷ مُقَدَّرَةٌ، والموت والعلاج مقدَّر، ولا مرد لحكم الله تعالى، ونافذ علمه في كل شيء من ذلك، لا إله إِلَّا هو.²⁸

هذا إذن ما ذهب إليه الفقهاء من الفريقين، عند حديثهم عن جدوى التداوي من الطاعون. أما الأطباء، فقد ذكر الشيخ مرعي بعض آرائهم في هذا الوباء، وجملة من وصفاتهم وما اقترحوه من علاجات لدفع شره. ويلاحظ أن ما أورده هنا عن الأطباء، ينحصر في ثلاثة أمور، هي: حقيقة الطاعون، ومسبباته، وكيفية التداوي منه.

26 - وفي رواية أحمد بن حنبل في مسنده (مسانيد المقلين، مسند أسامة بن شريك، الحديث رقم 18366، 14/177)، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نعم تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد، الهرم".

27 - الزَّمَانَةُ: العاهة، ورجل زَمِنَ، أي مُبْتَلًى بَيِّنُ الزَّمَانَةِ. [انظر: لسان العرب، لابن منظور، (تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة)، مادة: زمن، ص 1867].

28 - هذا ما نقله الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي عن ابن حزم، وأشار إلى أن قول ابن حزم هذا قد ورد عنده في (الملل والنحل)، يقصد ربا، كتاب ابن حزم المسمى: (الفصل في الملل والأهواء والنحل)؛ لكن لم أعثر عليه في نسخ (الفصل في الملل والأهواء والنحل) المتداولة بين أيدينا اليوم، ولا أدري من أي نسخة استقاه.

1- حقيقة الطاعون

- قال ابن سينا (ت428هـ)، وغيره من الحذاق: الطاعون مادة سُمِّيَّة تُحْدِثُ وَرَمًا قَتَالًا يَحْدُثُ فِي الْمَوَاضِعِ الرِّخْوَةِ، وَالتَّغَابِنِ مِنَ الْبَدَنِ، وَأَغْلَبَ مَا يَكُونُ تَحْتَ الْإِبْطِ، وَخَلْفَ الْأُذُنِ.²⁹

- وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: الطَّاعُونُ وَرَمٌ رَدِيٌّ قَتَالٌ، يُخْرُجُ مَعَهُ تَلْهَبٌ شَدِيدٌ مُؤَلِّمٌ جَدًّا، يَتَجَاوَزُ الْمَقْدَارَ فِي ذَلِكَ، وَيَصِيرُ مَا حَوْلَهُ فِي الْأَكْثَرِ أَسْوَدَ أَوْ أَخْضَرَ، أَوْ أَكْمَدَ، وَيُؤْوِلُ أَمْرَهُ إِلَى التَّقَرُّحِ سَرِيعًا. وَفِي الْأَكْثَرِ يَحْدُثُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ: فِي الْإِبْطِ، وَخَلْفَ الْأُذُنِ وَالْأَرْنَبَةِ، وَفِي اللَّحُومِ الرَّخْوَةِ. وَسَبَبُهُ دَمٌ رَدِيٌّ مَائِلٌ إِلَى الْعَفْوَةِ وَالْفَسَادِ، مُسْتَحِيلٌ إِلَى جَوْهَرِ سُمِّيٍّ، يُفْسِدُ الْعُضْوَ، وَيُغَيِّرُ مَا يَلِيهِ، وَرَبَّمَا رَشَحَ دَمًا وَصَدِيدًا، وَيُؤَدِّي إِلَى الْقَلْبِ كَيْفِيَّةَ رَدِيَّةٍ، فَيَحْدُثُ الْقَيْءُ وَالْحَقَقَانُ وَالْعَشْيُ. وَأَرْدَوْهُ: مَا حَدَثَ فِي الْإِبْطِ، وَخَلْفَ الْأُذُنِ؛ لِقُرْبِهِمَا مِنَ الْأَعْضَاءِ الَّتِي هِيَ أَرَأْسُ. وَأَسْلَمَهُ: الْأَحْمَرُ، ثُمَّ الْأَصْفَرُ، وَالَّذِي إِلَى السَّوَادِ فَلَا يَفْلَتُ مِنْهُ أَحَدٌ.³⁰

- وَفَسَّرَ بَعْضُهُمُ الطَّاعُونُ بِإِنْصِبَابِ الدَّمِ إِلَى عُضْوٍ.³¹

- وَقَالَ أَكْثَرُهُمْ: إِنَّهُ هَيَجَانُ الدَّمِ وَانْتِفَاحُهُ.³²

2- مسببات الطاعون

حكى المؤلف عن الأطباء قولهم: إِنَّ سَبَبَهُ فَسَادُ جَوْهَرِ الْهَوَاءِ:

- فابن سينا- مثلاً- قال: الْوَبَاءُ فَسَادُ جَوْهَرِ الْهَوَاءِ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ الرُّوحِ وَمَدَدُهُ، وَلِذَلِكَ لَا يُمْكِنُ حَيَاةُ شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ بِدُونِ اسْتِنشَاقِهِ.

- وقريب من ذلك قول بعضهم: الْوَبَاءُ يَنْشَأُ عَنْ فَسَادِ يَعْزُضُ لَجَوْهَرِ الْهَوَاءِ بِأَسْبَابِ خَبِيثَةٍ سَمَاوِيَةٍ أَوْ أَرْضِيَّةٍ، كَالشُّهْبِ وَالرَّجُومِ فِي آخِرِ الصَّيْفِ، وَالْمَاءِ الْأَسْنِ، وَالْجَيْفِ الْكَثِيرَةِ.

29- انظر مثلاً: القانون في الطب، لابن سينا، (وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999م)، 165-164/3.

30- انظر: الطب النبوي، لابن القيم، (دار السلام، الرياض، 1433هـ)، ص 57-58.

31- انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، 180/10.

32- نفسه.

3- كيفية التداوي من الطاعون

- قال أئمة الطب كما نقله العلامة ابن القيم في (الهدى): "أنه يجب على كل محترز من الوباء أن يُخرج عن بدنه الرطوبات الفضلية، ويقلّل الغذاء، ويميل إلى التدبير المجفّف من كل وجه، إلّا الرياضة والحمام؛ فإنهما يجب أن يُحذرا؛ لأنّ البدن لا يخلو غالباً من فضل رديء كامن فيه، فتثيره الرياضة والحمام، ويخلطانه بالكيّموس³³ الجيد، وذلك يجلب علة عظيمة، بل يجب عند وقوع الطاعون السكون والدّعة، وتسكين هَيَجَانِ الأَخْلَاطِ"³⁴.

- وصرّح رئيس الأطباء ابن سينا بأنّ أول شيء يُبدأ به في علاج الطّاعون، الشّرْطُ³⁵ إن أمكن، فيسبل ما فيه، ولا يُترك حتى يَجْمُدَ، فتزداد سُمِّيَّتُهُ. قال: ويعالج الطّاعون بما يُقْبِضُ ويُبْرِدُ، وبِالْفَصْدِ³⁶، وبِإِسْفِنْجَةِ مَغْمُوسَةٍ في خل وماء، ودهن وورد، ودُهْنُ تَفّاحٍ، أو دهن آس.³⁷

- وذهب بعض الأطباء إلى المنع من الفصد، مع أنّ المرض دموي، وعلّله بأنّ الأبدان قد تخللها الوباء الهاوي، فغَيَّرَ دِمَاءَهَا كلها، فلا يفيد تنقيصها شيئاً؛ لأنها كلها فاسدة، ومتى استفرغها بجملتها هلك، فلم يبق إلّا التدبير الإلهي بقلب المراد.

- وزعم بعضهم أنّ من تَخَتَّمَ بِالْيَاقُوتِ، أو عَلَّقَهُ عليه، أَمِنَ شَرَّ الطّاعُونِ.³⁸

33 - الكيّموس: كلمة يونانية، معناها: الخلط أو الحالة التي يكون عليها الطعام بعد فعل المعدة. [انظر هامش ص 40 من الجزء الرابع من (زاد المعاد في هدي خير العباد)، لابن القيم، (تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1418هـ/ 1998م)].

34 - انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، 39/4-40.

35 - قال زكريا الأنصاري في (تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين)، [مخطوط جامعة الملك سعود، وهي نسخة متاحة على الإنترنت في موقعها، اللوحة 8]: والشّرْطُ بضم المعجمة وفتح الراء.

36 - الفَصْدُ: شق العِرْق. [انظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة: فصد، ص 3420].

37 - انظر: القانون في الطب، لابن سينا، 165/3.

38 - انظر: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، لابن البيطار الأندلسي المالقي، (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ/ 1992م)، 509/4؛ وفي (مغني المحتاج إلى معرفة معاني المنهاج)، لمحمد بن الخطيب الشربيني، [اعتنى به محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ/ 1997م]، 61/1: "وقيل: من تختم به أَمِنَ من الطاعون وتيسّرت له أسباب المعاش وَيَقْوَى قلبه وتهابه الناس ويسهل عليه قضاء الحوائج".

- وقال ابن سينا: قَشْرُ الأترج³⁹ رائحته تُصلح فساد الهواء والوباء، وسمن البقر إذا صُبَّ على الطواعين نفع منها، وشراب الحَصْرَم⁴⁰ ينفع من الوباء شرباً.

- وعن بعضهم: يُترك على الفحم في زمن الوباء قشور الرمان والآس، ويرش عليها الخل.

- وقال السمرقندي⁴¹: ويشرب كل غداة جلاباً من شراب الحماض، أو الأترج، أو النارج، أو الليمون، أو السفرجل، أو التفاح، أو الرمان الحامض، من أيها حُضِر عشرة دراهم مع ماء الورد، أو ماء لسان الثور من كُلِّ عشرة دراهم، ويُشَمِّم الورد والكافور والصندل.

- وقال بعضهم: الماء البارد شربه يمنع الوباء، ويطفئ الحرارة الحادثة عن الوباء.

- وفي كتاب (التبيين فيما يُستعمل من الأغذية دائماً أيام الطاعون): الخل والعدس والكثك، ويأكل القثاء والخيار، وللترياق الأكبر في أيام الطاعون والوباء نفع عظيم شرباً وطلاء، وبعشر يُدفع فساد الهواء أكلاً وشماً على الفطور. وبز القطون ينفع للوباء بخوراً، وإذا بُخِّر به قطع كل رائحة عفنة من أي نوع كانت، وبخور [لايعة] ينفع الوباء بخوراً، ورائحته تقطع العفونة كيف كانت.

والملاحظ أن أهل الشرع لم يُسلموا بجميع هذه الآراء الطبية، بل اتفقوا مع الأطباء في أمور، وخالفوهم في أمور أخرى، كما نبهوا إلى أمور لم يفتن لها الأطباء أنفسهم، مما يدل على اهتمامهم البالغ بهذا الوباء، وهو اهتمام لا يقل عما كان للأطباء من اهتمام به، وربما فاقت عنايتهم به عناية الأطباء؛ لأن ما كتبه أهل الشرع عن الطاعون - على اختلاف تخصصاتهم ومذاهبهم - كان أكثر بكثير مما حَبَّرَه الأطباء:

- قال شيخ الإسلام القاضي زكريا بن محمد الأنصاري (ت 926هـ) عند تعقيبه على ما أشار به الرئيس ابن سينا من التداوي بالشرط والفصد لدفع شر الطاعون: وقد أغفل الأطباء في عصرنا وما

39 - انظر: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، لابن البيطار الأندلسي المالقي، 1/ 13-14.

40 - شراب الحَصْرَم: يُستخرج من ورق العنب، ويستخدم لعلاج عدة أمراض. [انظر: الجامع لمفردات الأدوية لابن البيطار، 2/ 277].

41 - السمرقندي: هو نجيب الدين أبو حامد محمد بن علي بن عمر، طبيب فاضل بارع، له من الكتب: كتاب (أغذية المرضى)، وقسمه على حسب ما يحتاج إليه في التغذية لكل واحد من سائر الأمراض؛ وكتاب (الأسباب والعلامات)، جمعه لنفسه، ونقله من (القانون) لأبي علي بن سينا. قُتل مع جملة الناس الذين قُتلوا بمدينة هراة لما دخلها التتر عام 619هـ. [انظر ترجمته في: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة، (شرح وتحقيق د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت)، ص 472].

قَبْلَهُ هذا التدبير، فوق التفريط الشديد من تواطئهم على عدم التعرُّض لصاحب الطَّاعُون بإخراج الدم، حتى شاع ذلك فيهم؛ بحيث صار عامَّتُهُم يعتقد تحريم ذلك؛ مع أنَّ رئيسهم قال لما ذَكَر العلاج بالشرط، أو بالفصد: إنه واجب.⁴²

- وحكى السيوطي⁴³ وابن حجر الهيتمي⁴⁴ عن ابن القيم أنه أبطل قول الأطباء بأن الطاعون ينشأ من فساد الهواء، غير أن الشيخ مرعي الكرمي لم ينسب إلى ابن القيم ذلك، وإنما قال: "وقال أهل الشرع: إنَّ كلام الأطباء هذا باطل مردود؛ لأنَّ الطَّاعُون قد يَقَع في أَعْدَلِ الفُصُول، وفي أَفْسَحِ البلاد، وأَطْيَبِهَا ماءً، ولأنه لو كان من الهواء لَعَمَّ جَمِيعَ النَّاسِ، وسائر الحيوان، وَجَمِيعَ البَدَن! وليس كذلك كما هو مُشَاهَد؛ فَإِنَّا نَجِدُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ والحيوان يُصِيبُهُ الطَّاعُون، وبجانبه من جنسه، ومن يُشَابِه مَزَاجَهُ، وَلَا يُصِيبُهُ، وقد يأخذ أهل البيت من بلد بأجمعهم، ولا يدخل بيتًا مجاورهم أصلاً، أو يدخل بيتًا ولا يُصِيب منه إِلَّا البَعْضُ"⁴⁵.

- وذكر ابن حاتم عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال: لم أر شيئاً أنفع للوباء من البنفسج يُدَّهَن به، ويُشَرَّب.⁴⁶ وفي رواية عند أبي نعيم الأصفهاني في (حلية الأولياء) عن حرمة قال: سمعت الشافعي يقول: "لم أر أنفع للوباء من التسبيح"⁴⁷. غير أن هذه الرواية الثانية لم يشر إليها الشيخ مرعي الكرمي، ربما لأن الرواية الأولى التي فيها كلمة (البنفسج)، فيها بعد ذلك عبارة (يُدَّهَن به، ويُشَرَّب)، وهي قرينة دالة - من دون شك - على أن المقصود هو البنفسج. ويحتمل أيضاً، أن تكون الروايتان معاً نُقِلتا عن الإمام الشافعي، والله أعلم. أما الخاصية العلاجية للبنفسج، فقد تحدث عنها ابن القيم في (الطب النبوي)، فقال: "وَأَنْفَعُ الْأَذْهَانِ الْبَسِيطَةُ: الزَّيْتُ، ثُمَّ السَّمْنُ ثُمَّ الشَّيْرُجُ. وأما المركبة: فمنها بَارِدٌ رَطْبٌ؛ كدُهْنِ الْبَنْفَسَجِ، يَنْفَعُ مِنَ الصَّدَاعِ الْحَارِّ، وَيُنَوِّمُ أَصْحَابَ السَّهَرِ، وَيَرْطَبُ

42 - تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين، زكريا الأنصاري، مخطوط جامعة الملك سعود، اللوحة 8.

43 - انظر: ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، السيوطي، ص 147.

44 - انظر: الفتاوى الفقهية الكبرى، ابن حجر الهيتمي، (جمعها تلميذه الشيخ عبد القادر بن أحمد بن علي الفاكهي المكي، الناشر: المكتبة الإسلامية)، 4/ 12.

45 - ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون، مرعي بن يوسف الكرمي، ص 35.

46 - آداب الشافعي ومنابعه، عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، (تحقيق عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ/ 2003م)، ص 246.

47 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، (دار الفكر، بيروت، 1416هـ/ 1996م)، 9/ 136.

الدِّمَاغَ، وَيَنْفَعُ مِنَ الشَّقَاقِ، وَعَلَيَّةِ الْيُسِّ، وَالْجَفَافِ، وَيُطْلَى بِهِ الْجَرْبُ، وَالْحِكَّةُ الْيَابِسَةُ، فَيَنْفَعُهَا، وَيُسَهِّلُ حَرَكَةَ الْمَفَاصِلِ، وَيَصْلُحُ لِأَصْحَابِ الْأَمْزِجَةِ الْحَارَّةِ فِي زَمَنِ الصَّيْفِ. وَفِيهِ حَدِيثَانِ بَاطِلَانِ مَوْضُوعَانِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أَحَدُهُمَا: (فَضْلُ دُهْنِ الْبَنْفَسَجِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْهَانِ، كَفَضْلِي عَلَى سَائِرِ النَّاسِ)، وَالثَّانِي: (فَضْلُ دُهْنِ الْبَنْفَسَجِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْهَانِ، كَفَضْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ)⁴⁸.

- وقال الشيخ مرعي بعد أن نقل عن ابن سينا النصح بالفصد، ومنع بعض الأطباء منه: "ولعل الجمع بين هذا وبين كلام ابن سينا، أن ذلك يعتبر باختلاف الأمزجة والأبدان، والبلدان، والأزمان، والطبيب الحاذق العارف لا يكاد يوجد في هذا الزمان، وإنما الأدعياء"⁴⁹.

- وقال الحافظ ابن حجر في (شرح البخاري): وهو الذي أوجب للأطباء أن يقولوا ما قالوه؛ لأن معرفة كون الطاعون من وخز الجن إنما يدرك بالتوقيف، وليس للعقل فيه مجال. ولما لم يكن عندهم في ذلك موقف رأوا أن أقرب ما يقال فيه إنه من فساد جوهر الهواء، ولما ورد الشرع وجاء نهر الله بطل نهر معقل.

وقول ابن حجر هذا، ليس هو نفسه الوارد في (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، وإنما نقل المؤلف معناه فقط، وهي نفس المنهجية التي تعامل بها مع أغلب النقول التي استقاها من كتب غيره. أما ما ذكره ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري)، فهو كما قال رحمه الله: "والذي يفترق به الطاعون من الوباء، أصل الطاعون الذي لم يتعرض له الأطباء، ولا أكثر من تكلم في الطاعون، وهو كونه من طعن الجن. ولا يخالف ذلك ما قال الأطباء، من كون الطاعون ينشأ عن هيجان الدم أو انصبابه؛ لأنه يجوز أن يكون ذلك يحدث عن الطعنة الباطنة، فتحدث منها المادة السّمية، ويهيج الدم بسببها أو ينصب. وإنما لم يتعرض الأطباء لكونه من طعن الجن؛ لأنه أمر لا يُدرك بالعقل، وإنما يُعرف من الشارع، فتكلموا في ذلك على ما اقتضته قواعدهم"⁵⁰.

وقد أورد الشيخ مرعي حديثين نبويين، ينصّان على أن الطاعون من وخز الجن: أي طعنهم:

48- الطب النبوي، ابن القيم، ص 442.

49- ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون، مرعي بن يوسف الكرمي، ص 44.

50- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، 10 / 181.

- أولهما ما رواه أحمد بن حنبل في مسنده، عن أبي موسى الأشعري⁵¹ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فَنَاءُ أُمَّتِي بِالطَّاعُونَ وَالطَّاعُونَ). فقيل: يا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الطَّاعُنُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الطَّاعُونَ؟ قال: (وَحَزْرُ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ، وَفِي كُلِّ شَهْدَاءٍ)⁵². وفي رواية أخرى عنه عن أبي موسى، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فَنَاءُ أُمَّتِي بِالطَّاعِينَ وَالطَّاعُونَ). قال: فقلنا: يا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الطَّاعُنُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الطَّاعُونَ؟ قال: (طَعْنُ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ، وَفِي كُلِّ شَهَادَةٍ)⁵³. وحديث أبي موسى هذا، رواه أيضا: الطبراني في معجمه الأوسط⁵⁴، والبيهقي في دلائل النبوة⁵⁵، وغيرهما من طرق عديدة.

- ثانيهما ما رواه أبو يعلى، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ذُكِرَ الطاعون، فَذَكَرْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فِي الطَّاعُونَ: (وَحَزْرَةٌ تُصِيبُ أُمَّتِي مِنْ أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْجِنِّ؛ غُدَّةٌ⁵⁶ كَغُدَّةِ الْإِبِلِ. مَنْ أَقَامَ عَلَيْهِ كَانَ مُرَابِطًا، وَمَنْ أُصِيبَ بِهِ كَانَ شَهِيدًا، وَمَنْ فَرَّ مِنْهُ كَالْفَارِّ مِنَ الرَّحْفِ)⁵⁷.

هذا، وإذا كان الطاعون من وخز أعدائنا من الجن، فلدفع شرهم وغدرهم يُنصح المؤمن بالالتجاء إلى الأدعية والأذكار.

51 - انظر في الكلام عن طرق حديث أبي موسى وكيفية الجمع بينها: بذل الماعون في فضل الطاعون، لابن حجر العسقلاني، (تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة، الرياض)، ص 133-145.

52 - مسند أحمد بن حنبل، مسند الكوفيين، مسند أبي موسى الأشعري، رقم الحديث 19420، 503/14؛ قال محققو المسند: إسناده ضعيف، لجهالة الراوي عن أبي موسى. والحديث رواه أبو حنيفة، والطبراني في الصغير، وقال الهيثمي: رواه أحمد بأسانيد، والطبراني، والبخاري، وأبو يعلى، وأحد أسانيد أحمد صحيح، وكذا قال المنذري.

53 - مسند أحمد بن حنبل، مسند الكوفيين، مسند أبي موسى الأشعري، رقم الحديث 19631، 22/15؛ قال محققو المسند: إسناده ضعيف، لجهالة الرجل عن أبي موسى، وهذا الرجل صحابي كما صرح به بعد هذا؛ والحديث صحيح من طرق أخرى.

54 - المعجم الأوسط، الطبراني، (تحقيق أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد وأبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ/1995م)، رقم الحديث 1396، 105/2.

55 - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي، (وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه د. عبد المعطي قلعجي، دار البيان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1408 هـ / 1988م)، 384/6.

56 - الغُدَّة والغُدَّة: كل عُقْدَةٍ فِي جَسَدِ الْإِنْسَانِ أَطَافَ بِهَا شَحْمٌ، والغُدَّة والغُدَّة: طاعون الإبل. [انظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة: غدد، ص 3216].

57 - مسند أبي يعلى الموصلي، (حققه وخرج أحاديثه حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، 1406 هـ / 1986م)، الحديث رقم 4664، 8/125. قال محقق مسند أبي يعلى: إسناده ضعيف لجهالة صاحب الليث، ولضعف الليث نفسه؛ وهو ابن أبي سليم.

قال الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي: "وأما الأذكار والأدعية، فقد ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله: أنَّ الأرواح الشيطانية تتمكَّن من فعلها بالإنسان ما لم يدفعها دافع قوي من الذكر والدعاء والابتغال، والتضرُّع والصدقة وقراءة القرآن، وهذا يكون قبل استحكامها وتمكُّنها، فمن وفَّقَه الله تعالى بادر عند إحساسه بأسباب الشرِّ إلى هذه الأسباب التي تدفعها عنه، وهي له من أنفع الدواء. وإذا أراد الله عزَّ وجلَّ إنفاذ قضائه وقدره أغفل قلب العبد عن معرفتها وتصوُّرها وإرادتها، فلا يَشْعُرُ بِهَا، وَلَا يَرِيدُهَا ليقضي الله فيه أمراً كان مفعولاً"⁵⁸.

ثم قال المؤلف رحمه الله: "إذا علمتَ هذا، وعلمتَ أنَّ الطاعون من الجن، فقد وردت أحاديث بأذكار تحرس قائلها من كيد الجن". وهذه الأحاديث أو الآثار، هي:

- 1- ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ"⁵⁹.
- 2- ما رواه الحاكم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سُورَةُ الْبَقَرَةِ فِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ، لَا تُقْرَأُ فِي بَيْتٍ وَفِيهِ شَيْطَانٌ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ؛ آيَةُ الْكُرْسِيِّ"⁶⁰.
- 3- ما رواه البزار، أنه صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله الأسلمي: "تَعَوَّذْ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، فَمَا تَعَوَّذَ الْعِبَادُ بِمِثْلِهِنَّ"⁶¹.

58 - انظر: زاد المعاد، لابن القيم، 37-36/4.

59 - صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، رقم الحديث 780، 353/1.

60 - المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، (دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1422 هـ / 2002 م): كتاب التفسير، سورة البقرة، رقم الحديث 3026، 285/2.

61 - في (كشف الأستار) عن عبد الله الأسلمي أنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة، حتى إذا كنا بطن واقم، استقبلتنا ضيابة فأضلتنا الطريق، فلم نشعر حتى طلعتنا على ثنية، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك عدل إلى كتيب، فأناخ عليه، ثم قام وقام عليه من شاء الله، فما زال يصلي حتى طلع الفجر، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأس ناقته، ثم مشى وعبد الله الأسلمي إلى جنبه، ما أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غيره، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره ثم قال: (قُلْ). قلتُ: ما أقول؟ قال: (قُلْ هو الله أحد)، (قُلْ أعوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ من شرِّ ما خلق)، حتى فرغتُ منها، ثم قال: (قُلْ). قلتُ: ما أقول؟ قال: (قُلْ أعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ). قلتُ: (أعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)، حتى فرغتُ منها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هكذا فتعوذ، فما تعوذَ العباد بمثلهن قط). [انظر: كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1404 هـ / 1984 م): كتاب التفسير، باب في المعوذتين، رقم الحديث 2300، 85/3-86].

4- ما رواه الترمذي، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجان وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذ بهما، وترك ما سواهما.⁶²

5- ما ورد في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَشْرُ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمِيتَهُ".⁶³ وفي رواية للترمذي، عن أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ قَالَ فِي دُبُرِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَهُوَ ثَانِي رَجُلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يَحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مَرَّاتٍ، كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمُحِي عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَكَانَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وَكَانَ يَوْمَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي حِرْزٍ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَحُرْسٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَمْ يَنْبَغْ لَذَنْبٍ أَنْ يُدْرِكَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، إِلَّا الشَّرِكُ بِاللَّهِ".⁶⁴

6- ما رواه مُسْلِمٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ".⁶⁵

7- ما ورد في بعض النسخ من (حلية الأولياء) لأبي نعيم الأصفهاني، عن الشافعي: "أَحْسَنُ مَا يُدَاوَى بِهِ الطَّاعُونَ التَّسْبِيحُ". ووجهه أن الذكر يدفع العقوبة والعذاب. قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾.⁶⁶ وقال كعب: سبحان الله تمنع العذاب.

8- قال بعض العارفين: دعاء يونس عليه السلام من ذكره في أيام الطاعون مائة وستاً وثلاثين مرة، حفظه الله تعالى من الوباء والطاعون، وهو: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين؛ وهو اسم الله الأعظم.

62 - سنن الترمذي: أبواب الطب، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين، الحديث رقم 2058، 576/3.

63 - صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم الحديث 3293، ص 810؛ وصحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم الحديث 2691، 1240/2.

64 - أخرجه الترمذي في سننه (أبواب الدعوات، باب منها، الحديث رقم 3474، 461/5-462)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب".

65 - صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، رقم الحديث 2708، 1246/2.

66 - سورة الصافات، الآيتان: 143-144.

9- ذكر الزركشي أن بعض السلف كان يدعو عقب صلاته للنازلة: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَظِيمِ الْبَلَاءِ فِي النَّفْسِ وَالْأَهْلِ، وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ، اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ مَا نَخَافُ وَنَحْذَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ عَدَدَ ذُنُوبِنَا حَتَّى تُغْفَرَ، اللَّهُمَّ كَمَا شَفَعْتَ فِينَا نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَّهَلْنَا، وَعَمَّرَ بَنَانَا مَنَازِلَنَا، وَلَا تَوَاخِذْنَا بِسُوءِ أَفْعَالِنَا، وَلَا تَهْلِكْنَا بِخَطَايَانَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

10- عن بعضهم: مما ينفع للوباء: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ، بِسْمِ اللَّهِ ذِي الشَّانِ الْعَظِيمِ الْبِرَّهَانِ، الشَّدِيدِ السُّلْطَانِ، مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الطَّعْنِ، وَالطَّاعُونِ وَالْوَبَاءِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مَوْتِ الْفَجْأَةِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَجَهْدِ الْبَلَاءِ.

11- عن بعضهم: لدفع الوباء يُكْتَبُ وَيُعْلَقُ عَلَى الشَّخْصِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ، اللَّهُمَّ سَكِّنْ هَيْبَةَ صَدَمَةِ قَهْرَمَانَ الْجَبَرُوتِ بِالطَّافِكِ الْخَفِيَّةِ الْوَارِدَةِ النَّازِلَةِ مِنْ بَابِ الْمَلَكُوتِ حَتَّى نَتَشَبَّثَ بِلُطْفِكَ، وَنَعْتَصِمَ عَنْ إِنْزَالِ قُدْرَتِكَ، يَا ذَا الْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ، وَالرَّحْمَةِ الشَّامِلَةِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

12- ذكر بعض العارفين نحوًا من الأسماء، أَنَّ اسْمَهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنُ: مَنْ ذَكَرَهُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةً وَسِتًّا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً أَمِنَ شَرَّ الطَّاعُونِ. الْحَكِيمُ: مَنْ ذَكَرَهُ فِي أَيَّامِ الْوَبَاءِ كُلَّ يَوْمٍ ثَمَانِيًا وَثَمَانِينَ مَرَّةً أَمِنَ شَرَّ الْعَلَّةِ الْوَبَائِيَّةِ. الْحَفِيزُ: مَنْ ذَكَرَهُ كُلَّ يَوْمٍ ثَمَانِمِائَةً وَتِسْعِينَ مَرَّةً كَانَ مُحْفُوظًا مِنَ الْوَبَاءِ وَالطَّاعُونِ. الرَّقِيبُ: مَنْ ذَكَرَهُ أَيَّامَ الْوَبَاءِ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثِمِائَةً مَرَّةً، وَاثْنِي عَشَرَ مَرَّةً عَصَمَهُ اللَّهُ فِي سَائِرِ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ مِنْ عِلَّةِ الطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ.

13- عن بعضهم: مَنْ قَالَ فِي أَيَّامِ الْوَبَاءِ: اللَّهُمَّ يَا لَطِيفَ أَسْأَلُكَ اللَّطْفَ فِيهَا جَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، مِائَةً وَسِتًّا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً، أَمَّنَهُ اللَّهُ مِنَ وَخْزِ الطَّاعُونِ، وَآفَاتِ الْبَلَاءِ.

ثم ليس كون الطاعون من وخز الجن، هو السبب الوحيد لحدوثه ووقوعه - في نظر بعض العلماء - بل هناك سبب آخر - كما قال الشيخ مرعي - هو ارتكاب الفواحش والمعاصي؛ ولهذا قال رحمه الله: "قال أهل الشرع: والحق أن سبب الطاعون هو ظهور الفواحش والمعاصي؛ بل كل مصيبة حدثت فهي من كسب ابن آدم، كما قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾⁶⁷."

67 - سورة الشورى، الآية: 28.

واستشهد بالإضافة إلى هذه الآية القرآنية الكريمة، بثلاثة أحاديث نبوية، هي:

1- بما رواه ابن ماجه والبيهقي عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطَّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضُوا"⁶⁸.

2- بما رواه أبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقي عن بُريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ"⁶⁹.

3- بما رواه أبو يعلى والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "إِذَا بُخِسَ الْمِكْيَالُ حُبْسَ الْقَطْرِ، وَإِذَا كَثُرَ الزَّنَا كَثُرَ الْقَتْلُ وَوَقَعَ الطَّاعُونَ"⁷⁰.

بعد ذلك، قال المؤلف: "والأحاديث في ذلك كثيرة، ومن أراد المزيد فليراجع كتابنا: (تحقيق الظنون بأخبار الطاعون)".

وختم رسالته - كما قلنا - بالتنبيه إلى أن كلام المنجمين في الإخبار بالطاعون وغيره من الحوادث كذب وبهتان وظن وحسبان، وأنه لا يجوز تصديقهم في ذلك بحال من الأحوال. واستدل على رأيه هذا بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأخبار تاريخية وأشعار. وقد جاءت عنده مرتبة في هذه الرسالة على النحو الآتي:

1- قوله تعالى: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾⁷¹.

2- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾⁷².

68 - سنن ابن ماجه (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية): كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم الحديث 4019، 1332/2-1333.

69 - رواه الحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين (كتاب الجهاد، رقم الحديث 2577، 136/2-137) بلفظ: "ما نقض قوم العهد قط إلا كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم قط إلا سلط الله عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر".

70 - رواه الحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين (كتاب الفتن والملاحم، رقم الحديث 8536، 549/4) بلفظ: "إذا بُخِسَ الميزان حُبْسَ الْقَطْرِ، وَإِذَا كَثُرَ الزَّنَا كَثُرَ الْقَتْلُ وَوَقَعَ الطَّاعُونَ، وَإِذَا كَثُرَ الْكَذِبُ كَثُرَ الْهَرَجُ".

71 - سورة الجن، الآيتان: 26-27.

72 - سورة النمل، الآية: 67.

3- ما رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ)⁷³.

4- ما رواه مسلم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)⁷⁴.

5- ما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحَرِ)⁷⁵.

6- ما رواه الإمام أحمد، من حديث سمرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ رِجَالًا يَزْعُمُونَ أَنَّ كُسُوفَ هَذِهِ الشَّمْسِ، وَكُسُوفَ هَذَا الْقَمَرِ، وَزَوَالُ هَذِهِ النُّجُومِ عَنْ مَطَالِعِهَا لَمَوْتِ رِجَالٍ عَظَمَاءٍ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا، وَلَكِنَّهَا آيَاتٌ يَعْتَبِرُ بِهَا عِبَادُهُ لِيَنْظُرَ مَنْ يَحْدُثُ لَهُ مِنْهُمْ تَوْبَةٌ)⁷⁶.

7- إن مما يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ الْمُنْجِمِينَ، إِجْمَاعُهُمْ عِنْدَمَا تَمَّ بِنَاءُ بَغْدَادَ، أَلَا يَمُوتُ بِهَا خَلِيفَةٌ؛ فَلَمَّا قُتِلَ بِهَا الْخَلِيفَةُ الْأَمِينُ، انْخَرَمَ هَذَا الْحُكْمُ، وَظَهَرَ لِكُلِّ عَاقِلٍ تَنَاقُضُ قَوْلِ الْمُنْجِمِينَ، وَشَيْعُ كَذِبِهِمْ، وَافْتِرَائِهِمْ فِيهَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ.

8- إِنْ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَقَطَعَ بِهِ بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ، لَوْ حَكَيْنَاهُ عَنْهُمْ، عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ وَغَيْرُهُ، لَكَانَ أَمْرًا يُضْحِكُ مِنْهُ.

9- قول القائل:

أَطْلَبَ النُّجُومَ أَحَلَّتُمُونَا
كُنُوزَ الْأَرْضِ لَمْ تَصِلُوا إِلَيْهَا
عَلَى عِلْمٍ أَرَقَّ مِنَ الْهَبَاءِ
فَكَيْفَ وَصَلْتُمْ عِلْمَ السَّمَاءِ

73 - مسند أحمد بن حنبل، باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، رقم الحديث 9502، 9/ 240.

74 - صحيح مسلم: كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم الحديث 2230، 2/ 1062.

75 - رواه أحمد بن حنبل في مسنده (مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنه، رقم الحديث 2000، 2/ 480) بلفظ: "ما اقتبس رجل علما من النجوم إلا اقتبس بها شعبة من السحر، ما زاد زادا".

76 - مسند أحمد بن حنبل: مسند البصريين، مسند سمرة بن جندب، رقم الحديث، 20054، 15/ 144-145.

10- قول بهاء الدين زهير بن محمد المهلبى العتكي، المتوفى عام 656هـ:

وَأَعَزِمَ مَتَى شِئْتَ فَلَا أَوْقَاتُ وَاحِدَةً لَا الرَّيْبُ يَدْفَعُ مَقْدُورًا وَلَا الْعَجَلُ
لَا تَرْقُبِ النَّجْمَ فِي أَمْرٍ تَحَاوَلُهُ فَاللَّهُ يَفْعَلُ لَا جَدِيَّ وَلَا حَمْلُ
مَعَ السَّعَادَةِ مَا لِلنَّجْمِ مِنْ أَثَرٍ فَلَا يَضُرُّكَ مَرِيخٌ وَلَا زُحَلُ
الْأَمْرُ أَعْظَمُ وَالْأَفْكَارُ حَائِرَةٌ وَالشَّرْعُ أَصْدَقُ وَالْإِنْسَانُ يَمْتَثِلُ

وتنبه المؤلف في خاتمة رسالته إلى كذب المنجمين في الإخبار بالطاعون، وما أورد من آثار في التحذير من تصديقهم، يُفهم منه أن هؤلاء كانوا- في غالب الظن- يدعون المعرفة بوقت وقوع الطاعون أو التنبؤ بزمان انتهائه، وذلك من خلال النظر في النجوم.

ومثل هذا العلم هو مما أكثر علماء الدين من التحذير منه. ومن أوائل من كتبوا في ذلك، الخطيب البغدادي رحمه الله المتوفى سنة 463هـ. فقد ألّف رسالة عنوانها (علم النجوم هل الشروع فيه محمود أو مذموم؟)، قال فيها: إن علم النجوم يشتمل على ضربين⁷⁷:

- أحدهما: مباح، وتعلّمه فضيلة.

- والآخر: محظور، والنظر فيه مكروه.

فأما الضرب الأول: فهو العلم بأسماء الكواكب، ومناظرها، ومطالعها، ومساقطها، وسيرها، والاهتداء بها... والتوصل إلى جهة القبلة بالنجوم، ومعرفة مواقيت الصلاة، وساعات الليل بظهورها وأفولها.⁷⁸

وأما الضرب الثاني: وهو المحظور؛ فهو ما يدّعيه المنجمون من الأحكام... وهذا علم لا ينفع الله به بوجه من الوجوه، ولا يُستدل به على أمر من الأمور، وإنما الكسوف شيء قدّره الله سبحانه بمسير الشمس والقمر، فيكون باجتماعهما أو تقابلهما، وليس على من لم يعلم وقت الكسوف حين يكون من عيب ولا نقص، وإنما العيب في الجهل بما تعلّمه العرب من أمر النجوم... فإن استزله

77 - رسالة في علم النجوم، الخطيب البغدادي، ويليهِ الوصول إلى القمر لعبد العزيز بن باز، ويليهِ أين القمر؟ لحامد بن محمد الأنصاري، (تحقيق واعتناء طارق محمد العمودي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م)، ص 21.

78 - نفسه، ص 21.

الشیطان، وأطمعه في القضاء والأحكام، واعتقد في الكسوف أنه لموت أحد أو حياته، أو حلول
حادثة ووقوع جائحة، فقدَّ عقله الشیطان بالغرور، وقطع أسبابه من الدين؛ لأن الله تعالى استأثر
بالغيب دون أنبيائه وملائكته، إلا ما أطلعهم عليه.⁷⁹

كما أورد الخطيب البغدادي في رسالته هذه، أحاديث وآثار وأخبارا كثيرة استشهد بها على
النوع الأول والثاني من علم النجوم. ومما استدل به على التحذير من النوع الثاني، قوله صلى الله عليه
وسلم: (إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا)⁸⁰. ثم
قال شارحا معناه: "أراد بالإمسك عن النجوم، الكف عما يقول المنجمون فيها، من أنها فاعلة
مدبرة، وأنها تسعد وتنجس، وأن ما يكون في العالم من حادث فهو بحركات النجوم، فأمر عليه
الصلاة والسلام بالإمسك عن هذا القول، وأن يُقال فيها: إنها كما جعلها الله تعالى يُبتدى بها في
ظلمات البر والبحر، ويُعرف بالشمس والقمر عدد السنين والحساب، وإن فيها دلالة على قدرة الله
وحكمته"⁸¹.

ثم بعد الخطيب البغدادي رحمه الله بخمسة قرون، أتى عبد الوهاب الشعراني رحمه الله المتوفى
سنة 973هـ، فألف كتابه المسمى (كشف الغمة عن جميع الأمة)، وفي باب من أبواب كتاب الطب منه،
وهو باب (الطيرة والفأل والشؤم والعدوى والطاعون)، أورد مجموعة من الأحاديث النبوية والآثار
المروية في الطاعون، وأتبعها مباشرة بباب في (ما جاء في النهي عن إتيان الكهان والمنجمين
والسحرة). ومن بين ما قال فيه: "والعراف هو الكاهن. وقال بعضهم: هو الذي يدعي معرفة
الأمور بمقدمات أسباب يُستدل بها على موقعها، كالمسروق من الذي سرقه، ومعرفة مكان الضالة،
ونحو ذلك. وكان صلى الله عليه وسلم يقول: (من اقتبس علما من النجوم، اقتبس شعبة من السحر،
وزاد ما زاد). قال العلماء رضي الله عنهم: والمنهي عنه من علم النجوم، هو ما يدعيه أهلها من معرفة
الحوادث الآتية في مستقبل الزمان، كمجيء المطر، ووقوع الثلج، وهبوب الريح، وتغير الأسعار،
ونحو ذلك. ويزعمون أنهم يُدركون ذلك بسير الكواكب واقتنائها وافتراقها، وظهورها في بعض

79 - نفسه، ص 41.

80 - نفسه، ص 49.

81 - نفسه، ص 50.

الأزمان دون بعض. وهذا علم استأثر الله به، لا يعلمه أحد إلا بإعلام الله تعالى له. فأما ما يُدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم، الذي يُعرف به الزوال، وجهة القبلة، وكم مضى، وكم بقي، فإنه غير داخل في النهي⁸².

ومن هنا نفهم لماذا ختم الشيخ مرعي كتابه بالحديث عن المنجمين، فهو من جهة قد أدرك - من دون شك - جزءا من حياة الشيخ عبد الوهاب الشعراني الذي عاش هو الآخر بالقاهرة، أو ربما كان واحدا من مريديه؛ ومن جهة ثانية ربط بين الحديث عن الطاعون والتحذير من تصديق المنجمين، كما فعل الشعراني رحمه الله، الذي ذكر - كما قلنا - ما جاء في النهي عن إتيان المنجمين مباشرة بعد ذكر مرويّات في الطاعون.

وقد يبدو غريبا إدراج محور التنجيم في كتاب الطب، وهو ما لم يحدث زمن الخطيب البغدادي كما رأينا، لكن الذي دفع علماء مثل الشيخ الشعراني والشيخ مرعي لسلوك هذا النهج، والله أعلم، هو رغبتهم في محاربة الدجالين والمشعوذين ومن يزعمون أن لهم شيئا من المعرفة أو العلم الذي استأثر الله به، مع أنه لا كاشف للضرر إلا هو سبحانه وتعالى، ولا شفاء إلا شفاؤه جل وعلا، بيده النَّفْعُ وَالضَّرُّ، والخير والشرّ.

82 - كشف الغمة عن جميع الأمة، عبد الوهاب الشعراني، (ضبطه وصححه وخرج آياته محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت)، 1/ 319.

قراءة في مخطوط: "وصية الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد" لأبي عمرو محمد بن منظور القيسي المتوفى عام: (889هـ).

د. نور الدين لرجي - فاس.

تزخر المكتبات الإسلامية بتراث مخطوط نفيس خلفه لنا علماء أجلاء في فنون مختلفة، أسهموا بحظ وافر في خدمة العلم وبذله لطالبيه، تلبية لحاجيات الإنسان المتعددة في شتى مجالات الحياة. ومن بين ما وصلنا من تراث علمي مخطوط، كتاب: "وصية الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد" لمؤلفه أبي عمرو محمد بن منظور القيسي؛ وهو ذو قيمة علمية كبيرة، نظرا لما أثاره من قضايا تهم الوباء النازل بالإنسان في محيطه، إذ تعرض لبيان معنى الوباء، ومسبباته وتداعياته، وانعكاساته السلبية على محيط الإنسان وجسمه، كما عالج فيه مؤلفه طرق الوقاية من هذا المرض الوافد بأسلوب ممزوج بما هو ديني وما هو تجريبي، مستعينا في ذلك بالنقل عن المصادر الطبية المتخصصة.

ونسعى من خلال قراءتنا في هذا المخطوط إلى التعريف به نظرا لقيمته العلمية الهامة، والفائدة المرجوة منه لرفع هذا النازل بالإنسان، إذ يعتبر مصدرا مهما من المصادر التي تعرضت للحديث عن الطرق الناجعة للوقاية من هذا الوباء وشبهه.

وسنحاول من خلال قراءتنا في هذا المخطوط الحديث عن:

- السياق التاريخي لكتابة المخطوط.

- التعريف بالمؤلف.

- التعريف بالمخطوط.

أولاً: السياق التاريخي لكتابة المخطوط:

جاءت كتابة هذا المخطوط في ظل الظروف الوبائية التي شهدتها العالم بصفة عامة، وعاشها سكان الأندلس على وجه الخصوص إبان النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، حيث استفحل الموت في أهل جزيرة الأندلس، ونتجت عن ذلك وفيات كثيرة. ولم تكن في ذلك الحين لدى سكان هذا القطر الإسلامي الثقافة الصحية، والكيفية السليمة لتعاملهم مع العدوى، ومعرفة طرق الحد من انتشارها والوقاية منها، فضلاً عن عدم اتخاذ الإجراءات الوقائية من قبل السلطة الحاكمة في البلاد، للحد من آثار تفشي الوباء الفتاك، والتخفيف من آثاره.

فعاثت الأندلس جراء ذلك مثل بقية دول العالم الطاعون الجارف، الذي كانت له آثار سلبية على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، كما كانت له آثار إيجابية انعكست على المستوى الفكري والثقافي، ويتجلى ذلك في بروز عدة مؤلفات وضعت من أجل الوقاية من هذا الوباء، والابتعاد عن مكان انتشاره. ومن بين ما ألف في هذا الشأن نجد: الطبيب ابن خاتمة صاحب رسالة: "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"، التي ألفها استجابة لرغبة أصدقائه بعد ظهور الطاعون في مدينة ألمرية الأندلسية. كما ألف محمد بن علي اللخمي الشقوري رسالة بعنوان: "تحقيق النبأ في أمر الوباء"، وهي في حكم المفقود، والمتوفر منها ملخص بعنوان: "النصيحة"، قدم فيها مؤلفها طرق الوقاية من الطاعون.

هاتان الرسالتان وغيرهما؛ عملتا على تشخيص المرض ومفهوم العدوى، وكيفية عزل المرضى، والتخلص من الثياب الموبوءة، إلى غير ذلك من الأمور التي تساعد في القضاء على هذا النازل بالناس. ومن بين الكتابات كذلك في هذا المجال، كتاب الفقيه: أبي عمرو محمد بن منظور القيسي، الذي ضمنه وصايا ونصائح مزج فيها بين ما هو ديني وما هو طبي تجريبي، واستعان في هذا الشق الأخير بالمرجعين السابقين، باعتبار أنها لعلمين متخصصين في المجال الطبي، وذلك بأسلوب أدبي رصين.

ثانياً: التعريف بالمؤلف:

هو محمد بن القاضي الكبير أبي بكر محمد، بن القاضي الأجل أبي العرب محمد، بن محمد، بن عبيد الله، بن محمد، بن منظور القيسي المالقي الغرناطي، يكنى أبا عمرو، من بيت علم ونباهة،

وأصالته مشهورة⁽¹⁾. ولد بمالقة عام: أربع وأربعين وثمان مائة (844هـ)⁽²⁾، ونشأ بها، وأخذ العلم عن علمائها، وتردد على مسجدها لطلب العلم⁽³⁾، فأخذ عن والده أبي بكر محمد بن أبي العرب محمد بن محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي⁽⁴⁾، وأبي الحسن علي بن عتيق بن العز⁽⁵⁾، وأبي عبد الله المنشوري الخطيب المقرئ⁽⁶⁾.

شغل مؤلفنا عدة مناصب ومهام دلت على قيمته العلمية، ومكانته الرفيعة التي كان يحتلها بين علماء وقته، منها:

- (1) خطة القضاء بقرناطة، حيث كان قاضي الجماعة بها عام (864هـ)⁽⁷⁾.
- (2) خطة ديوان الإنشاء: إبان ملك بني نصر⁽⁸⁾.
- (3) التدريس بالجامع الأعظم بقرناطة⁽⁹⁾.
- (4) الخطابة: بالجامع الأعظم⁽¹⁰⁾.
- (5) الإفتاء: نظرا لتلازم منصب القضاء بالفتوى؛ فقد وجدت فتاوى لمؤلفنا - رحمه الله - في كتاب (المعيار المعرب) للعلامة الونشريسي، ونقل عنه تلميذه المواق في (سنن المهتدين) بعضا من فتاويه، وكذا في شرحه على (مختصر الشيخ خليل) في باب الميراث⁽¹¹⁾.

(1) كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، أحمد بابا التنبكتي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1421هـ - 2000م، (2/194)؛ وثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، تحقيق: عبد الله العمراني، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1403هـ - 1983م، (ص: 204).

(2) المرجع نفسه.

(3) انظر: نيل الابتهاج، أحمد بابا التنبكتي، تقديم: د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس - ليبيا، الطبعة: الثانية، 2000م، (ص: 558).

(4) ثبت البلوي، (ص: 204 - 205)؛ ونيل الابتهاج للتنبكتي: (ص: 558).

(5) انظر: المرجع نفسه، (ص: 204).

(6) ثبت البلوي، (ص: 205).

(7) انظر: نيل الابتهاج، (2/558).

(8) انظر: ديوان عبد الكريم القيسي، تحقيق: د. جمعة شيخة، د. محمد الهادي الطرابلسي، بيت الحكمة، تونس، 1988م، (ص: 258).

(9) اعتمدنا في جمع هذه المعلومات على تراجم بعض تلامذة ابن منظور - انظر: ثبت البلوي، (ص: 198 و 205).

(10) انظر المرجع السابق، (ص: 215).

(11) انظر: كفاية المحتاج للتنبكتي، (2/194).

توفي - رحمه الله - عام (889هـ)، ودفن خارج باب البيرة⁽¹²⁾.

ومن جملة ما خلفه - رحمه الله - من إرث علمي، نجد: "مقالة في فرض النفقات للزوجات المطلقات على أزواجهن فيما يكون بينهم من البنين والبنات وللنساء الحاضنات على من هن من المحضونين والمحضونات"، و"رجز في أسماء النبي صلى الله عليه وسلم" شرحه أبو الحسن علي القلصادي البسطي⁽¹³⁾، و"تأليف في البدع" ذكره أحمد بابا التنبكتي في (كفاية المحتاج)⁽¹⁴⁾.

ثالثاً: التعريف بالكتاب:

1) نسبة الكتاب إلى المؤلف:

إن نسبة الكتاب إلى العلامة أبي عمرو بن منظور؛ هي نسبة صحيحة وثابتة، ومن أهم ما وقفنا عليه في إثبات ذلك:

- أن المؤلف - رحمه الله - صرح في مقدمة الكتاب باسمه وكنيته، ونسبة الكتاب له، حيث قال ما نصه: "يقول العبد الفقير إلى ربه، الملك الحق الغني به عن جميع الخلق، أبو عمرو محمد بن أبي بكر محمد بن منظور القيسي... أما بعد؛ فهذه جملة مباركة بفضل الله سبحانه وتعالى، سميتها: "وصية الناصح الأود، في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد".

- أن فهرس خزانة الأستاذ المنوني، ومفهرس مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية، ذكرا الكتاب معزوا إلى مؤلفه أبي عمرو محمد بن منظور القيسي.

2) وصف النسخ المخطوطة والترجيح بينها:

أ): وصف النسخ المخطوطة:

اعتمدنا في قراءة وإخراج هذه المخطوطة على نسختين خطيتين هما:

النسخة الأولى: نسخة خزانة الفقيه محمد بن عبد الهادي المنوني - رحمه الله - بالرباط، تحت رقم: 455، وهي ضمن مجموع من الصفحة: 1 إلى الصفحة: 23، مكتوبة بخط أندلسي حسن ملون،

(12) انظر: ثبت البلوي، (ص: 216).

(13) توجد نسخة منه مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم: 13981.

(14) انظر: كفاية المحتاج للتنبكتي، (2/ 194).

مسطرتها 21، مقياسه 160/205. ناسخها: علي بن قاسم بن علي بن محمد بن أحمد البياضي الأنصاري، مكان نسخها: مدينة بلّش، وقد نسخت بتاريخ: الجمعة 9 صفر، عام سبعة وسبعين وثمان مائة (877هـ) الموافق لـ 17 يوليه الأعجمي.

أولها: "الحمد لله الرحيم المقبل، مجيب دعوة الداعي إذا دعاه..."

آخرها: "وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين،... على عباده الذين اصطفى".

تزدان الصفحة الأولى من هذه النسخة بخط المؤلف أبي عمرو بن منظور في إجازة منه لناسخها: أبي الحسن البياض الذي يحليه المجيز بالفقه والصلاح والخطابة، ويشهد بأنه قرأ عليه جميع هذه الوصية قراءة صحيحة لها وختمها وصححها.

النسخة الثانية: نسخة مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، تحت رقم: 355، ضمن مجموع يحمل رقم 7، كتبت بخط مغربي، مدادها أسود يتخلله اللون الأحمر عند ذكر بعض الأعلام وفي بداية الفصول أو مسألة من مسائل الكتاب، وتقع في 11 ورقة.

ب): الترجيح بين النسختين:

بعد المقارنة بين النسختين الخطيتين، ترجحت لدينا نسخة مكتبة الأستاذ المنوني بالرباط، المحفوظة تحت رقم: 455، فآثرنا أن تكون أصلا في كتابة النص، ورمزنا لها بحرف (أ)، وجعلنا نسخة مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، المحفوظة تحت رقم: 355، والتي رمزنا لها بحرف: (ب) ثانية، وذلك لأسباب الترجيح الآتية:

✓ أن نسخة خزانة الأستاذ المنوني تحمل إجازة بخط المؤلف أبي عمرو بن منظور القيسي، بأن ناسخها قرأ عليه هذه الوصية قراءة تصحيح لها، وختمها وصححها، وهو أقوى سبل الاعتماد عند انعدام النسخة الأصل للمخطوط، بخلاف النسخة (ب) التي لا تحمل أي إجازة، أو إشارة إلى أنها قوبلت على نسخة المؤلف الأصلية، أو غير ذلك.

✓ معرفة تاريخ نسخها، وأنها قريبة من زمان المؤلف، وهو يوم الجمعة التاسع لصفر من عام (877هـ)، بخلاف النسخة (ب) التي هي خالية من تاريخ نسخها.

✓ وضوحها وجمالية خطها وقلة أخطائها أو انعدامها، مما يدل على أن ناسخها وهو: "أبو الحسن علي البياضي" من أهل العلم، ومن النساخ الذين لهم إلمام بقواعد اللغة العربية والعلوم الشرعية.

(3) مضمون المخطوط:

ألف العلامة الفقيه أبو عمرو بن منظور القيسي كتابه في بيان وجه التحفظ من الوباء - الطاعون الجارف - الذي كان قد انتشر بالأندلس، وبالأخص في مدينة غرناطة. ونجده قد حصر كلامه في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة:

صدر الكلام في مقدمة رسالته بذكر اسمه وكنيته، وبحمد الله والثناء عليه بما يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وثنى بالصلاة على النبي الكريم، وعلى آله وصحبه.

بعد ذلك أشار إلى اسم مؤلفه، وأنه وسمه بـ: "وصية الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد"، وأنه سلك منهج الاختصار غير المخل بالمعنى، والذي تحصل به الفائدة دون غيره.

الفصل الأول: فيما يقرأ ويذكر وتحمد عاقبته إن شاء الله وتذكر، فكانت أولى وصاياه - رحمه الله -: تلاوة كتاب الله تعالى، حيث ذكر جملة من السور القرآنية، والآيات المنجيات من الأمراض والأموال المهلكات، وبعض الأدعية الماثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الأولياء والصلحاء العارفين بالله، وأن المرء ينبغي له أن يداوم على الاستغفار، ويكون تائباً من مواقع الذنوب والإصرار عليها. ثم ختم الفصل بالتنبيه على فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقراءة جملة من القصائد الكريمة في مدحه عليه الصلاة والسلام، لأن كل ذلك يرجى به النفع للمتحمض من هذا الوباء إذا التزمه وحافظ عليه، وأكثر منه وردده في كل وقت وحين، مع إخلاصه النية لله رب العالمين من أجل رفع هذا النازل.

الفصل الثاني: في وجه تدبير الإنسان على مذهب الأطباء، والحكماء، والأذكياء، في المسكن، والمأكل، والملبس، وغير ذلك مما يستعد به قبل نزول الوباء. وهو يهتم في هذا الفصل بالمسائل الطبية الخمسة، وهي:

المسألة الأولى: في إصلاح الهواء في المسكن، ويتحقق باستعمال الطيوب، والأزهار الباردة وغيرها، واجتناب كل ما يهيج الصداع، ويثير الأخلاط، كالأدخنة الحارة، والتعرض للشمس، وغيرهما.

المسألة الثانية: في الحركة والسكون، وأن الأفضل للإنسان الميل إلى السكون قدر الإمكان، دون كد ولا تعب، حتى لا تشتعل الحرارة فيضطر إلى مزيد تنفس.

المسألة الثالثة: في الأطعمة والأشربة، ونجده قد توسع في هذه المسألة، حيث ذكر جملة من الأطعمة، كاللحوم والخضر والفواكه، والأشربة النافعة لجسم الإنسان، وحذر من بعض ذلك، مما لا يلائم جسم الإنسان، ويغير طبعه ومزاجه، ويؤدي إلى تسخين الدم والزيادة في كميته.

المسألة الرابعة: في النوم واليقظة، ونبه على أن النافع من ذلك؛ ما كان ليلاً من غير زيادة أو نقصان على حده الطبيعي.

المسألة الخامسة: في الاستفراغ والاحتقان، وأرجعها إلى أمور خمسة:

(1) تسهيل الطبع؛

(2) تنظيف المعدة؛

(3) تخفيف الدم، وأنه يكون بشق العروق والحجامة؛

(4) الجماع؛

(5) الاستحمام.

الفصل الثالث: فيما هو مذكور أنه من الخواص بهذا المعنى، مما نقل عن العلماء والأطباء ممن كان بهذا الشأن يُعنى، كالتختم بشيء يدفع الوباء النازل مما جرب عن الخاصة، وكتعليق شيء في بيت وغير ذلك مما هو مجرب عن الخاصة.

الخاتمة: وفيها حث على الالتزام بهذه الوصايا الموثقة في ثنايا هذا المؤلف، وألا يفرط الناظر في شيء منها، وأن يعمل جهده على تحصيل العلم والعمل بذلك، حتى يتحقق النفع بذلك بإذن الله تعالى.

ومما تجدر الإشارة إليه من خلال قراءتنا لهذا المخطوط، أن صاحبه اعتمد في تأليفه على مراجع متخصصة في المجال الطبي، مثل كتاب "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" للطبيب

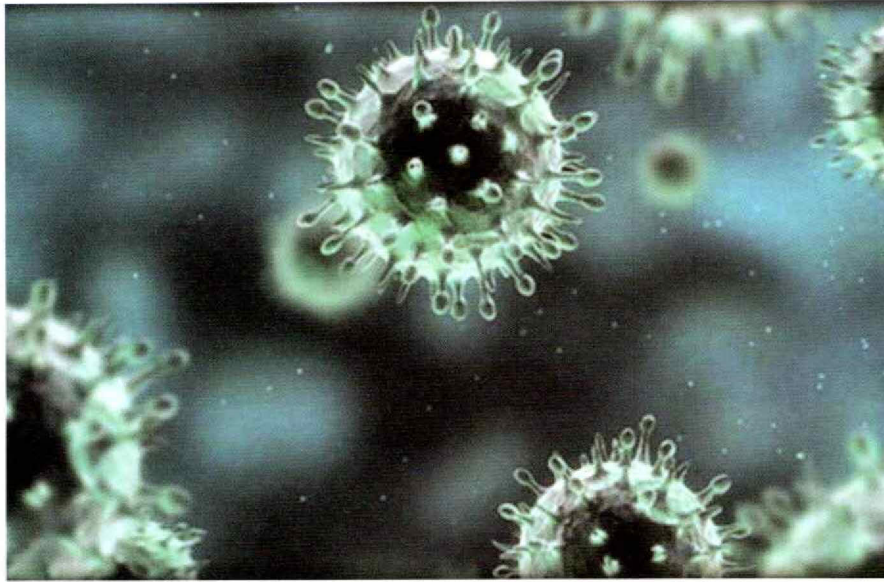
أبي جعفر ابن خاتمة، وكتاب "تحقيق النبأ في أمر الوباء" لمحمد بن علي الشقوري، وكتاب "الخواص والأشياء المقاومة للأمراض" لأبي بكر الرازي.

وخلاصة القول، أننا حاولنا من خلال قراءتنا لمخطوط: "وصية الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد" نفص غبار السنين عنه، لما يحمله في ثناياه من ذخائر وكنوز علمية لا تقدر بثمن، خدمة للبحث العلمي لا غير، واهتماما منا بالموروث الثقافي الإسلامي، وإسهاما منا في التعريف بالطرق والوسائل الممكنة التي قد تساعد على التخفيف من آثار انتشار "وباء كورونا"، الذي عصف بالعالم في وقتنا الحاضر، والله سبحانه من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حفظ صحة الأبدان من الأمراض والأوبئة في الإسلام

د. سعد الصقلي الحسيني

طبيب - فاس



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا وقدوتنا محمد المبعوث رحمة للعالمين.

إن البحث عبارة عن رحلة إيمانية في تدبر ما يزخر به الطب الإسلامي من فضائل في حفظ الصحة العامة والبيئة الصحية، خصوصا وما تعانیه البشرية اليوم من تحدي كبير أمام جائحة كوفيد 19 التي أرخت بظلالها على البشرية جمعاء للعام الثاني على التوالي، وتسببت في وفاة الملايين من البشر، وفي أزمات اقتصادية واجتماعية خطيرة ومعقدة.

وحتى يجتاز المسلم هذه المرحلة العصيبة بسلام، ينبغي أن يكون قوي الجسم، قال صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير)¹؛ لأن الجسم

1 - رواه مسلم وابن ماجه.

القوي أقدر على أداء التكاليف الدينية والدنيوية على الوجه المطلوب. والإسلام لا يُشَرِّع ما فيه إضعاف الجسم إضعافاً يُعجزه عن أداء هذه التكاليف، بل خَفَّفَ عنه بعض التشريعات إبقاءً على صحّة الجسم، فأجاز أداء الصلاة قعوداً لمن عجز عن القيام، وأباح الفطر لغير القادرين على الصّيام، ووضع الحجّ والجهاد وغيرهما عن غير المُستطيع.

كما حث ديننا الحنيف على حفظ الأنفس لقوله عز وجل: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»²، وعدم الإضرار بالغير انطلاقاً من قوله تعالى: «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً»³.

المبحث الأول: تطور الأوبئة عبر العصور

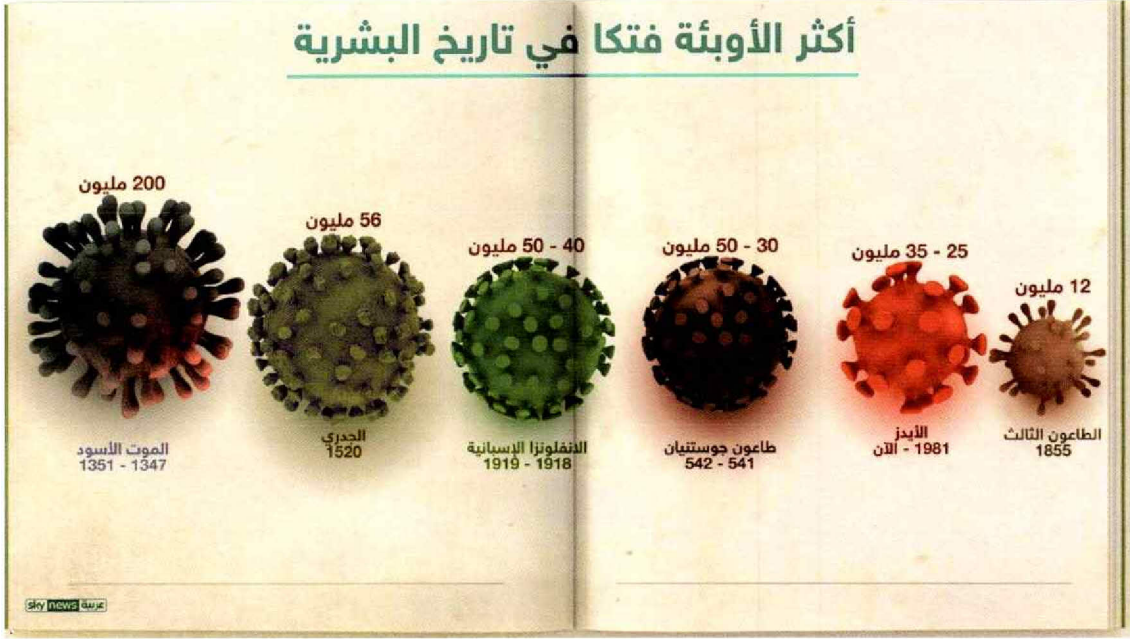
شهد العالم عبر العصور المختلفة العديد من الأمراض والأوبئة الفتاكة، وكانت إما أوبئة محصورة بدول أو نطاق جغرافي محدود أو أوبئة عالمية "جائحة"، تسببت في مقتل ملايين البشر وأدت إلى تغيرات ديموغرافية واجتماعية واقتصادية في العالم بأكمله، وغیرت مجرى حضارات بأكملها. وكان أشهر هذه الأوبئة وأشدّها فتكاً في العصور القديمة والوسطى: الطاعون الأسود، وطاعون جستنيان، وطاعون عمواس بمنطقة الشام. وفي العصر الحديث نجد: الكوليرا، والجذري، والإنفلونزا الإسبانية، ووباء كوفيد المستجد.

وقد اختلفت طرق الناس في كيفية التعامل مع الأوبئة باختلاف الحقبة الزمنية والإمكانات المتاحة وحدة الوباء وتطوره.

2 - سورة البقرة، الآية: 194

3 - سورة المائدة، الآية: 34.

لمحة عن بعض أكبر الأوبئة:



وباء ما قبل التاريخ: نحو 5 آلاف سنة قبل الميلاد

قبل نحو 5 آلاف سنة، قضى وباء على قرية ما قبل التاريخ في الصين. وكانت جثث القتلى محشوة داخل منزل تم حرقه فيما بعد، ولم يتم إنقاذ أي فئة عمرية، حيث عثر على هياكل عظمية للأحداث والشباب والكهول داخل المنزل، ويُطلق على الموقع الأثري الآن اسم "هامين مانغا" وهو أحد أفضل مواقع ما قبل التاريخ المحفوظة في شمال شرق الصين.⁴

طاعون أثينا: 430 قبل الميلاد

في حوالي 430 قبل الميلاد، ليس بعد فترة طويلة من بدء الحرب بين أثينا وإسبرطة، دمر وباء شعب أثينا واستمر لمدة خمس سنوات.

وتشير بعض التقديرات إلى أن عدد القتلى يصل إلى 100 ألف شخص. وكتب المؤرخ اليوناني ثوسيديدس (460-400 قبل الميلاد) أن "أشخاصاً يتمتعون بصحة جيدة تعرضوا فجأة لهجوم مفاجئ بسبب ارتفاع درجات الحرارة في الرأس، واحمرار والتهاب في العينين، وأصبحت الأجزاء الداخلية، مثل الحلق أو اللسان، دموية، وانبعثت نفس غير طبيعي وثن".

4 - الأوبئة الصحية على مر التاريخ - إسلام الشَّاط 2020م.

طاعون جستنيان: 541-542 ميلادي

سمي هذا النوع من الطاعون على اسم الإمبراطور البيزنطي جستنيان، وقد ظهر أول مرة في مصر عام 541م، ومنها انتقل عبر ميناء الإسكندرية إلى القسطنطينية فدمر الإمبراطورية البيزنطية، وكان ذلك بمثابة بداية لانهارها. وتكرر هذا الطاعون بعد ذلك بشكل دوري، كما امتد إلى معظم المدن المطلة على البحر الأبيض المتوسط. وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن طاعون جستنيان قد حصد أرواح زهاء 30 مليون شخص.

طاعون عمواس

يعتبر طاعون عمواس من أوائل وأشهر الأوبئة في المنطقة العربية. وقد ظهر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة 18هـ (640م)، في بلدة اسمها عمواس بالقرب من القدس، ومنها انتشر في منطقة الشام. وقد حصد حياة نحو 30 ألفاً من أهل الشام، بينهم عدد كبير من الصحابة. وترجع شهرة طاعون عمواس في كتب التراث والتاريخ إلى الطريقة التي تعامل بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع هذا الوباء، إذ امتنع عن دخول المدينة وأمر بعدم دخولها وعدم خروج المصابين منها. وهو ما يعده البعض أول الطرق العملية لتطبيق أسلوب الحجر الصحي وعزل المناطق الموبوءة منعاً لتفشي المرض، وهي الطريقة التي اتبعتها الصين فور اكتشاف تفشي فيروس كورونا في مدينة ووهان.

الموت الأسود: 1346-1353م

سافر الموت الأسود من آسيا إلى أوروبا، تاركاً الدمار في أعقابه. وتشير بعض التقديرات إلى أنه قضى على أكثر من نصف سكان أوروبا، مما جعله واحداً من أكثر الأمراض دموية في تاريخ البشرية. ونتج عن سلالة بكتيرية تسمى اليرسينيا الطاعونية، وشاعت تسميته بـ "الموت الأسود" لأنه يشكل بقعاً سوداء على الجلد، وانتشر عن طريق البراغيث في القوارض المصابة.

الجدري

هو من أكثر الأوبئة التي حصدت أرواح البشر على مر التاريخ. ويُعتقد أنه ظهر أول مرة في مصر قبل نحو 3 آلاف عام. وهو مرض شديد ومعدٍ، ويصيب كلا الجنسين في جميع الأعمار. ويظهر

على شكل بثرات كبيرة على الوجه وفي جميع أنحاء الجسم، وقد تفشى في أماكن متفرقة من أرجاء العالم، وفي حقب زمنية مختلفة، وحصد نحو 300 مليون إلى 500 مليون شخص.

الكوليرا

بسبب تلوث الأغذية والمياه وسوء التغذية ضرب وباء الكوليرا العالم عدة مرات، بداية من دلتا نهر الغانج بالهند في القرن التاسع عشر. وقد حصد أرواح الملايين حول العالم، حيث تشير إحصائيات منظمة الصحة العالمية أنه يُصيب سنوياً 1.3 مليون إلى 4 ملايين شخص، ويتسبب بمقتل 21 ألفاً إلى 143 ألفاً.

الإنفلونزا الإسبانية

تعتبر الإنفلونزا الإسبانية من أشهر الأوبئة في القرن العشرين وأكثرها حصداً للأرواح. ظهرت عام 1918م في أواخر الحرب العالمية الأولى لتضيف إلى العالم معاناة جديدة، إضافة إلى معاناته ويلات الحرب. وقد أصاب هذا الوباء نحو نصف مليار إنسان، وحصد منهم أرواح 50 مليون على الأقل حول العالم. وكان السبب الرئيسي للوفاة به هو الاختناق نتيجة نزيف والتهاب رئوي. والذي ساعد في انتشاره أكثر، هو عودة الجنود المصابين به من الحرب إلى مدنها وقراهم⁵.

إنفلونزا الخنازير: 2009-2010م

قتلت إنفلونزا الخنازير حوالي مليوني شخص بين عامي 1957م و1958م، ثم قتلت في عام 2009م ما يقدر بنحو 30000 شخص. وفي عام واحد، أصاب هذا الوباء ما يصل إلى 1.4 مليار شخص في جميع أنحاء العالم، كما سبب نشأة سلالة جديدة من فيروس H1N1 في المكسيك سنة 2009م. ولاحقاً صُنِع لقاح له وأُعلن عن احتوائه.

فيروسات كورونا

هي فصيلة واسعة الانتشار، معروفة بأنها تسبب نزلات البرد الشائعة أو الاعتلالات الأشد وطأة، مثل متلازمة الشرق الأوسط التنفسية (MERS) ومتلازمة الالتهاب الرئوي الحاد الوخيم (السارس).

5 - الموقع العلمي ساينس live science أبريل 2020م.

كوفيد- 19

هو المرض الناجم عن فيروس كورونا المستجد المسمى فيروس كورونا-سارس-. وقد اكتشفت منظمة الصحة العالمية هذا الفيروس لأول مرة في 31 ديسمبر 2019م، بعد الإبلاغ عن مجموعة من حالات الالتهاب الرئوي الفيروسي في يوهان الصينية. وينتشر هذا الفيروس عن طريق الرذاذ التنفسي المنطلق عندما يسعل المصاب به أو يعطس أو يتنفس أو يغني أو يتحدث. ويمكن استنشاق هذا الرذاذ أو دخوله في فم شخص قريب أو أنفه أو عينه.

أما أعراضه، فتتوقف على نوع الفيروس، لكن أكثرها شيوعاً هي: الأعراض التنفسية، والحمى، والسعال، وضيق النفس، وصعوبة التنفس. وفي الحالات الأشد وطأة، قد تسبب العدوى: الالتهاب الرئوي، والمتلازمة التنفسية الحادة الوخيمة، والفشل الكلوي، وحتى الوفاة.

وتكمن أهم التدابير الوقائية باتخاذ بعض الاحتياطات البسيطة، مثل التباعد البدني ولبس الكمامة، والحفاظ على التهوية الجيدة في الغرف، وتلافي التجمعات، والمخالطة عن قرب، وتنظيف اليدين بانتظام، والسعال في المرفق المشني أو في منديل ورقي.⁶

المبحث الثاني: البيئة الصحية في الإسلام وسبل المحافظة عليها

إن حفظ الصحة يشمل تدبير: المشرب، والملبس، والمسكن، والهواء، والنوم، واليقظة، والحركة، والسكون.

أولاً: الطهارة في الإسلام

لقد حث الإسلام على الاعتناء بنظافة البدن بصفة دائمة، فأوجب الاغتسال عند حدوث الجنابة، وبعد انقطاع دم الحيض والنفاس للمرأة، كما سن الاغتسال أيام الجمعة والأعياد، وعند لبس الإحرام ودخول مكة والطواف. فعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَأَحْسَنَ غُسْلَهُ، وَتَطَهَّرَ فَأَحْسَنَ طَهُّورَهُ، وَلَبَسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، وَمَسَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ طِيبٍ أَهْلِهِ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ، وَلَمْ يَلْغُ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ اثْنَيْنِ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ

6 - تقارير منظمة الصحة العالمية.

الأُخْرَى⁷. كما أمرنا الله تعالى بأخذ الزينة والاعتناء بطهارة الثوب، والتطيب وبخاصة في أماكن العبادة، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾⁸، وقال تعالى: ﴿وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾⁹، وقال صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطر الإيمان)¹⁰، وقال صلى الله عليه وسلم: (من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غُفِرَ لَهُ ما تقدم من ذنبه)¹¹، وقال صلى الله عليه وسلم: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟)، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)¹².

وقد أكدت الدكتورة "ماجدة عامر" - أستاذة المناعة بجامعة عين شمس - في بحث علمي حديث: أن الوضوء وسيلة فعالة جداً للتغلب على التعب والإرهاق، ويجدد نشاط الإنسان؛ وأن وضوء المسلم للصلاة يعيد توازن الطاقة التي تسري في مسارات جسمه. وبعد إجرائها لدراسات ميدانية، تبين لها أن الأنف مستودع لتكاثر كثير من الجراثيم؛ ولهذا ظهرت أنوف غالبية الذين يتوضأون باستمرار نظيفة طاهرة خالية من الجراثيم لخلو المزارع الجرثومية تماماً من أي نوع منها، بينما أظهرت أنوف الذين لا يتوضأون مزارع جرثومية ذات أنواع متعددة وبكميات كبيرة.

إن الاقتصاد في الماء والمحافظة على طهارته قضيتان مهمتان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحتى عندما يكون الماء متوفرًا ينصح بالاعتقاد في استعماله، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ بسعد رضي الله عنه وهو يتوضأ، فقال: (مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟)، قال: أفي الوضوء سرف؟ قَالَ: (نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ)¹³. كما نهى

7 - رواه أحمد بن حنبل.

8 - سورة البقرة، الآية: 220.

9 - سورة الأنفال، الآية: 11.

10 - رواه مسلم.

11 - رواه البخاري.

12 - رواه مسلم.

13 - رواه ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها.

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلويث المياه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلم قَالَ: (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه)¹⁴.

ثانيا: سنن الفطرة

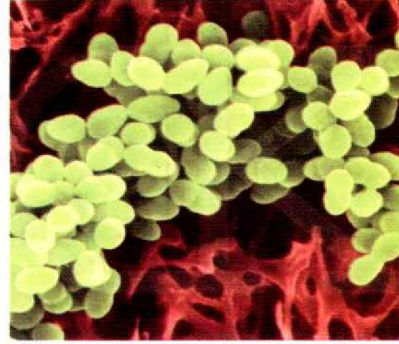
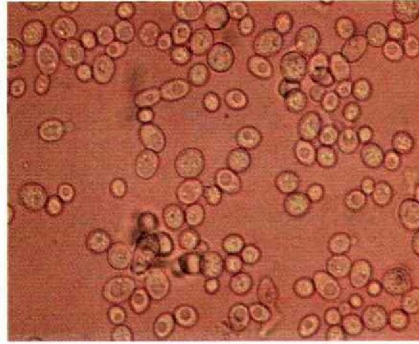
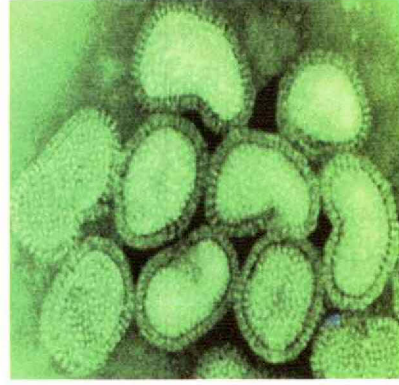
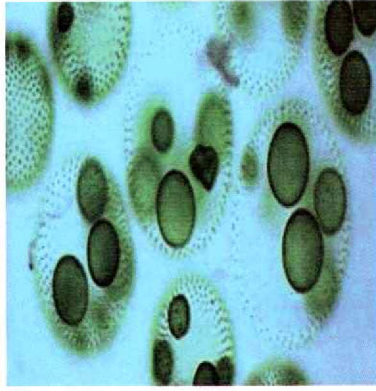
إن سنن الفطرة في الإسلام هي الصفات التي فطر الله تعالى الناس عليها، وقد ورد ذكرها في أحاديث نبوية، منها ما روته عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، والاستنشاق بالماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء)، يعني الاستنجاء بالماء. قال زكريا: قال مصعب بن شيبة: ونسيت العاشرة؛ إلا أن تكون المضمضة.¹⁵

ثم إن المواظبة على هذه السنن كما أثبتت دراسات علمية متقدمة يقي من الإصابة بالعديد من الأمراض، كأمراض الجلد والسعفات الفطرية والتهابات الغدد العرقية (عروسة الإبط)، كما يقي من الإصابة بالحشرات المتطفلة المسببة للأمراض الطفيلية. وقد أثبتت الدراسات الطبية الكثير من الفوائد للختان، بل بأنه وقاية من كثير من الأمراض المهلكة التي تكون منتشرة بكثرة بين غير المختونين، فهو يقي الأطفال من الإصابة بالتهاب المجاري البولية، وأيضا من الالتهابات الموضعية في القضيب.

وقد أظهرت التجارب العلمية العديدة حقائق مذهلة لكل عنصر من عناصر سنن الفطرة، وما لها من دور فعال في وقاية الإنسان من الفيروسات والأمراض، بما فيها السرطان والأمراض الجلدية، وكذا حماية الفم والأسنان والجهاز الهضمي من البكتيريا والفطريات بصورة كبيرة. ولم يتعارض الطب مع هذه السنن، بل أثبت العلم الحديث ما أقره الكتاب والسنة في شأنها.

14 - رواه البخاري.

15 - رواه أبو داود.



ثالثاً: الوقاية من الأمراض

حليب الأم:

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾¹⁶.

وقد أظهرت الدراسات العلمية أن حليب الأم يتميز بالخصائص التالية:

- يؤدي انخفاض تركيز الصوديوم في لبن الأم إلى حماية الرضيع من الجفاف.
- يتم امتصاص نسبة تتراوح ما بين 50٪ إلى 70٪ من الحديد الذي يحتوي عليه لبن الأم بينما لا تزيد هذه النسبة في حالة لبن البقرة عن 10٪.
- يحتوي لبن الأم على حامض البكولين، الذي يتماص مع الزنك ويؤدي ذلك إلى امتصاص الزنك من لبن الأم بشكل أكفأ من امتصاصه من لبن البقرة.

16 - سورة البقرة، الآية: 231.

- تعتبر نسبة الكالسيوم إلى الفوسفور في لبن الأم أكثر ملائمة لتمعدن العظام.
- يحتوي لبن الأم على نسبة أعلى من الأحماض الدهنية الأساسية، وتبلغ هذه النسبة 6.15% في لبن الأم، بينما لا تزيد عن 1.2% في لبن البقر.
- وإلى جانب هذه الخواص الكيميائية الحيوية، تتوفر في لبن الأم من العوامل الحيوية ما يجعله مقاوما للعدوى.

وقد أوصت منظمة الصحة العالمية في نشرة حديثة بالرضاعة الطبيعية لمدة عامين، وهي نفس المدة المذكورة في القرآن الكريم منذ 14 قرناً، كما أقرت بأن لبن الأم يسهم "في النماء الحسي والمعرفي وحماية الرضع من الأمراض المعدية والمزمنة"؛ وأن الاقتصار على الرضاعة الطبيعية يسهم "في الحد من وفيات الرضع الناجمة عن أمراض الطفولة الشائعة، مثل الإسهال أو الالتهاب الرئوي، ويساعد على الشفاء من الأمراض بسرعة"؛ وأنها تسهم "في تعزيز صحة الأمهات وعافيتهم، كما تساعد على تباعد الولادات وتحدّ من مخاطر الإصابة بالسرطان المبيضي أو سرطان الثدي، وتزيد من الموارد الأسرية والمجتمعية، كما أنّها من السبل التغذوية المأمونة التي لا تضرّ بالبيئة"؛ "وتتيح منافع صحية تدوم حتى مرحلة الكهولة". كما يوصى "على الصعيد السكاني، بالاقترار على تلك الرضاعة لتغذية الرضع في الأشهر الستة الأولى من حياتهم والاستمرار فيها بعد ذلك مع إعطاء الأغذية المكملّة المناسبة حتى بلوغ الطفل عامين من العمر أو أكثر من ذلك".

الصوم:

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿شهر رمضان الذي أنزل في القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه¹⁷﴾.

وقد أثبتت بحوث علمية حديثة أن الصوم يقوي جهاز المناعة، وبالتالي القدرة على مزيد من الفاعلية للتصدي للأمراض. وفي دراسة أخرى حديثة للدكتور "ماك فادون" - وهو من الأطباء العاملين الذين اهتموا بدراسة الصوم وأثره - قال فيها: "إن كل إنسان يحتاج إلى الصوم، وإن لم يكن

17 - سورة البقرة، الآية: 184.

مريضاً؛ لأن سموم الأغذية والأدوية تتجمع في الجسم فتجعله كالمريض وتثقله، فيقل نشاطه، فإذا صام الإنسان تخلص من أعباء هذه السموم، وشعر بنشاط وقوة لا عهد له بها من قبل".

كما يمثل الصوم فرصة لغرس معاني وعبارات إيجابية؛ لأن الاستعانة بالأذكار والدعاء وممارسة العبادات بانتظام، تسمح بإعادة برمجة حقيقية للجهاز العصبي والسلوكي، وتعديل التفكير وتغيير العادات، والتخلص من الاضطرابات النفسية.

اجتناب الخمر:

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾¹⁸.

وحسب ما توصلت إليه البحوث العلمية، فإن الخمر يؤدي إلى اختلال في طبيعة الأحياء داخل الفم (Flore buccale)، وإلى رائحة كريهة مصحوبة بأمراض اللثة والتهابات المريء والمعدة. كما أن 90٪ من سرطان الفم والبلعوم والحنجرة سببها الخمر، خصوصاً إذا كان مصاحباً للدخان. أيضاً يسبب الخمر تشحم الكبد وتلفه المؤدي للموت، وإلى أمراض البنكرياس والجهاز الهضمي.

وبالنسبة للجهاز العصبي، فالكحول يقتل الخلايا العصبية، ويؤدي إلى انقباض الأوعية الدموية في المخ. كما يؤدي لالتهاب البنكرياس، وارتفاع ضغط الدم، والسكتة الدماغية، وسرطان المريء، وسرطان الثدي، والتأثير على جهاز المناعة فيُضعفه، والتأثير على جنين الأم الحامل.

وقد أشارت مُنظمة الصحة العالمية إلى حقائق كثيرة حول أضرار شرب الخمر، منها: وفاة حوالي 3.3 مليون شخص سنوياً، وهذا يُشكل ما يُقارب 5.9٪ من الوفيات الإجمالية حول العالم. كما يُسبب الوفاة في عمر مُبكر للإنسان المُتعاطي لشربه.

التدخين وأثره على البيئة الصحية:

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾¹⁹، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي

18 - سورة المائدة، الآية: 92.

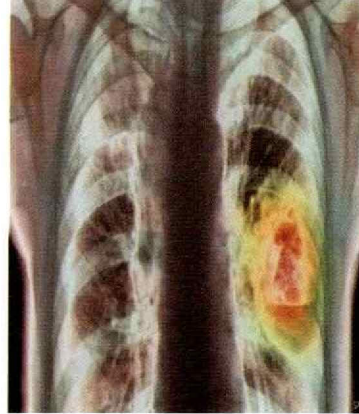
19 - سورة البقرة، الآية: 194.

الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث»²⁰.

ومن المعلوم علمياً أن التدخين يسبب تلوث الهواء؛ لوجود عدد كبير من المواد السامة فيه، أي ما يقارب أربعة آلاف مادة ضارة ومؤذية؛ ويفسد جمال البيئة، ونفاياته خطيرة، ناهيك عن تضرر غير المدخنين به (التدخين السلبي)، وخصوصاً الأطفال والنساء الحوامل.

وقد ذكرت منظمة الصحة العالمية في نشرتها لسنة 2014م الحقائق التالية عن التبغ:

- أنه يقتل نصف من يتعاطونه تقريباً، وهو سبب رئيسي للوفاة والاعتلال والفقر.
- أنه يؤدي كل عام، بحياة ستة ملايين نسمة تقريباً، منهم أكثر من خمسة ملايين ممن يتعاطونه أو سبق لهم تعاطيه، وأكثر من 600000 من غير المدخنين المعرضين لدخانه.
- أنه قاتل متدرج، وهو لوحده تسبب في 100 مليون وفاة في القرن العشرين، وخصوصاً تسببه المباشر في عدة أنواع من السرطان، منها سرطان الرئة والفم.



الوقاية من الأمراض الجنسية المتنتقلة:

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾²¹، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أتاباً﴾²².

20 - سورة الأعراف، الآية: 157.

21 - سورة الإسراء، الآية: 32.

22 - سورة الفرقان، الآية: 68.

وقد أوضحت جميع الدراسات الوبائية أن هناك أربع طرق رئيسية للعدوى بداء "فقدان المناعة المكتسب" أو "متلازمة العوز المناعي المكتسب"، هي: الاتصالات الجنسية وخاصة الغير مشروعة، وتعاطي المخدرات أو الأدوات الملوثة الثابتة للجلد، وعن طريق الدم الملوث ومشتقاته، ومن الأم المصابة بالعدوى إلى طفلها.

والوقاية من هذا الداء - التي هي خير علاج - تكون بالابتعاد عن الاتصال الجنسي الغير مشروع، وعن كل ما نهى الشرع عنه.

رابعا: علم الأوبئة

أشارت الأحاديث النبوية الشريفة إلى بعض الأمراض الفتاكة، كالطاعون والجذام. فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها)²³، وقال صلى الله عليه وسلم: (فر من المجذوم كما تفر من الأسد)²⁴.

وقد أثبت علم الأوبئة أن الطاعون مرض وبائي، وهو ثلاثة أنواع رئيسية: دبلي، وإنتاني دموي، ورتوي. كان معروفاً باسم "الموت الأسود" خلال العصور الوسطى، عامله جرثومة بشكل العصية، اكتشفها العالم (يرسين) سنة 1849م فسميت باسمه (عصية ييرسين). وكان يأتي بشكل جائحات تجتاح البلاد والعباد، وتحصد في طريقها الألوف من الناس. وهو يصيب الفئران عادة، ثم تنتقل جراثيمه منها إلى الإنسان بواسطة البراغيث، فتصيب العقد البلغمية في الآباط والمغابن والمراق، فتتورم ثم تتقرح فتصبح كالدمامل. وقد يصيب الرئتين مع العقد البلغمية أو بدونها، فيصبح خطيرا ومهلكا.

وقد طور المسلمون طرق مواجهتهم للطاعون والأوبئة فيما بعد، ففي العهد المملوكي ولمواجهة الأوبئة المنتشرة، والكثيرة التي أصابت أهالي الشام ومصر، عمد بعض السلاطين والميسورين من الناس بقصد الثواب والتقرب إلى الله، إلى بناء البيمارستانات في مدن الشام جميعها، لمداواة ورعاية المطعونين والمصابين بالأوبئة، كالحمى وغيرها؛ ولأن الناس كانت تموت بأعداد كبيرة

23 - رواه البخاري في صحيحه.

24 - رواه البخاري.

في فترة الوباء، فإن الجثث كانت تترك ثلاثة أيام أحياناً على الأرض ولا يوجد من يوارىها خوفاً من العدوى، ولذلك عمد بعض الحكام والأثرياء استجابة لتعاليم الدين الإسلامي، والتي تحض على دفن الميت بأسرع وقت ممكن حفاظاً على حرمة وكرامته، إلى إنشاء ما سمي بحوانيت أو مغاسل الموتى، والتي تهتم بتغسيل وتكفين الفقراء من موتى المسلمين، ثم يتم دفنهم وفق الشريعة الإسلامية.

البيئة والتلوث في عالمنا المعاصر

لقد أنتج تكدس السكان في المدن الكبرى أضراراً كثيرة. وقد تعجز الشوارع المزدهمة، ومحطات الوقود ومحطات تنقية المياه، ومحطات الصرف الصحي وغيرها، عن تلبية احتياجات هذا التضخم الهائل من السكان؛ وقد أدى التقدم الصناعي إلى إحداث ضغط هائل على كثير من الموارد الطبيعية، فلم تعد البيئة قادرة على تجديد مواردها واستهلاك النفايات الناتجة عن نشاطات الإنسان المختلفة. كما أن الدخان المتصاعد من المصانع والسيارات وحرق الوقود خصوصاً، يؤدي بصفة دائمة إلى تزايد تلوث الهواء، مما يشكل خطراً صحياً على صحة الإنسان، وبالأخص على الجهاز التنفسي.

ونظراً للتطور التكنولوجي الهائل الذي حصل على مستوى البشرية، فإن البيئة أصبحت هي الخاسر الأكبر في هذا العصر. فقد أدى إلقاء الفضلات والمخلفات الصناعية ومخلفاتها الكيميائية الخطيرة في المجاري المائية إلى تلوثها، كما أدى تلوث المياه إلى حدوث أضرار بالغة، ذات أخطار جسيمة على الكائنات الحية.

وهناك أيضاً تلوث للتربة، حدث بسبب تلوث سطح الأرض أساساً، نتيجة لتراكم مخلفات المصانع والمزارع ونفايات الإنسان، والاستخدام المفرط للمبيدات الحشرية ذات التأثير الجانبي القاتل على البكتيريا الموجودة في التربة، والتي تقوم بتحليل المواد العضوية إلى مركبات كيميائية بسيطة يمتصها النبات.

أما خطورة تعرض الجسم للأشعة، فترجع إلى تأين محتويات الجسم، حيث تتفاعل الأشعة المؤينة مع مكونات الخلية الحية، الأمر الذي يؤدي إلى اضطراب نشاطها الطبيعي، وإلى آثار مخربة ومدمرة للصحتين الجسدية والنفسية.

وهناك أيضا التلوث بالإشعاعات الذرية الطبيعية والصناعية، وقد ظهر هذا التلوث مع بداية استخدام الذرة في مجالات الحياة المختلفة، وخاصة في المجالين العسكري والصناعي، كحادث انفجار القنبلتين الذريتين على ناغازاكي وهيروشيما إبان الحرب العالمية الثانية.

كما أن هناك أنواع أخرى من الملوثات، مثل عنصر الاسترنتشيوم 90، الذي ينتج عن الانفجاريات النووية، ويتساقط على الأشجار والمراعي، فينتقل إلى الأغنام والماشية، ومنها إلى الإنسان.

المبحث الثالث: وباء كوفيد 19 إلى أين؟

تواصل دول العالم جهودها من أجل السيطرة على جائحة فيروس كورونا المستجد، إلا أن هذه الجهود تواجه صعوبات كبيرة، في ظل سرعة انتشار الوباء اللعين، والذي انطلق من مدينة ووهان الصينية في أواخر عام 2019م. وتحاول العديد من الدول حول العالم تسريع عملية تطعيم مواطنيها ضد فيروس كورونا المستجد «كوفيد 19»، من أجل الوصول إلى ما يعرف بـ«مناعة القطيع»، والسيطرة بشكل شبه كامل على المرض.

وقد أشارت آخر الأرقام الصادرة عن منظمة الصحة العالمية يوم الأحد 25 أبريل 2021م، إلى أن عدد حالات الإصابة بهذا الفيروس تجاوز 147 مليون حالة إصابة، وأودت مضاعفات الإصابة به بحياة ثلاثة ملايين و115 ألف و20 شخصاً في جميع أنحاء العالم، منذ بداية انتشار الجائحة، أما حالات التعافي فتقترب من 125 مليون حالة.

كما أشارت آخر الأخبار إلى ظهور سلالة متحورة جديدة من فيروس (كورونا) في الهند، أكثر فتكا وانتشارا من السلالتين البريطانية والجنوب الإفريقية، اللتين بتتا الرعب في كل أرجاء العالم، حيث أن معدل الانتشار بلغ أزيد من 70 في المائة. ومن ثم، فقد وضعت السلالة الجديدة السلطات الصحية الدولية أمام تحد جديد.

وقد أعلنت وزارة الصحة الهندية عن تسجيل رقم قياسي من الإصابات اليومية بكوفيد 19، بحصيلة بلغت 315 ألف إصابة تقريبا خلال أربع وعشرين ساعة، وهي أعلى حصيلة يومية في العالم في 21 أبريل 2021م.

ولهذا قررت السلطات المغربية إغلاق المنافذ الجوية في وجه القادمين من الهند، تبعا للحالة الوبائية الخطيرة بها.

المبحث الرابع: مستجدات الوضعية الوبائية بالمغرب

بلغ عدد المصابين بكوفيد 19 في المغرب (509363)، وعدد الوفيات (8992)، والحالات النشطة (5109)، ونسبة التعافي 97.2 في المائة (495262)، ونسبة الفتك 1.8 في المائة، والمستفيدون من الجرعة الأولى من التلقيح (4723635)، والمستفيدون من الجرعة الثانية من التلقيح (4217485)؛ وذلك حسب ما أعلنته وزارة الصحة المغربية في 25 أبريل 2021م.

وقد صرح السيد مصطفى الناجي، مدير مختبر الفيروسات بجامعة الحسن الثاني في الدار البيضاء، بأن الخروج من الأزمة رهين بتوفر اللقاح، وبلوغ المناعة الجماعية، التي يسعى المغرب بكل قوة إلى تحقيقها، وذلك بتلقيح 70 في المائة من المواطنين؛ وإلى حين الوصول إلى هذا الهدف، فإن المواطنين مطالبون بالالتزام بالإجراءات الوقائية والاحترازية، والتقليل من الحركة والتنقل.

وتجدر الإشارة إلى أن التطعيم هو طريقة بسيطة ومأمونة وفعالة لحماية الأشخاص من الأمراض الضارة قبل التعرض لها، ويستخدم وسائل الدفاع الطبيعية للجسم لبناء القدرة على مقاومة أمراض محددة، فضلا عن أنه يقوّي الجهاز المناعي. كما أن اللقاحات تدرب الجهاز المناعي على تكوين أضداد، تمامًا كما يحدث عندما يتعرض لمرض ما. ولكن، نظرا لأن اللقاحات تحتوي فقط على أشكال ميتة أو ضعيفة من الجراثيم، مثل الفيروسات أو البكتيريا، فإنها لا تسبب المرض. لهذا، فالتطعيم لا يزال يكتسي أهمية حاسمة في سياق جائحة كوفيد 19، ويعد مأمونا، كما أن آثاره الجانبية عادة ما تكون خفيفة ومؤقتة، مثل الشعور بألم في الذراع أو بحمى خفيفة. ويمكن أن تترتب عليه آثار جانبية أكثر خطورة، ولكن هذه الحالة نادرة جدا.²⁵

ولا ينبغي أبدا التردد في اللقاح أو رفضه، فقد يسبب ذلك استمرار تفشي الوباء وزيادة الوفيات. بل من الواجب علينا الإسراع إلى التطعيم سعيا لحماية النفس من الهلاك، وعدم إيذاء الآخرين والتسبب في وفاتهم، وخاصة الأشخاص المسنين والذين يعانون من الأمراض المزمنة ونقص المناعة، لأنهم أكثر عرضة لمضاعفات حادة للوباء أو الوفاة.

25 - منظمة الصحة العالمية.

خاتمة

لقد كرم الله بني آدم، وجعلهم خلائف في الأرض، فقال تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾²⁶، وخلق سبحانه وتعالى البيئة نقيّة، سليمة، نافعة، وسخرها للإنسان وأوجب عليه ضرورة المحافظة عليها.

وقد أثبتت بحوث أهل العلم التجريبي صدق ما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية، مما ينفع الناس ويقدم لهم ما به تتحقق طهارتهم ويحفظ صحتهم ووقايتهم من الأمراض.

ومن واجب العلماء تنوير المجتمع بتوجيهات ديننا الحنيف، التي ترغب في العلاج والتداوي، وكذا التي تنهى عن الفساد في الأرض، وعن الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وعن الإضرار بالغير والإضرار بالبيئة.

وختاما نقول: إن منهاج الإسلام في دفع المرض والوباء يتمثل أساسا في مسألتين:

أولا: الأخذ بالحیطة والوقاية قبل وقوع الإصابة، واجتناب كل ما حرمه الله سبحانه وتعالى، ونهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بغية تحقيق مناعة قوية قادرة على مقاومة الوباء. وكذلك اتباع ما تأمر به السلطات المعنية بتقديم التوجيهات الضرورية في هذا الشأن، كتجنب أماكن العدوى، والالتزام بقواعد الحجر الصحي.

ثانيا: العلاج بكل السبل الميسرة إن اعترى الجسم مرض أو وباء، مع الأخذ بجميع الأسباب المتاحة لتحقيق الشفاء. وأيضا اتباع ما يلزم لتفادي إيذاء الآخرين أو نقل العدوى إليهم، وذلك لأن إيذاءهم محرم شرعا. ومن ثم، يجب الحرص التام على اتباع توجيهات الأطباء، والصبر على البلاء، والتكافل مع باقي أفراد المجتمع للتغلب على هذا المصاب.

استراتيجية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

في تدبير جائحة كورونا (Covid 19)

استراتيجية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في تدبير جائحة كورونا (Covid 19)

لم تكن 2020م سنة عادية في تاريخ البشرية، فبمجرد أن أهلت بشائر العام الجديد حتى أخذت بوادر شؤم تستولي على الأوساط الصحية بظهور جائحة لم يعرف لها العالم مثيلاً من قبل، من حيث سرعة انتشارها وقوة فتكها بالأرواح بشكل غريب لا يكاد يصدق.

تقاعست دول وبادرت أخرى إلى محاولة إيجاد الحلول لهذا الوباء الذي أطلق عليه الفيروس التاجي التاسع عشر (Covid 19). بدأ بسبل الوقاية في انتظار إيجاد العلاج. وكانت المملكة المغربية سباقة إلى اتخاذ جميع التدابير الوقائية الممكنة بفضل اليقظة والتبصر وبعد النظر الذي تحلى به القرار الملكي بوضع استراتيجية استباقية عبئت لها كل القطاعات، والمؤسسات، والهيئات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والصحية مع توفير كل الموارد البشرية والآليات اللوجستية، التي من شأنها توفير شروط النجاعة في الأداء، والفاعلية في التصدي لهذا الوباء العضال.

ومن جملة المؤسسات بل من أهمها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية التي شاركت منذ البداية في جميع الاجتماعات التحضيرية التي عقدتها وزارة الداخلية مع باقي القطاعات والشركاء والفاعلين.

كما أنشأت الوزارة "خلية يقظة" على مستوى مديرياتها السبع من أجل وضع خطة عمل على مستوى الوزارة والمصالح والمؤسسات العلمية والتعليمية والثقافية التابعة لها.

وبمجرد إعلان حالة الطوارئ، وضعت الوزارة خطة عملها حيز التنفيذ بدقة وفعالية ومهنية. فاستصدرت فتوى من المجلس العلمي الأعلى لمعرفة موقف الشرع من حالات الجائحة والأوبئة، وما جرت به السنة ودأبت عليه الأمة الإسلامية في أزمنة الأوبئة الفتاكة والمعدية، كالطاعون والكوليرا وغيرها. وهذا نصها:

الحمد لله رب العالمين،

والصلاة والسلام على الرسول الأمين وعلى آله وصحبه الأكرمين

بناء على طلب الفتوى الموجه إلى المجلس العلمي الأعلى من أمير المؤمنين، حفظه الله، وهو الذي تشهد الأمة على رعايته لبيوت الله وتعلقه بها وحرصه على الزيادة منها وفتحها للمصلين؛

ونظرا للضرر الفادح الناجم عن الوباء الذي يحتاج العالم؛

واعتبارا لما صدر من توجيهات من الجهات المختصة، بما فيها وزارة الصحة، بهدف الحرص على الوقاية من الفيروس بإغلاق أماكن عمومية وخصوصية؛

واستلهاما من نصوص الشرع التي تؤكد على ضرورة حفظ الأبدان، وعلى تقديم دفع المضرة على جلب المصلحة؛

وعلمنا بأن من شروط الصلاة، ولاسيما في المساجد، حصول الطمأنينة، وحيث إن الخوف من هذا الوباء ينتفي معه شرط الطمأنينة.

لكل هذه الاعتبارات الشرعية والعقلية الاحترازية؛ فإن الهيئة العلمية للإفتاء بالمجلس العلمي الأعلى تفتي بما يلي:

- ضرورة إغلاق أبواب المساجد سواء بالنسبة للصلوات الخمس أو صلاة الجمعة، ابتداء من هذا اليوم الاثنين 16 مارس عام 2020م الموافق لـ 21 رجب 1441هـ؛
- طمأننة المواطنين والمواطنات بأن هذا الإجراء لن يستمر. وستعود الأمور إلى نصابها بإقامة الصلاة في المساجد بمجرد قرار السلطات المختصة بعودة الحالة الصحية إلى وضعها الطبيعي؛
- وجوب استمرار رفع الأذان في جميع المساجد.

حفظ الله مولانا أمير المؤمنين، وأبقاه حاميا لدين الأمة، حريصا على نفوسها من جميع أنواع التهلكات. والسلام.

وعلى إثر صدور هذه الفتوى تم إغلاق المساجد والزوايا والأضرحة، ثم المراكز الثقافية التابعة للوزارة مباشرة بعد المدارس العتيقة وحدد عدد الموظفين المسموح لهم بولوج الوزارة في 50٪ وكذا

بالنسبة للمندوبيات الجهوية والإقليمية والنظارات مع الحرص على احترام بروتوكولات الولوج والخروج والتباعد وارتداء الكمامات والتعقيم المستمر للمكاتب والفضاءات والسيارات والآليات الناقلة التابعة للوزارة. وتوقف التعامل بالأوراق لتعوضه الرقمنة والحواسيب.

ولم يسمح في المساجد إلا بالأذان.

وقد أسهمت الوزارة بقسط وافر من ميزانيتها سواء الوقفية أو العامة في صندوق الجائحة. وخصم من مرتبات الموظفين كل حسب درجته وسلمه. وذلك بعدما أمر أمير المؤمنين بإعفاء محلات الأكرية التابعة للأوقاف من سومة الكراء خلال مدة الحجر، ما عدا المكتراة من طرف الموظفين.

كما قامت المؤسسات التابعة للوزارة كالمعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، ومعهد محمد السادس للأئمة المرشدين والمرشدات، كل خصم من ميزانيته قدر ما في إمكانه خصمه بحيث لم تبق سوى ميزانية المشاريع قيد الإنجاز.

ورغم التشويش واللغط من جهات معروفة بتطرفها الديني أو تعاطفها مع التطرف، فإن البرنامج الذي سطرته الوزارة قد لقي تجاوبا تاما من المواطنين بمختلف أطيافهم وأصنافهم، خصوصا بعد صدور فتوى المجلس العلمي الأعلى، وبفضل البرنامج التوعوي الديني على مستوى إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم أو قناة السادسة.

فقد كانت البرامج التوعوية أو الوصلات التي تخللت كل البرامج والفقرات من الوضوح والتبليغ الدقيق بحيث تم التفاعل معها بشكل سريع وبجدية تامة هذا بالإضافة إلى ما قامت به القنوات الوطنية والإذاعات الجهوية بحيث أصبح شعار الفترة هو "الوقاية من الوباء جزء لا يتجزأ من الدين"، وجرت على الألسنة بعض القواعد الشرعية مثل: "دفع الضرر مقدم على جلب المصلحة"، "ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة"، إلخ...

وللتاريخ، وحتى تبقى هذه التجربة المريرة وما تم اتخاذه فيها من إجراءات احترازية، وبروتوكولات عملية أسهمت في التصدي بحزم لهذا الوباء الذي اجتاح بلدان العالم بأسرها غنيها وفقيرها، متقدمها ومتدنيها، ولم تملك له عقالا ولا منه فكاكا، بحيث كان يقتل كل يوم الآلاف

ومئات الآلاف في أرقى الدول وهي مكتوفة الأيدي بلا حول ولا قوة تضمد جرحاها وتحصي موتها وقد غلبت على أمرها رغم الإمكانيات اللاحدودة والتقدم العلمي المثالي والموارد المالية التي لا تنضب.

إغناء لذاكرة التاريخ ووفاء بأرشفة الأحداث والتجارب في كيفية التغلب على الملّات، والجوائح في قابل العصور، وإشراكا للأجيال والأمم اللاحقة، اختارت وزارة الأوقاف أن تنشر تجربتها في مجلة "دعوة الحق" لتبقى نموذجا حيا وحقيقيا لكل ملابسات وطوارئ هذه الجائحة القاتلة لا أعادها الله على الإنسانية أبدا. وهي تجربة واقعية تدخل ضمن الاستراتيجية الشاملة والموفقة لأمر المؤمنين، حفظه الله وأعز أمره، حيث استطاعت المملكة المغربية أن تظهر للعالم مدى نجاعة سياستها الصحية الاستباقية وكفاءة أطرها العلمية وانضباط أجهزتها ومؤسساتها، ومستوى وعي الشعب المغربي الذي وقف صامدا محتسبا صابرا لا تفرعه الملّات ولا ترهبه الأزمات رغم التداعيات الاقتصادية والاجتماعية القاسية التي تداعت عليه خلال سنة كاملة. فلم تزد سوى استبسالاً في المواجهة وصموداً في المواقف، وتراساً في الصفوف، وبقينا في النصر المبين على هذا الوباء وعلى غيره من كل ما قد يلطم بالأمة المغربية.

وهذه تفاصيل الإجراءات والتدابير التي اتخذتها الوزارة:

أولاً: حكمة تدبير الوباء:

أحدثت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بمقتضى قرار لوزير الأوقاف والشؤون الإسلامية رقم 93 بتاريخ 10 مارس 2020م لجنة يقظة مركزية، ولجان يقظة جهوية، ولجان يقظة إقليمية، للتصدي لوباء "كورونا" بالأماكن والمرافق والمصالح والمؤسسات التابعة لها.

تتكلف لجان اليقظة بما يلي:

- ✓ جمع المعلومات عن انتشار الوباء وتتبع تطوره؛
- ✓ تحديد الإجراءات اللازمة للوقاية من الوباء بالأماكن والمرافق والمصالح والمؤسسات التابعة للوزارة أو الموضوعة تحت وصايتها؛

- ✓ اتخاذ الإجراءات اللازمة لمحاصرة الوباء والتصدي له بهذه الأماكن والمرافق والمصالح والمؤسسات، عند الاقتضاء، بالتعاون والتنسيق مع المصالح الطبية المختصة؛
- ✓ تنسيق عمل لجان اليقظة وطنيا وجهويا وإقليميا وتتبع تنفيذ التدابير المتخذة في الموضوع؛
- ✓ تقييم مدى فاعلية التدابير المتخذة وتطويرها عند الاقتضاء.
- ✓ توقيف جميع المواسم الدينية.

ثانيا: تحديد نقاط اليقظة:

1 / المؤسسات الدينية والإدارية والوقفية والتعليمية التي تحتضن عددا كبيرا من المرتفقين أو المستعملين أو المستفيدين، ومن بينها المساجد والزوايا والأضرحة ومؤسسات التعليم العتيق والكتاتيب القرآنية والمقرات الإدارية:

- ✓ 52.000 مسجد؛
 - ✓ 1469 زاوية؛
 - ✓ 5038 ضريحا؛
 - ✓ 289 مؤسسة للتعليم العتيق (36.531 طالبا وطالبة)؛
 - ✓ 13.731 كتابا قرآنيا (441.487 مستفيدا)؛
 - ✓ 7077 مسجدا تحتضن دروس محو الأمية؛
 - ✓ جامعة القرويين والمعاهد والمدارس التابعة لها؛
 - ✓ مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة؛
 - ✓ مؤسسة محمد السادس للأعمال الاجتماعية للقيمين الدينيين.
- 2 / إقامة الشعائر الدينية بالمساجد من الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد ودروس محو الأمية وغيرها من الأنشطة الدينية والتعليمية كالمحاضرات والندوات التي تستقطب عموم المواطنين في هذه الأماكن.

أ- التدابير الوقائية بالبنائات الدينية والتعليمية والإدارية:

- ✓ تدعيم المراقبة بجميع البنائات الدينية والتعليمية والإدارية التي تشرف على تدبيرها وتسييرها الوزارة؛

✓ تحسيس مستعمليها والمستفيدين منها للالتزام بقواعد النظافة العامة، من خلال إجراءات وقائية بسيطة تحمي من انتقال العدوى منها:

- ✓ غسل اليدين بالماء والصابون بصفة منتظمة؛
- ✓ عدم الملامسة والاحتكاك بالمصابين المحتملين، أو الأشخاص المصابين بأعراض تنفسية؛
- ✓ تعبئة خاصة للوقاية من انتشار الفيروس بالمباني سالفة الذكر عبر اتخاذ التدابير اللازمة، ومنها بصفة خاصة:

- تكثيف عمليات النظافة خاصة بالمرافق الصحية؛
- تعقيم الأماكن التي يستعملها المواطنون: مقابض الأبواب، الصنابير،... كلما دعت الضرورة إلى ذلك، بالمواد التي توصي بها المصالح الصحية؛
- إغلاق المراحيض (أو الاستغناء عن أدوات الوضوء من أواني الوضوء وممثلاتها)؛
- سحب أدوات وكؤوس الشرب من المساجد؛
- سحب الألبسة الموضوعة بجناح النساء؛
- سحب السبح وأحجار التيمم.
- ✓ إلقاء خطبة الجمعة موحدة بجميع مساجد المملكة.
- ✓ توقيف لقاءات تأطير الحجاج.

ب- الوسائل والإجراءات الوقائية من خطر انتشار وباء "كورونا" المستجد بالإدارات التابعة للوزارة:

- ✓ تدعيم المراقبة بالإدارة المركزية والملحقات الإدارية التابعة لها؛
- ✓ غسل اليدين بالماء والصابون بصفة منتظمة؛
- ✓ عدم الملامسة والاحتكاك بالمصابين المحتملين، أو الأشخاص المصابين بأعراض تنفسية؛
- ✓ الاقتصار، في التحية بين الأشخاص، على عبارة "السلام عليكم"، مع الحرص على تفادي المصافحة؛

✓ تعبئة خاصة للوقاية من انتشار الفيروس بالمباني سالفة الذكر عن طريق:

- تكثيف عمليات النظافة وخاصة بالمرافق الصحية؛

▪ تعقيم جميع الأماكن (مقابض الأبواب، الصنابير...) كلما دعت الضرورة إلى ذلك، بالمواد التي توصي بها المصالح الصحية.

وتنفيذا للقرارات المتخذة في موضوع حالة الطوارئ الصحية، أذنت الوزارة للموظفين والأعوان بتنظيم حضورهم بالتناوب وفق ما يقدره رؤساؤهم سواء فيما يتعلق بعددهم أو أيام حضور وغياب كل فريق.

ج- إغلاق المساجد مؤقتا:

بناء على طلب الفتوى الموجهة إلى المجلس العلمي الأعلى من مولانا أمير المؤمنين، حفظه الله، وهو الذي تشهد الأمة على رعايته لبيوت الله، وتعلقه بها وحرصه على الزيادة منها وفتحها للمصلين؛

ونظرا للضرر الفادح الناجم عن الوباء الذي يحتاج العالم؛

واعتبارا لما صدر من توجيهات من الجهات المختصة، بما فيها وزارة الصحة، بهدف الحرص على الوقاية من الفيروس بإغلاق أماكن عمومية وخصوصية؛

واستلهاما من نصوص الشرع التي تؤكد على ضرورة حفظ الأبدان، وعلى تقديم دفع المضرة على جلب المصلحة؛

وعلمًا بأن من شروط الصلاة، ولا سيما في المساجد، حصول الطمأنينة، وحيث إن الخوف من هذا الوباء ينتفي مع شرط الطمأنينة؛

لكل هذه الاعتبارات الشرعية والعقلية الاحترازية، فإن الهيئة العلمية للإفتاء بالمجلس العلمي الأعلى تفتي بما يلي:

▪ ضرورة إغلاق أبواب المساجد سواء بالنسبة للصلوات الخمس أو صلاة الجمعة، ابتداء من يوم الإثنين 21 رجب 1441هـ الموافق لـ 16 مارس 2020م؛

▪ طمأننة المواطنين والمواطنات بأن هذا الإجراء لن يستمر، وستعود الأمور إلى نصابها بإقامة الصلاة في المساجد بمجرد قرار السلطات المختصة بعودة الحالة الصحية إلى وضعها الطبيعي؛

▪ وجوب استمرار رفع الأذان في جميع المساجد.

د- توقيف الدراسة بالمؤسسات التعليمية التابعة للوزارة:

في إطار الإجراءات الاستباقية والاحترازية الهادفة إلى الحد من العدوى وانتشار "وباء كورونا" (كوفيد 19) قررت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ابتداء من يوم الاثنين 16 مارس 2020م وحتى إشعار آخر، توقيف الدراسة بالمؤسسات التربوية التابعة لجامعة القرويين، وبمعاهد ومدارس التعليم العتيق، والكتاتيب القرآنية، ودروس محو الأمية بالمساجد، وفضاءات التعليم الأولي العتيق، سواء كانت هذه المؤسسات عامة أو خاصة.

هـ- إغلاق المتاحف الوقفية والمرافق التابعة للمركبات الإدارية الثقافية:

في إطار الإجراءات الاستباقية والاحترازية الهادفة إلى الحد من العدوى وانتشار "وباء كورونا" (كوفيد 19)، تقرر إغلاق المتاحف الوطنية والمرافق الثقافية التابعة للمركبات الإدارية والثقافية في وجه العموم، وعدم الترخيص لأي تظاهرة ثقافية أو غيرها بهذه المؤسسات.

و- ضمان الاستمرارية البيداغوجية لمؤسسات التعليم العتيق:

على إثر توقيف الدراسة بالكتاتيب القرآنية وفضاءات التعليم الأولي العتيق، ومعاهد ومدارس التعليم المدرسي والنهائي العتيق العامة منها والخاصة، اتخذت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تدابير عاجلة لتمكين جميع التلميذات والتلاميذ والطالبات والطلبة من تتبع ومواكبة دروسهم، إذ خصصت منصة للتعليم عن بعد خاصة بالتعليم العتيق تحمل عنوان douroussi.ma تتضمن دروسا مصورة وملخصات مكتوبة لجميع الدروس المقررة في النصف الثاني من الدورة الثانية للسنة الدراسية الحالية 2019/2020م بجميع أطوار ومستويات التعليم العتيق، ويمكن كذلك الولوج إلى هذه المنصة عبر موقع الوزارة على الإنترنت www.habous.gov.ma.

ي- ضمان استمرارية دروس محو الأمية عن بعد:

اتخذت الوزارة الإجراءات الضرورية لتقديم دروس محو الأمية بواسطة التلفاز والإنترنت على "قناة محمد السادس للقرآن الكريم" و"القناة السادسة"، وعلى موقعها على شبكة الإنترنت.

• <http://www.habous.gov.ma/alphabetisation/>

• <http://edhh.konosys.com/konosys>

- تتبع الوزارة لوضعية 37 قيما دينيا بمدينة سبتة المحتلة ليستمروا في مزاولة مهامهم خاصة رفع الأذان.

- في إطار التعبئة الوطنية لمواجهة تداعيات فيروس كورونا "كوفيد-19" تبرع لفائدة الصندوق الخاص بتدبير جائحة فيروس كورونا "كوفيد-19" الذي تم إحداثه بتعليمات جلالة الملك محمد السادس، حفظه الله، كل من السادة:

▪ الكاتب العام للوزارة براتب شهر واحد؛
▪ المدراء المركزيون، والمندوبون الجهويون للشؤون الإسلامية، ومدير مؤسسة محمد السادس للنهوض بالأعمال الاجتماعية للقيمين الدينيين، ومدير مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف بنصف راتب الشهر.

- انطلاق عملية تسجيل طلبة وطالبات التعليم العتيق على منصة www.douroussi.ma؛

- وضع رهن إشارة المستشفى الجامعي بوجدة مخزناً تابعاً للمسجد بناء على طلبه.

- أعطت الوزارة انطلاقة لعملية واسعة النطاق لتنظيف وتعقيم المساجد.

ثالثاً: إعفاء الأوقاف مكثري بعض عقاراتها من أداء الواجبات الكرائية:

في إطار العناية المولوية الموصولة التي يوليها أمير المؤمنين، الناظر الأعلى للأوقاف، صاحب الجلالة الملك محمد السادس أعزه الله للفئات المتضررة من آثار جائحة فيروس كورونا "كوفيد 19"، تفضل حفظه الله فقرر إعفاء مكثري المحلات الحبسية المخصصة للتجارة والحرف والمهن والخدمات، والسكنى ما عدا للموظفين، من أداء الواجبات الكرائية، ويسري مفعول هذا القرار الملكي السامي طيلة مدة الحجر الصحي.

رابعاً: بيان المجلس العلمي الأعلى بخصوص شهر رمضان:

مع اقتراب شهر رمضان، شهر المبرة والغفران، يستحضر المجلس العلمي الأعلى ما يُصاحب إحياء هذا الشهر المعظم، في المملكة المغربية، من مظاهر التدين، لاسيما تتبع الدروس الحسنية المنيقة برئاسة مولانا أمير المؤمنين حفظه الله، والإقبال على الصلوات في المساجد، وقيام التراويح، واجتهاد العشر الأواخر من الشهر، وما فيها من إحياء ليلة القدر المباركة، ثم الخروج لصلاة العيد.

يستحضر المجلس العلمي الأعلى هذه المظاهر وبلدنا، من جملة بلدان الدنيا، يعيش أحوال الاحتراز من الوباء وما وجب بسببه من منع التجمعات المنذرة بخطر العدوى المهدد للصحة، بل والمهدد للحياة، الأمر الذي بمقتضاه أصدر المجلس العلمي الأعلى فتوى بناء على طلب أمير المؤمنين أعزه الله حيث نصت على ضرورة إغلاق المساجد، وبناء على هذه الضرورة نفسها أوصت السلطات الصحية والإدارية بلزوم المنازل وعدم الخروج إلا عند الحاجة القصوى.

وفي ضوء هذا الاستحضار وهذه الإكراهات، فإن المجلس العلمي الأعلى يصدر هذا البيان ليذكر بما يلي:

• أولا: أن الحفاظ على الحياة من جميع المهالك مقدّم شرعا على ما عداه من الأعمال بما فيها الاجتماع للنوافل وسنن العبادات؛

• ثانيا: أن الإمامة العظمى إمارة المؤمنين رفيقة بنا في حماية حياتنا أولا وفي قيامنا بديننا ثانيا، وهي رقيقة على الوضع الصحي في المملكة، وهي أحرص ما تكون على فتح المساجد من ضمن العودة إلى الحياة العادية متى توفرت الشروط؛

• ثالثا: أن الأدب مع أحكام الشرع يقتضي الامتنال لأمر إمام الأمة ونصيحته والعمل بتوجيهاته؛

• رابعا: أن العمل مع الله، مهما كان نوع هذا العمل، لا يسقط أجره بعدم الاستطاعة حتى ولو كان العمل فرضا، مثل الحج، وكذلك الأمر في مختلف رخص الشرع، فبالأحرى ألا يسقط الأجر فيما انعقدت عليه النوايا وتعذر عملا من أعمال السنة، ومنها صلاة التراويح وصلاة العيد؛

• خامسا: أن عدم الخروج إلى صلوات التراويح قد يعوضه إقامتها في المنازل فرادى أو جماعة مع الأهل الذين لا تُحشى عواقب الاختلاط بهم، ومعلوم شرعا أن الجماعة في الصلاة ما زاد عن الواحد.

• سادسا: أن استحضار الرضا بحكم الله تعالى من شأنه أن يحمي من أي شعور مخالف للأحكام المشار إليها.

والمجلس الأعلى، إذ يُبين هذه الأحكام، يهيب بالناس أن يتوجَّهوا إلى الله تعالى بالدعاء لأن يُعجل برفع البلاء وكشف الغمة، إنه سبحانه لطيف بعباده، مهيمن على أمره.

خامسا: بيان المجلس العلمي الأعلى بخصوص صلاة العيد:

المجلس العلمي الأعلى يصدر هذا البيان لإقامة صلاة العيد في المنازل والبيوت على الكيفية المشروعة رعايا للظروف الاستثنائية المرتبطة بتفشي وباء كورونا.

سادسا: الإجراءات التنظيمية بعد رفع حالة الطوارئ:

1) مرحلة الإعدادات الأولية

✓ التعاون والتنسيق التام مع السلطات المحلية لتنفيذ الإجراءات الاحترازية والوقائية من فيروس كوفيد 19؛

✓ التنسيق مع السلطات الإدارية لتكوين لجان محلية بآبواب المساجد للسهر على مراعاة الحالة الوبائية المحلية وشروط المراقبة الصحية؛

✓ تعبئة جميع الإمكانيات البشرية من موظفين وأئمة مرشدين ومرشدات ومتفقي المساجد والقيمين الدينيين لهذه الغاية؛

✓ إلزام خلية اليقظة على مستوى كل مندوبية برفع تقرير يومي حول الحالة الوبائية.

2) الإجراءات المتعلقة بإقامة الصلوات الخمس بالمساجد

✓ رفع عدد المساجد المفتوحة إلى عشرة آلاف مسجد موزعة على مجموع التراب الوطني لأداء الصلوات الخمس؛

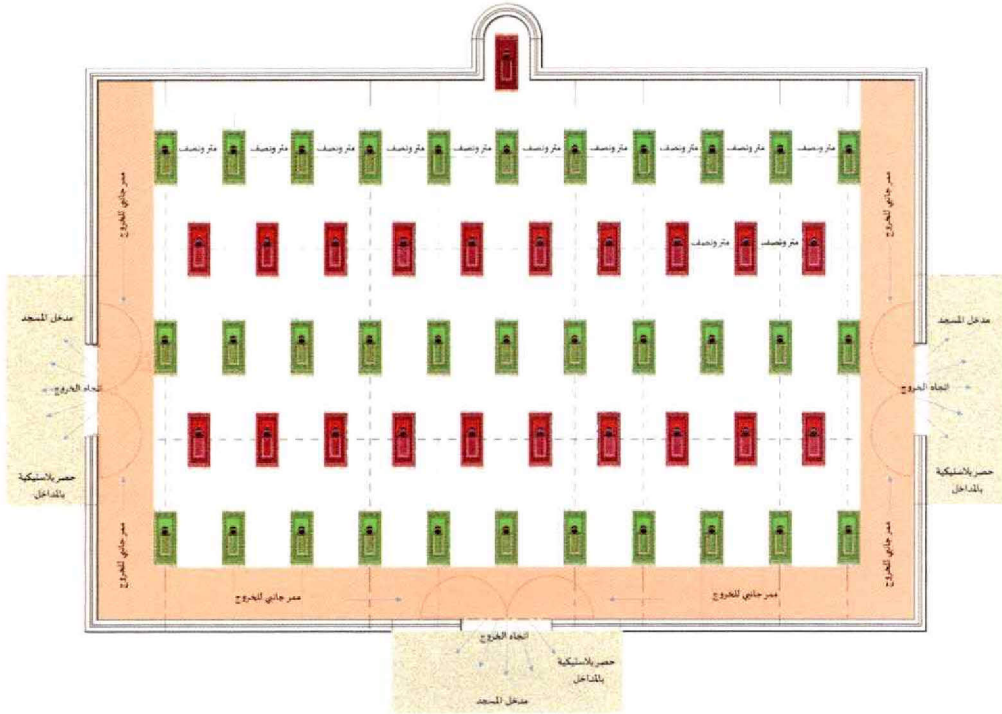
✓ تعليق قائمة المساجد التي ستفتح في وجه المصلين على أبواب جميع المساجد، ونشر هذه القوائم بموقع الوزارة بالإنترنت؛

✓ فتح المساجد 15 دقيقة قبل دخول وقت الصلاة؛

✓ إقامة الصلاة 10 دقائق بعد رفع الأذان؛

✓ إقفال المساجد فور الانتهاء من الصلاة (لا تصل أي نوافل بالمساجد)؛

- ✓ قراءة الحزب الراتب بالمساجد المفتوحة كما جاء بالمذكرة عدد 1/14/2020؛
- ✓ يسمح بصلاة الجنازة مع مراعاة التدابير الوقائية وتفادي التجمعات والاحتفاظ؛
- ✓ لا يسمح باستئناف الأنشطة الدينية ودروس الوعظ والإرشاد والكراسي العلمية وتحفيظ القرآن ودروس محو الأمية بالمساجد ومرافقها والزوايا والأضرحة.
- (3) الإجراءات المتعلقة بإقامة صلاة الجمعة
 - ✓ إقامة صلاة الجمعة بالمساجد الجامعة المفتوحة ابتداء من 16 أكتوبر 2020م؛
 - ✓ فتح المساجد الجامعة 20 دقيقة قبل دخول وقت الصلاة ليوم الجمعة؛
 - ✓ رفع الأذان عند دخول وقت الصلاة؛
 - ✓ إلقاء خطبة الجمعة (على ألا تتعدى خطبتا الجمعة 15 دقيقة)؛
 - ✓ إقفال المساجد فور الانتهاء من صلاة الجمعة.
- (4) الإجراءات المتعلقة بتهيئة المساجد
 - ✓ اتخاذ التدابير اللازمة لتفادي الازدحام أو التدافع عند دخول وخروج المصلين من المساجد؛
 - ✓ تحديد مواقع الصلاة للمصلين، كلما أمكن ذلك، لاحترام مسافة الأمان بينهم والتي يجب ألا تقل عن متر ونصف؛



- ✓ توفير ممرات جانبية بالمسجد تسمح بالخروج دون الحاجة إلى المرور بين المصلين؛
- ✓ وضع حصر بلاستيكية أمام أبواب المساجد الكبرى، كلما دعت الضرورة لذلك، لفسح المجال لأكبر عدد من المصلين لخلع أو احتذاء الأحذية بعيداً عند عتبات المسجد؛
- ✓ تكثيف عمليات النظافة بالمساجد؛
- ✓ تكثيف تعقيم جميع الأماكن والتجهيزات بالمواد التي توصي بها المصالح الصحية؛
- ✓ التنسيق مع السلطات الإدارية لكي توفر التجهيزات الضرورية (أجهزة قياس الحرارة ...)
- بمداخل قاعات الصلاة الخاصة بالرجال وكذا بمداخل قاعات الصلاة الخاصة بالنساء؛
- ✓ إرشاد المصلين لغسل أيديهم بالماء والصابون قبل التوجه إلى المساجد؛
- ✓ الحرص على فتح أبواب المساجد ونوافذها لتوفير التهوية الجيدة بها، وعدم تشغيل المكيفات؛
- ✓ الإبقاء على إغلاق المرافق الصحية (الميضآت والمراحيض)؛

5) الإجراءات المتعلقة بالقيمين الدينيين

- ✓ إبلاغ القيمين الدينيين بالإجراءات الاحترازية الواردة في بلاغ ومذكرة الوزارة عدد 11 بتاريخ 08 يوليوز 2020م وبهذا البروتوكول، ودعوتهم إلى الحرص على التنفيذ السليم لها؛
- ✓ الإنابة عن القيمين الدينيين كبار السن أو الذين يعانون من أمراض مزمنة؛
- ✓ تحسيس القيمين الدينيين بالالتزام بالقواعد الصحية التالية:
 - قياس حرارة الجسم والتأكد من عدم ظهور أية أعراض للفيروس مثل ارتفاع درجة الحرارة والسعال الجاف والأعراض الأخرى؛
 - عدم الحضور إذا ظهرت عليهم أعراض الوباء أو إذا اتصلوا بأشخاص مصابين، وإخبار المندوبية بذلك؛
 - ارتداء الكمامة وفق الكيفية الصحيحة؛
 - الاقتصار على الإمام والمؤذن لدخول المقصورة وتجنب التجمعات أو الاجتماعات بها مع الحرص على فتح نوافذها وتهويتها؛
 - احترام مسافة الأمان والإرشادات؛
 - تعقيم اليدين عند دخول المسجد والحفاظ على نظافتهما باستمرار؛
 - الحرص على عدم لمس الفم أو الأنف أو العينين في حالة عدم التأكد من نظافة اليدين؛
 - تغطية الأنف والفم عند السعال باستخدام منديل ورقي أو كوع اليد؛
 - تفادي الاختلاط مع المصابين ومنع التجمعات غير الضرورية؛
 - عدم الملامسة والاحتكاك بالمصابين المحتملين، أو الأشخاص المصابين بأعراض تنفسية.

6) الإجراءات المتعلقة بتحسيس المصلين والتواصل معهم

توفير الملصقات التوعوية:

الحرص على إشهار الملصقات التوعوية الصادرة عن الوزارة بمدخل المساجد ولوحات الإعلانات الخاصة بها.

بث شريط مصور من طرف الوزارة:

حرص الوزارة على بث شريط على قناة السادسة يوضح كيفية التنفيذ السليم للإجراءات الاحترازية عند الذهاب إلى المسجد.

ديوان العبد

فَشُكْرًا إِلَى السَّادِسِ الْمُرْتَضَى..!

شعر: ذ. محمد البلغمي - فاس.

وَنَرَجُوهُ رَفَعًا لِهَذَا الْبَلَاءِ
وَعَطَّى بَلِيلِهِ وَجْهَ السَّمَاءِ
يَهْدِدُ عَالَمَنَا بِالْفَنَاءِ
وَيَسْأَلُهَا مَنْ لَذِيذِ الْهَتَاءِ
وَلَيْسَ لَنَا مِنْهُ أَيُّ احْتِمَاءِ
يُبْثُّ جَرَائِمَهُ فِي خَفَاءِ
كَأَنَّ حَيَاتَهُ دُونَ انْتِهَاءِ
وَلَا الطَّبَّ عَالَجُهُ بِالِدَوَاءِ
يُدَبِّرُ فِي مُلْكِهِ مَا يَشَاءُ
لَا يَجَادِ مَضِلٌّ لِهَذَا الْوَبَاءِ
كَعَادَتِهِ إِنْ دَهَانَا ابْتِلَاءُ
لِتَحْصِيْنَ صِحَّتِهِ فِي اكْتِفَاءِ
بِهَذَا لِلشُّعُوبِ هُدًى .. وَاقْتِدَاءِ
يَعِيشُ حَيَاتَهُ دُونَ عَنَاءِ
وَدَعَا سُمَّ سَكَاةَا فِي سَخَاءِ
وَإِفْرِقِيَّ وَطَنًا وَأَنْتِمَاءِ
يُنِيرُ الطَّرِيقَ .. كَبَدْرِ السَّنَاءِ
وَكَانُوا الْمِثَالُ لَنَا فِي الْفِدَاءِ

إِلَى اللَّهِ نَدْعُو بِصِدْقِ الدُّعَاءِ
فَقَدْ صَجَّتِ الْأَرْضُ مِنْ هَوْلِهِ
وَأَمْسَى "كُرُونَا" لَهُ خَطَرُ
وَيَذِلُّ كَاللَّصِّ نَحْوَ الصُّدُورِ
يُمِيتُ الْكَبِيرَ .. وَيُعْذِي الصَّغِيرَ
فَيَأْلَهُ مِنْ فَاتِكِ صَامِتٍ
يُطَوِّرُ نَفْسَهُ فِي كُلِّ حِينٍ
فَلَا الْعِلْمُ أَوْقَفَ مِنْ رَحْفِهِ
وَلَكِنَّ رَبِّي الْعَلِيمَ بَنَانَا
فَقَدْ أَلْهِمَ اللَّهُ بَعْضَ الْعُقُولِ
وَسَارَعَ لِلْخَيْرِ عَاهِلُنَا
فَوَقَّرَ لِلشَّعْبِ مَا يَنْبَغِي
وَأَضَحَّتْ نَتَائِجُ خُطَّتِهِ
وَصَارَ الْجَمِيعُ بِفَضْلِ اللَّقَاحِ
وَأَثَرِ بِالْعَوْنِ إِفْرِيقَانَا
فَعَاهِلُنَا عَلَوِيُّ الْأُصُولِ
لَقَدْ كَانَ دَوْمًا لَنَا رَائِدًا
فَشُكْرًا لِمَنْ جَنَّدُوا نَفْسَهُمْ

فَقَدْ وَاجَهُوا الدَّاءَ فِي هَمَّةٍ
وَشُكْرًا إِلَى السَّادِسِ الْمُرتَضَى
لَقَدْ قَدَّرَ الشَّعْبُ أَعْمَالَهُ
فَيَارَبَّنَا .. احْفَظْ مَلِيكَ الْبِلَادِ
إِلَهِي .. وَاجْعَلْ كِتَابَ الْهُدَى
وَوَفِّقْ أَمِيرَ الْحَمَى حَسَنًا
فِيَّكَ يَا رَبِّ .. نَعْمَ النَّصِيرُ

وَأَبْلَوْا لِصَدِّهِ حُسْنَ الْبَلَاءِ
مُحَمَّدُ الْفَذِّ رَمَزِ الْعِلَاءِ
وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِصَدَقِ الثَّنَاءِ
وَجَازَهُ عَنَّا بِخَيْرِ الْجَزَاءِ
لَهُ فِي حَيَاتِهِ خَيْرٌ وَقَاءِ
وَسَدَّدْ خُطَاهُ لِنَيْلِ الرَّجَاءِ
وَنَعْمَ الْمُجِيبُ لِكُلِّ دُعَاءِ

أم معبد¹ كرري أوصافه - صلى الله عليه وسلم -

شعر: عبد الكريم الوزاني.

يَا أُمَّ مَعْبَدٍ كَرَّرِي أَوْصَافَهُ
فَالضَّرْعُ جَفَّ وَشَاتُنَا عَجْفَاءُ
مِنْ شَرِّ أُوْبَيَّةٍ تَفَاقَمَ عَلَيْهَا
لَا الْبُغْضُ فَارَقَهَا وَلَا الْإِعْيَاءُ
يَتَقَوَّضُ الْإِلْحَادُ، تَحْتَ نِعَالِهَا
فَتَخِرُّ سَاجِدَةً لَهَا الْأَرْجَاءُ
دَارَ الزَّمَانِ وَهُوَ فَرْدٌ مُفْرَدٌ
مِنْ صِفَرِهِ تَتَنَاسَلُ الْأُوبَاءُ
وَيُلِّ لِكُلِّ مُطَفِّفٍ وَخِصَالِهِ
وَلِكُلِّ غَافِلَةٍ بِهَا خُرُسَاءُ
إِذْ قَوْلُهُمْ رَفَعَ وَخَفَضَ فَعَلُّهُمْ
ثَجُّ الْحَقِيقَةِ كَوُكَبٌ وَضَاءُ
رَبَّاهُ إِنَّ الْفَاجِعَاتِ تَوَاتَرَتْ
وَتَطَاوَلَتْ بِكَوَارِثٍ، عَجْمَاءُ

1- أم معبد، الخزاعية التي حلب لها رسول الله صلى الله عليه وسلم شاتها العجفاء ... وصفته بأدق ما أعطاه الله من بهاء.

حَلَّ الْمَصَابُ وَدَمَدَمَتْ أَيَّامُهُ
فَالْقَوْمُ صَرَعى وَالثَّرَى غَبْرَاءُ
بِكَ نَسْتَجِيرُ. وَبِالْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ
فَالْيَاكَ مَرْجِعُنَا وَفِيكَ رَجَاءُ
فَاغْدُقْ بِمَا غَدَقْتَ بِهِ خُزْعِيَّةَ
فَالضَّرْعُ جَفَّ وَشَاتُنَا عَجْفَاءُ

فهرس العدد:

- 5 افتتاحية
- في أركيولوجيا الأوبئة وموقف سلاطين المغرب وملوكه العلويين
- 7 ذ. سمير بوزويطة
- بعض أسباب انتشار الأوبئة وطرق العدوى وأساليب مواجهتها من طرف المغاربة وملوكهم في العصر العلوي
- 21 ذ. أحمد إيشرخان
- الأوبئة والطواعين وسبل مقاومتها عند سلاطين المغرب
- 35 ذ. عبد العالي ملوك
- المولى سليمان والطواعين بين الخوف من الوباء والخوف على الدين
- 53 ذ. سعيد الحجي
- القواعد الشرعية الضابطة لفتاوى وباء كورونا
- 65 ذ. إدريس الزعري المباركي
- التوجيهات الشرعية في زمن الوباء
- 83 ذ. إدريس الفاسي الفهري

- الأوبئة بين الأطباء والفقهاء: تأملات في رسالة للشيخ مَرعي بن يوسف الكَرَمي عنوانها:
(ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون).

101 ذ. سعيد المغناوي

- قراءة في مخطوط: "وصية الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد" لأبي عمرو
محمد بن منظور القيسي المتوفى عام: (889هـ).

125 ذ. نور الدين لرجي

- حفظ صحة الأبدان من الأمراض والأوبئة في الإسلام

133 د. سعد الصقلي الحسيني

- استراتيجية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في تدبير جائحة كورونا (Covid 19) 153

ديوان العدد

- فَشْكُراً إِلَى السَّادِسِ الْمُرتَضَى ..!

169 شعر: ذ. محمد البلغمي

أم معبد كرري أوصافه - صلى الله عليه وسلم -

171 شعر: عبد الكريم الوزاني

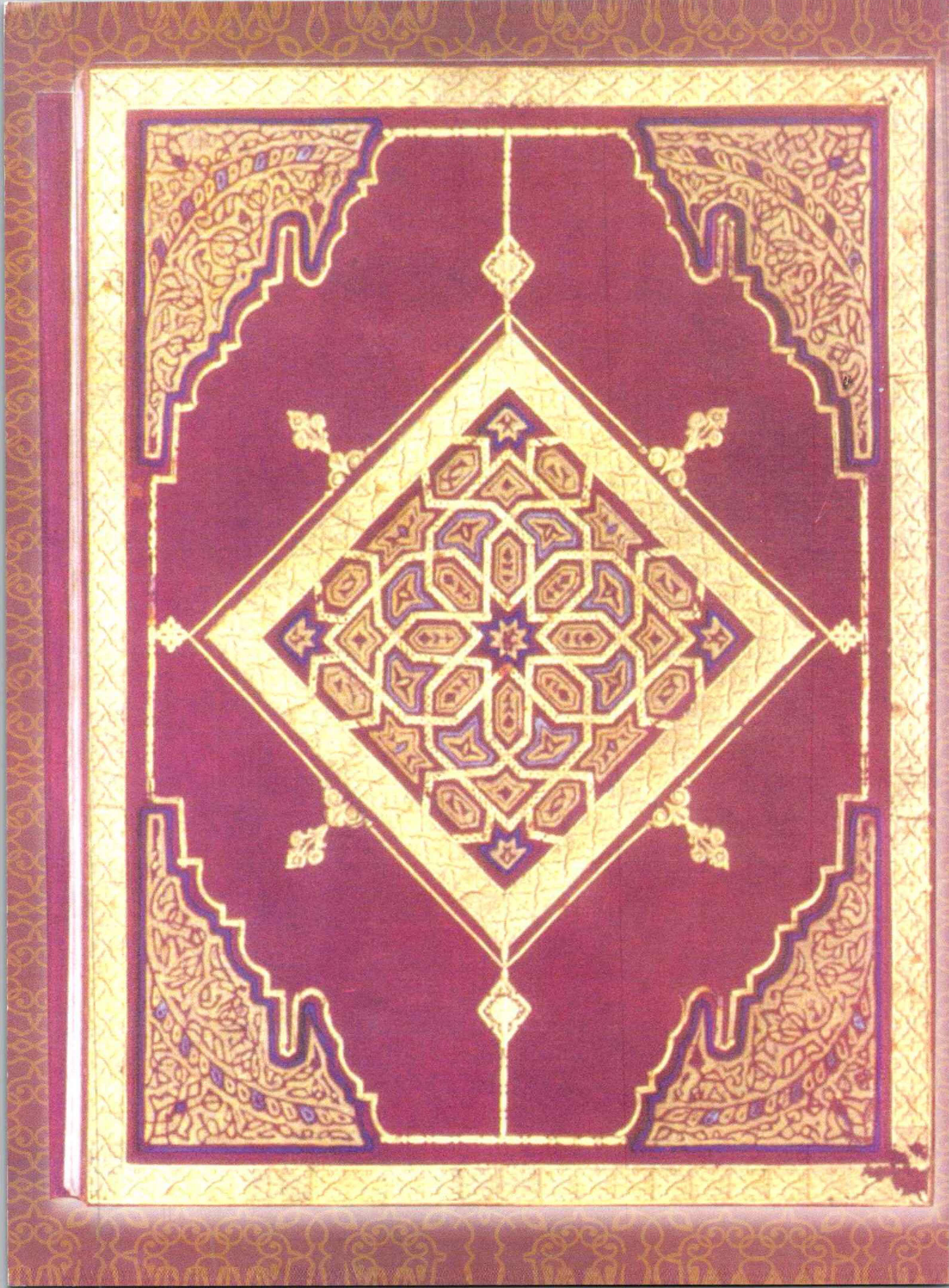
شروط النشر بالمجلة

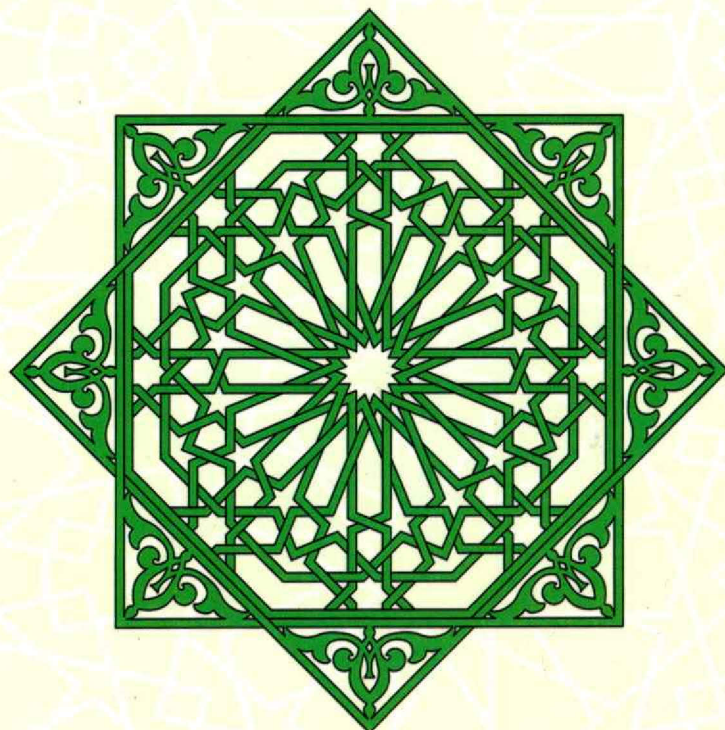
- تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:
- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستقلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- البريد الإلكتروني هو : alamihamid49@gmail.com
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

محاور الأعداد المقبلة

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاورين الآتين:

- 1 - ذكرى عيد العرش المجيد.
- 2 - ذكرى ثورة الملك والشعب.





دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعكر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية